

دعاء عبد الرحمن

رواية

وَقَالَتْ لِي!

دعوة لفهم العالم الآخر



الكتاب : وقالت لي

المؤلف : دعاء عبد الرحمن

تدقيق لغوي : د. هَمَّت القاضي

تصميم الغلاف : م. فاطمة الجندي – إسلام مجاهد

لوحة الغلاف برِيشة : لطيفة برجوس

تنسيق داخلي : سمر محمد

رقم الإيداع : ٢٣٨١٣ / ٢٠١٦

٩٧٨٩٧٧٦٥٤١٠٩٢ : I.S.B.N

محمد شوقي : المدير العام

مدير النشر : علي حمدي

مدير التوزيع : عمر عباس / 01150636428

للمراسلة الدار: Email:P.bookjuice@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع



وقالت لي

رواية

دعاء عبد الرحمن



يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة مجاناً
على موقع جديد كتب بديف

www.jadidpdf.com

www.jadidpdf.com

إهداء

إلى كل من لا يعتقد أنه يمتلك الحقيقة الكاملة وحده

افتتاحية

قد تعتقدونها مجرد حكاية
وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر!

وصية بين القبور

ما الذى جاء بها إلى هنا ؟!

مضت ستة أشهر على وفاته فى حادث سير مُروع، بعد أن اخترقت حنجرتة أسياخٌ حديدية كانت مُحملةً فوق الشاحنة التى تسبق سيارته ونفذت للإتجاه المقابل. إلى متى ستظل تُقرع نفسها لتقاعسها عن حضور جنازته ؟، هاهى وكما تفعل أسبوعياً، تأتي إليه وتجلسُ على حافة قبره بانحناء مبالغة إلى الأمام، ملابسها السوداء الطويلة كقامتها مُتعبِرةً ذيلها بغبار المقبرة، وتعتذر .. تعتذر عن كل شىء .

كيف تحضر جنازته وهى التى قتلته ؟!، ألم تكن هى التى أصرت على أن يَقلَّها إلى حفل زفاف زميلتها فى العمل. ماذا لو كانت أطاعت والدتها ولم تذهب إلى الحفل، هل كان هذا كفيلاً لبقائه حيًّا يملأ البيت دفئًا وحبًّا كما هى عادته دومًا، هل تستطيع أن تنسى جحوظ عينيه، وهو يرتعش ودماؤه تنزفُ حول الأسياخ التى أصبحت هى وجسده الطويل قطعةً واحدة. لماذا لم تمتْ هى الأخرى لترتاح أسرتها من شؤمها؟، هذه هى عبارة والدتها دومًا منذ أن وقع هذا الحادث المشؤم، تُسمعها إياها كل ليلة وهى تصرخ محتضنةً صورته المؤطرة، وهل تحتاج

إلى صورته ؟، ملامحه منقوشة بداخلها على الدوام، عيناه شويتان تبرق
كلما ابتسم، شعره الرمادي بفعل السنين لم يزد سوى جاذبية في عيني
شريكة عمره، وابنته التي تعشق حنائهُ النادر وهو يناديها باسم جدتها
المُحِب لها .

تحسست روى ترى القبر الندي بأناملها وهى تمس بألم:

- أبى، صدقنى لو عادت تلك اللحظة لما خرجت إلى ذاك الحفل
أبدًا، لكنك أظعت والدتى، أبى أحتاجك، أحتاج مساندتك، منذ
رحيلك وأمى تكرهنى، بيتنا لا يُطاق بدونك، أنا لا ألومها، أنا ..

قاطعتها نحنة متحشجة مرتبكة آتية من خلفها، التفتت عاقدةً
حاجبيها متوترة بتوجس فاصطدمت عينها بامرأة نحيلة تقف عند باب
المدفن ورغم المشقة البادية عليها إلا أنها تقف باستقامة واعتزاز وكأنها
قد حازت للتو نصراً ما، تُعدل وضع نظارتها الشمسية القائمة بتلكوٍ
ولهيب حرارة الصيف جعل جبينها يتفصد عرقاً وهى تمسحه بمحزمةٍ
ورقية بيضاء. نهضت روى من مجلسها بجوار القبر تنفض ثوبها وتقدمت
نحوها بارتياحٍ، صعدت المرأة درجة السلم التى فصلت بينهما
وتنحنحت مرةً أخرى قائلةً بجدوء، لا تعرف كيف تبدأ حديثها:

- اممم، أعذر عن تطفلى، ولكن ..

صمتت مرةً أخرى وقد نال من نبرتها بعض الارتباك قبل أن تحسم
أمرها وهى تدكفها قائلةً بحسم:

- آنسة رؤى أعرفكِ بنفسى، أنا هالة

انقعد حاجبا رؤى أكثر وهى تنظر إليها بشكٍ، من هذه؟ وكيف تعرفُها؟! نظرت إلى كف هالة الممدود نحوها ثم عاودت النظر إليها متسائلةً:

- هل تعرفينى؟!

سحبت هالة كفها بتفهمٍ وقالت بابتسامة مرتعشة وهى تنزع نظارتها ببطء:

- لدي طفلتان توأمتان فى دار الروضة التى تعملينَ بها، جنى و جُين لو تذكرينهما، تتكلمان عنكِ بحروفهما المتعثرة تلك طوال الوقت، معي !!

لا تعلم رؤى لماذا قالت المرأة الكلمة الأخيرة بنبرة خاصة وهى تضغط حروفها وكأنها تؤكد وحدتها مع طفلتيها لوقت طويل، ولكن كيف عرفت بتواجدها الآن عند قبر والدها؟! ورغم اضطرابها حركت رأسها بتذكر مُحب وهى تقول:

- نعم، بالطبع أذكرهما، فلديهما ابتسامة حلوة تُذهب عني غناء مشاكستهما التى لا تنتهى .

ضحكت هالة بخفوتٍ ضحكةً صغيرةً ثم ربت على مرفقيها بتوددٍ قائلة:

- أعانك الله حبيبتي، فأنا أتحملهما بصعوبة في المنزل، لا أعلم كيف تتحملين التدريس لكل هذا العدد من الأطفال، وخصيصاً أن منهم عدداً كبيراً لديهم صعوبة في النطق مثل جنى و لجين .

فتحت فمها بحماسة لتتكلم عن شعورها بالفخر بهما وهي تدرجهما على نطق الحروف نطقاً صحيحاً ولكنها صمتت في اللحظة الأخيرة ونظرت للخلف نحو القبر وهي تُؤنب نفسها بقوة. كيف تقف تبتسم هكذا بعد أن كانت تحنقها العبرة والذنب منذ قليل؟، هل سمعها؟، هل هو غاضب؟!

لاحظت هالة شرودها وصمتها الذي طال وشحنات التوتر البادية على حركات كفيها وهي تفركهما ببعضهما البعض، فجمعت شتات نفسها قليلاً وتوجهت نحو الدرج الحجري المرتفع بعض الشيء بجوار مجموعة أزهارٍ ذابلة مُلقاة بإهمال وجلستُ بأريحيةٍ وقد قررت الكشف عن سبب وجودها في هذا المكان. تقدمت رُوى باتجاهها وهي تفكر في كيفية صرفها بلباقة، فهي مازالت تود مصاحبة والدها بعض الوقت، ولكن هالة فاجأتهما بأن أشارت إلى المساحة الشاغرة بجوارها وهي تقول بنبرة حملت رجاءً من نوع خاص:

- هل من الممكن أن نتحدث قليلاً، من فضلك؟ .

أصابتها بعض التبرم وهي تجلس بجذعٍ منحني للأمام قليلاً، تكاد تلامس الدرج الحجري لمساً مستندةً إليه بكفيها معتمدةً عليهما وكأنها

متأهبةً للقفز واقفةً في أية لحظة. رفعت هالة نظارتها فوق حجاب رأسها الرمادي، ملأت رئيتها بالهواء بقوة والذي حمل لها نفحةً من رائحة الليمون المنعش، ثم زفرت ببطءٍ واصمةً جميع انفعالاتها في تلك الزفرة ثم التفتت إليها، وبخفوتٍ، وبنبرة لفحتها الرعشة رغماً عنها، قالت:

– أعرف، أنا متطفلةٌ وفضولية في نظرك الآن، ولو كان الوقت بيدي لكنت تركت باب صداقتنا موارباً تفتحه الأيام والمناسبات بروية، ولكنني مضطرةً للقفز فوق كل تلك الاعتبارات، فأنا أسابق لحظاتي الأخيرة.

التفتت رؤى بحركة حادة نحوها وقبل أن تُعلق متسائلةً تابعت هالة وهي تنظر في عينيها بثباتٍ:

– عندما رأيتكِ قدراً منذ شهر تقريباً عند بداية منعطف المدافن تعرفتُ عليكِ بسهولة وحاولت التحدث معكِ ولكني خجلت، وبشكل غير مقصود سرت خلفكِ، فمدفنا الخاص بعائلتنا في المنعطف التالي مباشرة، وشاهدتك وأنت تدلفين هنا، فعلمت بأن هذا المدفن يخص عائلتك.

صمتت مجدداً لتلتقط قوتها مع أنفاسها ورؤى تتجاذب أطراف الصمت معها تنتظر التهمة لهذا الحديث المريب بالنسبة لها ولتعلم كيف عرفت هالة بمكانها الآن، بينما أردفت هالة بشرود:

- حاولتُ أيضًا فتح أى حديثٍ معكِ عندما كنتُ أذهب
لاصطحاب بناتى من دار الروضة، ولكن شحوبكِ الذى يزيد
يومًا بعد يوم جعلنى أتراجع، و..

تخرج صوتها وقد خنقتها غُصة مُسننة وهى تستطرد:

- و خفت أن أبكى منهاره أمام بناتى فأفزعهما

مدت رؤى كفها لترت على كتفها بتعاطف فما استطاعت سوى أن
تلمس ساعدها بأناملها وهى تقول بخفوت:

- هوني عليكِ

شعرت من داخلها بتصدع كلمتيها ولكن ماذا بيدها أكثر من هذا،
إنها حتى لا تفهم لما اختارتها تلك المرأة لتفرغ أمامها ما يجعبتها من
أحزان، لماذا يسلك الهم دومًا دربها مهما اختلفت بهما السبل

قاطع سيل أشجانها صوت هالة وهى تهمس مطرقةً برأسها:

- أنا آتى إلى هنا أسبوعيًا، أتفقد قبرى!

إتسعت عيناها دهشةً وانقبض صدرها وهالة تتابع دون توقفٍ :

- لاحظتُ أنكِ تحضرين إلى هنا أسبوعيًا أيضًا، وفى كل مرةٍ كنتُ
أمرُّ بكِ ولكنكِ لم تلحظينى وأنتِ غارقة فى أحزانك، تتحدثين إلى
والدك

وقفت رؤى وهى تشد على حزام حقيبتها فوق كتفها مصدومةً، هل
استمعت إليها أم هو مجرد تخمين؟! ثم ما حكاية قبرها ذاك، امرأة غريبة
أريكتها بشدة!، تبعها هالة ناهضة هامسة بعبارات متفرقةٍ برجاء:

- سامحيني، لم أقصد التلصصَ عليكِ، وجدت بكِ ضالتي، أرجوكِ
اسمعي لي للنهاية

كانت رؤى تنظر إلى الطريق في جلستها بجوار النافذة في سيارة
الأجرة التى استقلتها منذ قليل للعودة إلى منزلها بعد أن ودعتها هالة
وانصرفت منكسة الرأس منتظرة ردها ببأس!، الهواء يلفحها تاركةً العنان
لدموعها التى تهطل كأمطارٍ غزيرة بلا توقفٍ يُذكر، لماذا قالت لها "
سأفكر"؟! لقد كان طلب هالة منطقياً في مثل حالتها تلك ولكن ردها
هو الذى أذهلها حقاً، المرأة مصابةٌ بمرضٍ خبيث وتعلم أنْ مُكوئها بين
الأحياء الآن أمرٌ مؤقتٌ، تسعى لتأمين آخرتها بكل تلك الأعمال
الصالحة التى انغمست فيها منذ علمها بمرضها بما فيها زيارة قبرها
لتنزود به فتعلو همتها للإكثار من الطاعات قدر استطاعتها، كما تسعى
لتأمين أمِ حنونٍ لبناتها الصغار، وكما أخبرتها لقد وجدت بها كل ما
كانت تنشده في تلك الأم. لقد كانت هالة صريحةً إلى أبعدِ مدى عندما
سألتها رؤى لماذا ظنت بأنها ستوافق على عرضها ذاك وقد كانت
إجابتها وافية وهى تهمس بخجلٍ من نفسها:

- فى المرة الأولى عىءما استمعتُ إلك رعمًا عى وأنت تتحدثى إلى والءك، ظننت بأنك مجرد فتاة حزينة على رحىل أبىها، وكنت فى كل مرة آتى لأتحدث إلك أترابع فى آخر لحظة، فأستمع إلك وأنت تكررى نفس الءءء، تؤبىن نفسك وتشتكى من سوء معاملة والءك لك، تتحدثى عن نفسك بىأس وعن زهء الخطاب بك وعن كرهك لئلك الءىاة، وكأنك اكتفىقى منها، فوءءت بك ضالى، بناتى ؤبونك للءاة وأنا وءىءة ولىس لى عالة ىىر زوجى وطفلى، فلمن سأترك بناتى إلا لامرأة أطمئن علفها بصحبتها، ثم أن زوجى لىس له سوى أم عىوز وشقىقة كبرىة بالسئ وتعفى مع عائلتها الصغىرة فى منزل بعىء عن منزلنا، لها طبع نرق بعض الشىء ولن تتحمل تربىة صغارى، وفى كل الأحوال سىبىء زوجى عن زوجة و أم بءىلة، فلماءا لا تكون أنت ؟

لم تستطع رؤى ءمىل نظرة الرءاء المتوسلة من عىنى هالة المءقنة بالءمع وهى ءمس بنبرة اءئلط بها الءزن بالواقعىة التى تعفىشها هالة الآن:

- ما أسمعها من بناتى عنك ؤومىًا، ؤجعلنى لا أرى لهما ىىرك، أرجوك لا ءءلىنى، لا ءءلى شبع امرأة مثلى على مشارف الموت، أءشى على صغارى الضىاع أو زوجة أب قاسىة، إن وافقى سئقابل هنا

الأسبوع القادم، وكل أسبوعٍ سيأتى حتى تحينَ لحظتى، وسأخبركِ بكلِّ ما تُريدين معرفته عن بيتى وعائلتى لتستطيعين التعايش معهم بسلاسةٍ من بعدى، وسأخبر أُمَّ زوجى عنكِ، فهى فى كل الأحوال تبحث له عن زوجةٍ أخرى منذ أن علمت بمرضى !.

تنبهت حواس رؤى عندما ناداها السائق بأنها قد وصلت إلى وجهتها المنشودة، فتحركت باضطرابٍ وهى تترجل من السيارة. نقدت السائق أجرته والذى تلقاها بتذمرٍ وهو يقيمها بنظرةٍ حائقة قبل أن ينطلق مُهمهمًا بكلماتٍ لم تسمعها بوضوحٍ بل لم تهتم لسماعها من الأصل. استدارت لتدخل البناية القديمة التى تقطن بطابقها الأرضي والى تحتل منتصف ذاك الشارع العتيق تمامًا فاصطدمت عيناها بصورتها المعكوسة على زجاج سيارة كانت تقف أسفل البناية تنتظر صاحبها، رغم عدم وضوح الصورة جيدًا إلا أنها عكست ما تراه دائمًا فى مرآتها الخاصة، عظمتا خديها واضحتان للغاية من شدةٍ نحول وجهها، شعرها الخفيف التى تجمع شق غرته الطويلة للخلف مع بقية شعرها بينما تترك الشق الآخر منسدلاً فوق نصف وجهها الأيسر لعلها تداوى ذلك النحول الظاهر عليها، عيناها الباهتتان الرماديتان الشبهتان بعيون الأموات!، لا حياةٍ بهما مهما جملت حولهما بالأصباغ

استندت إلى مقدمة السيارة وهي تفكرُ بشروودِ رافعةً رأسها لأعلى قليلاً، تركزُ بصرها على نافذةِ غرفة والدها اللامعة وكأنه لم يهجرها يوماً، ومواجهة مروعة بداخلها تطحن أنوثتها بغيرِ هوادة:

- واجهى نفسك يا رؤى، هل قلتِ لها " سأفكر " لتطمئنيها فقط وتجعلينيها تنصرف، أم أنك قد وجدتها فرصةً للهرب من هنا، من ذكرى والدك الذى قتله عنادك أيتها الحمقاء، فرصةً للهرب من والدتك، بل من أشلائها التى مازالت تتنفسُ قربك تذكرك بقتل حبيبها وزوجها كلَّ يوم وكل دقيقة أيتها القاتلة، فرصة للهرب من عزوف الرجال عنكِ أيتها الدميمة .

صرخة أخرجتها من كل هذا، صرخة تعرفها جيداً، وقبل أن تعود برأسها للأسفل كانت جميع النوافذ قُتحت وأُطلَّ منها جيرانها، سُكان الطوابق التالية فى بنائها وفى البناية المقابلة لها. ألم يملوا بعد؟!، لقد حفظوا تلك الصرخة الصادرة عن والدتها التى أصبحت يُلقبونها بالجنونة والملبوسة، وقبل أن يغلقوا نوافذهم عائدين إلى الداخل انطلقت الكلمات الحانقة من حناجرهم متداخلةً مختلفةً ولكنها جميعها بمعنى واحد " الأمرُ بات غيرُ محتمل "، " لا بد وأن ترحل تلك المجنونة من هنا هى وابنتها تلك "، " شقتهم تلك مسكونةٌ لا محالة " .

خطت ببطء وتلكؤ داخل البناية وهى تتبسم بسخرية بائسةً مهمة:

- تدمروا كما شئتم، هل ستقاطعوننا مثلاً؟! نعيش وحدنا لا يزورنا
أحدًا ولا يسأل عنا عابر، نعيشُ كالعناكب !

ومع أول خطوة لها بداخل البناية لاحظت إحدى جاراتها تقبض
السلم مسرعةً وهي تُلَفُ وشاحًا قائمًا كبيرًا حول رأسها بطريقةٍ غير
مهذمةٍ وجسدها الضخم يهتز بشدةٍ بداخل جلاباب المنزل الفضفاض
الحالك مع سرعةٍ خطواتها الثقيلة وصوتٍ صلصلةٍ أساورها الذهبية
الكثيرة حول يديها تُحدثُ رنينًا مسموعًا ومنبئًا عن هوية صاحبتها مما
جعل رؤى تُسرع الخطى نحو شقتها، ولكنها لم تُكمل خطواتها التالية بعد
عندما تسمرت قدمها وهي تسمع صياح المرأة بصوتها الغليظ مناديةً:

- انتظري مكانك

ابتلعت رؤى غصتها وهي تعلم ماذا ينتظرها على يد جاريتها تلك
التي لم ترحمها عندما أوقفتها الأسبوع الماضي، وها هي تُعاود كرمها
ولكن يبدو أنها هذه المرة أكثر غضبًا من سابقتها، حاولت أن تبدو
متماسكةً وهي تستدير نحوها ببطءٍ، وقبل أن تُكمل استدارتها شعرت
بقبضة المرأة تلتف حول ساعدها النحيل وتديرها لتواجهها هاتفةً بحنقٍ:

- ماذا فعلتِ فيما اتفقنا عليه الأسبوع الماضي؟

بللت رؤى شفيتها بطرفٍ لسانها وهي تنتزعُ ساعدها بحذرٍ من
قبضة المرأة وهي تُجيبها باضطرابٍ:

- خالتي، نحن لم نتفق، أنتِ أمرتني بأن أخلى الشقة، وأنا ليس لدي
بديل، ماذا بيدي أن أف ..

قاطعتها المرأة صائحةً وقد اشتدت عقدة حاجيها وتطايير الشرير مع
تطايير نظراتها الحادة:

- أنا لستُ بخالتك أيتها البائسة، ولا تتحججني بالبديل، فلقد
عرضتُ عليكِ شقة أخرى تؤجرينها في مكان آخر، ولكنك
تماطلين

فتحت رؤى فمها لتتكلم ولكن المرأة لم تسمح لها وهي تزجرها بلا
رحمة:

- أم تُراكِ سعيدة بأحفادي الصغار وهم يمرون إلى السلم جرياً
برعبٍ، خوفاً من شقتكم والصراخ الصادر منها مرةً بعدَ مرة

أطرقت برأسها والاحساس بالذنب يلتهمها التهاماً متخيلة الصغار
وهم يهرولون من باب البناية وحتى درجات السلم بخوف، ولكن من
يضمن لها إن قبلت عرضَ المرأة وانتقلت إلى الشقة الأخرى التي
عرضتها عليها أن لا يضجر منها جيرانها الجدد هناك ويفكرون بطردها
هم أيضاً؟. لماذا سيتحملون صراخَ أمها وهم لا يعرفونها بينما من تربت
بينهم وكبرت لم يستطيعوا تحملها!، من كانوا يصافحون والدها بابتسامةٍ
ودٍ وترحابٍ عند اللقاء، ويربتون على شعرها وهي في يده، تخلوا عنها
وصدقوا أن شقتهم مسكونةٌ بشبحه وأنَّ والدتها ملبوسةٌ، فكيف بجيرانٍ

آخرين، ماذا سيفعلون بهما؟. ووجدت نفسها مُضطربةً على تكرار نفس الكلمة للمرة الثانية في هذا اليوم الغريب فأومأت برأسها متممةً:

- سأفكر

رفعت المرأة سبابتها في وجهها محذرةً وهي تقذفُ الكلمات بوجهها وكأنها رصاصاتٍ محترقة:

- اسمعي، لقد نفذَ صبري، ومن الواضح أنك لا تعرفيني جيداً بعد، إن لم تفعلني ما أمرك ستجدين أمك ملقاةً في مشفى للمجانين بين يومٍ وليلة، و..

- فتحية !!

نداءً حانق جعلهما يلتفتان نحو مدخل البناية، عقدت فتحية يديها فوق صدرها بترمٍ وهي تنظر إلى زوجها القادم نحوهما بجسده الضخم وعمامته التي يرمى طرفها المتدلي دائماً على كتفه متمهلاً وهو ينظر نحو زوجته معاتباً وما أن وقف قبالتها حتى رفع يده وربت على كتف رؤى قائلاً بحنو:

- ادخلي بيتك يا بُنيتي الآن

تنفست رؤى الصعداء وهي تستديرُ مُسرعةً الخطى نحو شقتها تلتقط أذناها أطراف حديث الزوج الحانق وهو يؤنبُ زوجته على ما تفعله بالفتاة اليتيمة ورد زوجته الأكثر حنقاً وهي تحاول إقناعه بعدم

التدخل. ولجت إلى شقتها واستندت بظهرها إلى الباب بعد أن أغلقتها خلفها مغلقة عينيها براحة، تستعد للجولة القادمة لتتلقى نصيبها اليومي من صراخ أمها، وشبح والدها !

الشقة هادئة أكثر من اللازم، أمر مقلق بالفعل، التفتت تنظر نحو غرفة مكتب والدها فوجدتها مغلقة لا تظهر أى إضاءة من أسفل بابها، توجست بعض الشيء وهى تجر قدميها إلى غرفتها، ووقع أقدامها تذكرها بأن تخلع حذاءها قبل أن تتوغل أكثر فيناها ما ينالها دومًا بسببه، تخلت عن حذاءها جانبًا وتقدمت لتفتح باب غرفتها وعندما فعلت وأطلت برأسها للداخل بترقبٍ مستمعةً إلى صوتٍ قماشٍ يتمزق علمت أنه يخصها قبل أن تراه. أتسعت عيناها وهى تنظر إلى والدتها التى تُمسك بأحد المقصات الحادة وتفصل أزار تنورتها الجديدة عن قماشها بعد أن مزقت السحابة والجزء الذى يليها، فهرولت للداخل وهى تهتف بحنقٍ قبل أن تحاول جذب التنورة من بين يدي والدتها :

— ماذا تفعلين بملابسي يا أمي، أرجوك أتركها

قبضت والدتها بقبضتيها المكتنزتين المتجعدتين واللتين تهتران قليلًا فوق قماش التنورة الزرقاء الطويلة ثم رفعت وجهها المستدير التى تتوسطه عيناها الحادثان، ونظرت إليها نظراتٍ مهتزة مشتعلةً يدفع لحيبها نظارة ذات حافات معدنية سوداء قائمة وتفحصتها بنظراتٍ جمعت بين الحدة والاضطراب متسائلةً:

- هل نفضتِ قدميكِ قبل أن تدخلِ البيت؟

حاولتِ رؤى جذب تنورتها مجدداً وهي تكتفٍ بضيقٍ وتكاد تبكي:

- نعم فعلت، والآن من فضلك أتركها، ليس مجدداً، ليس مجدداً
أمي.

وكان قبضتي والدتها تحولت إلى كلابتين متشبثتين بالتنورة وتجمدت
عينها وهي مازالت تتفحص عيني رؤى بكُرهٍ سافرٍ وتجيّب من بين
أسنانها التي تطحنها بقوة:

- مازلتِ تخططين لخلع السواد أيتها القبيحة، وعُدتِ لعطركِ

المُكرّف والمُقرّز مثلك، لن تنالي ما تريدين أبداً وأنا على قيد الحياة

انهمرت دمعاتها فوق وجنتيها بقهر وهي ترى التنورة تتمزق بالفعل
بينهما فتركتها مُرغمةً وانهارت فوق فراشها صائحةً بانفعال:

- لقد مزقتِ جميعَ ملابس أمي، لم يعد لي شيء سوى السواد

لأرتديه منذ شهر، إنها فقط تنورة أمي، مجرد تنورة جديدة لا
أكثر

جاءتها الإجابة على شكل صوت تمزيقٍ آخر قضى على آخر أملٍ

لها في إصلاحها وارتدائها ولو لمرة واحدة، منذ أسبوع ابتاعتها وخبأها

جيداً أسفل فراشها حتى لا ينالها ما نال سابقتها ولم تتجرأ من يومها

على إخراجها من محبائها، وما هي تراها مُهلهلة أمام ناظريها لا حول لها

ولا قوة، رفعت عينها إلى والدتها التي تخرج من غرفتها بانتصارٍ وانتشاءٍ
وعندما التقت عينيها أعادت والدتها حُصلةً بيضاء اشتعلت بالشيب
خلف أذنها وعدلت من وضع نظارتها مغممةً:

- لا أعلم لم لا تموتين ونرتاح من شؤمك هذا ؟.

أَلقت عليها نظرةً متقرّزةً وهي تخرجُ من الغرفة بقدميها الحافيتين
التي ساهمت في إبرازِ قِصرِ قامتها وشفعت البابَ خلفها بعنفٍ. وماهى
إلا لحظاتٍ حتى دوى الصراخُ في جميع أنحاء المنزل، صراخٌ تكاد الجدران
تتصدعُ من عنفه وقوته، الصراخُ يعلو ويعلو بشكلٍ مُخيفٍ، خافت أن
تخرج من غرفتها، اكتفت بأن وقفت خلف الباب مستندة إليه بظهرها
وصدرها يعلو ويهبط بجنونٍ والخوف يشل أطرافها، وبحركة غريزية مدت
يدها وأوصدت الباب من الداخل مُحتميةً به من تلك الموجة التي تكاد
تصم أذنيها على الجانب الآخر من الباب. جرت نحو فراشها تضم
ساقها لصدرها وتضع كفيها فوق أذنيها وتضغطهما بقوةٍ، لا تريد أن
تسمع، لا تريد أن تشعر، بل لا تريد أن تحيا. ولكن هل تتركها تصرخُ
هكذا؟، ماذا لو حدث لها مكروهٌ، ماذا لو اختنقت وماتت من فورها؟،
لا .. لا بد من أن تُسرِعَ إليها مهما كانت العواقب التي تعلم عنها
مُسبِقًا وعن تجربةٍ كم هي موجهةٌ، وقبل أن تُهب من فوق فراشها بلحظةٍ
واحدة سكت كل شيءٍ، لم تندesh فهي تعلم بأن والدتها قد انتهت
كالعادة من تفريغ شحنة جنونٍ تمر بها يوميًا ثم تهدأ تمامًا إلى أن يحدث

ما يُثيرها مرةً أخرى بأي شكلٍ من الأشكال لتعود العاصفةُ تضرب وجهها وأذنيها مرةً أخرى، لحظاتٍ أخرى وسمعت طرقاتٍ خفيفةً على الباب يصحبها صوتٌ والدتها هادئًا بشكلٍ ظاهري، يخفي ارتعاشًا بين ثناياه:

— والدك يُريدك في غرفة مكتبه !!

تهتدت بضجرٍ وهي تنهض بتعبٍ من فراشها متجهةً نحو باب غرفتها، لقد نصحتها أحد الأطباء الذين أخذت بمشورتهم عن حالة والدتها أن لا تستسلم وتنصاع لهلاوسِ أمها التي تتخيلُ والدها مازال على قيد الحياة، ولكنها ببساطةٍ لم تستطع!، شيء ما بداخلها يعجبه وجود أبيها الوهمي بينهما، يرغب بتصديق بقائه، بأنه لم يرحل ويتركها، ذاك الشيء الغامض يكبرُ بداخلها كلَّ يومٍ وربما هو من جعلها تتوانى في الإصرار على علاج والدتها !

وفي طريقها للخارج مرت بغرفة نوم والديها ولقد كان البابُ مفتوحًا، الطلاء الذهبي أصبح قاتمًا، الفراشُ مازال في منتصف الغرفة تمامًا، الاتجاهُ الذي كان ينام فيه والدها دائمًا مرتبٌ بمبالغة، والنعل المنزلي الزيتوني اللون أسفله يقبع على الأرض ينتظر قدمي صاحبه الدافئتين، عطرُ والدها الرجولي يعبق الغرفة ويتسربُ خارجها بقوة. لحت والدتها وقد بدلت ملابسها بأخرى ملونةً بشكلٍ مُبالغٍ وتطلّى

شفتيها بلونٍ قرمزي بتمهلٍ غريبٍ وكأنها تنذوق اللونَ أولاً، مطتُ رؤى
شفتيها بمللٍ وقبل أن تُكملَ طريقها سمعتُ والدتها توقفها قائلةً:

– لا تُغضبي والدك فهو في مزاجٍ رائقٍ !!

حركت رؤى رأسها بسأمٍ مرهقٍ وتوجهت نحو غرفةٍ مكتبٍ والدتها
منصاعةً، ولدهشتها وجدت نفسها تتصرفُ بتلقائيةٍ وطرقت الباب بخفةٍ
وكانه بالداخل بالفعل ثم فتحت البابَ وولجت وهي مطرقة برأسها
للأسفل. رفعت رأسها ببطءٍ وعيناها تسبقها نحو أركانِ الغرفة، تستقر
في كل ركنٍ منها لجزءٍ من الثانية وكأنها تصافحها بنظراتها السابحة، وقفت
للحظاتٍ أمام مكتبه الخشبي المطلى باللون البني القاتم وببطءٍ شديدٍ
تُحرك جسدها. دارت حول المكتب إلى أن وصلت للمقعد الضخم
الدوار خلفه، مرت أناملها فوقه وهي تمسحُ بعضَ الغبار الطفيف الذي
علِقَ به، هنا كان يضع ساعديه ويستندُ بمرفقيه، وهنا يعود بظهره
للخلف ضاحكاً، وتلك المكتبة الضخمة البنية اللون هناك والتي تملأُ
جداراً كاملاً من جدرانِ الغرفةِ الأربعة، معظم الكتب بها عن الطب
النفسي والعلاج الروحاني والتي كان يستعين بها كثيراً لمساعدة والدتها
لتخطي أعراض الوسواس القهري والهلاوس التي تعتربها أحياناً .

سقطت عيناها سهواً على الأصوص المشروخ من المنتصف تماماً
والموضوع على الأرض بجوار المكتبة، لاتعلم لماذا ظل والدتها محتفظاً
بهذا الأصوص الغريب المصنوع من الطين المجفف والمنحوت على شكلٍ

وجه رجلٍ جامدٍ العينين وبداخل الأصيل سيقان نباتات جافة كأنها بعض من شعر الرجل ليكمل صورة الوجه الفزع من شيء ما، ربما احتفظ به والدها لأنه كان هديةً من والدتها في ذكرى يوم ميلاده. تذكرت عندما حاولت مرارًا وتكرارًا إقناع والدتها بأن تُعيده إلى المكان الذي ابتاعته منه وتستبدله بشيءٍ أكثر رقةً وجمالاً ولكن والدتها أخبرتها بأنها ابتاعته من رجلٍ مرَّ ببابهم يحمل عدداً منهم خلف ظهره وجميعهم بنفس الشكل ولم يمر بعدها أبداً وكأنه جاء من أجل منحهم هذا الأصيل بشكل حصري ثم يختفي بعدها للأبد .

أكملت رؤى دورتها حول المكتب الخشبي حتى عادت إلى المقعد الصغير المقابل له فجلست فوقه بخفيةٍ واستدارت بجسدها كله تواجه المقعد الضخم خلف المكتب وكأنها تنظرُ إلى من كان يحتله يوماً بجسده العريض القوي البنية وبللت شفيتها بلسانها بتوترٍ وهي تستشعر أنفاسه حولها في كلِّ مكانٍ فأغمضت عينيها بألمٍ قبل أن تمس:

– ليتك هنا بالفعل

ارتعشت إضاءة المصباح الصغير البرتقالي قليلاً وكأنه يخبرها سراً ما!، وقد كان المصباح الوحيد الذي يضيء الغرفة، فسرت في جسدها قشعريرةً لا تعرف مصدرها ولكنها أجبرتها على النهوض لمغادرة المكان في الحال، تنحنحت بخفوتٍ وتوترٍ وهي تنهض واقفةً متوجهةً نحو باب الغرفة ولكنه فُتح فجأةً وضرب وجهها فصرخت وهي تتراجع للخلف

خطوات مُمسكةً بأنفها المكدوم قبل أن تظهر والدتها وهى تلج للداخل
حاملةً فنجاناً من القهوة السادة وتقول عاقدة حاجبها باستهجان:

- انتبهى لنفسك أيتها البلهاء فوجهك لا ينقصه تشوهاً آخر

وتابعت وهى تضع الفنجان فوق سطح المكتب وبابتسامة جذلى:

- هيا عودي لغرفتك يا صغيرتي، لا يجب أن تستمعى لأحاديث
الكبار

زفرت رؤى بقوة وهى تُدلك طرف أنفها برعونةٍ وخرجت من الغرفة
وقبل أن تُغلق الباب وجدت والدتها تميلُ على سطح المكتب بجذعها
وهى تنظر للمقعد الضخم قائلةً بابتسامةٍ مُشرقة:

- قهوتك عزيزى !

- لماذا تبكين!؟

اعتدل هشام فى فراشه على جانبه الأيمن بقلقٍ نحو حالة المستلقية
بجواره وهى توليه ظهرها ولكنها لم تجبه، كاد أن يشك بنومها ولكنه
متأكد من سماع نهنها المتواصلة منذ ثوانٍ، فأعاد سؤاله مجدداً وهو
يتلمس كتفها فاعتدلت مستلقيةً على ظهرها وأدارت رأسها نحوه قائلةً
بصوتٍ مخنقٍ:

- لا شيء، عُذ لنومك

نبرة صوتها المتقطعة أكدت له بكاءها فتنهد بقوة قبل أن يمسح أثر النوم عن وجهه بكلتي يديه ثم قال بنبرة يشوبها الحنو:

- تعلمين أننى لا أستطيع النوم وأنتِ تبكين هكذا؟

خُيل إليه أنها ابتسمت ساخرةً وقالت بصوتٍ حزينٍ شارد:

- منذ متى وبكائى يمنعك من النوم يا هشام؟!

زفر حانقاً وهتف فجأةً وقد اختفى كل أثرٍ للتعاطفِ معها:

- وهل النوم جريمة هذه الأيام، ألن ننتهى من تلك الاسطوانة أبداً

غطت أذنيها بكفيها بينما أعاد هو زفرته بقوة وهو يحك ذقنه الحليقة بأصابع مضطربة ويعود ليستلقى على ظهره ناظراً لسقف الغرفة واضعاً كلتي يديه أسفل رأسه بصمتٍ .

وقتها لم تكن تعلم هي أن سكونه كان ظاهرياً فقط ولكن بداخله صراعٌ محتدم، لماذا لا تستطيع سماع صمته؟! كلما أراد ضمها دفعته بكلماتها، لماذا ترحل بأفكارها البائسة بعيداً عن نيتة الطيبة نحوها، إنه يهتم، ولكنه لا يستطيع أن يُظهر اهتمامه كما يجب ولا يعلم لماذا، كلما حاول تراجع وكأن هناك ما يدفعه بعيداً عنها، هل لأنها هي من تطلب الاهتمام؟، تطلبه بشغفٍ يجعله يخشى التقصير!، تقصير صاحبه لسنوات زواجهما منذ بدايته لا يعرف أسبابه ولا كيف يتخلص منه

طال صمته ولم تجدْ هالة ما تمنَّت أن تجده، فسأل دمعها بغزارةٍ أكثر وبصمَّت أكبر وعادت توليه ظهرها، والهوة بينهما تتسع أكثر فأكثر، وكأنَّ كلاً منهما انعزل تماماً في جزيرةٍ نائيةٍ عن الآخر. هو حتى لم يكرر لمسته، وكأنَّ لمسته الأولى لم تكن سوى حركةٍ روتينيةٍ لا روح فيها، إنه لا زال يسمعها تبكي، فلماذا لا يخرجها من عذابها ويجذبها رغباً عنها بين ذراعيه لتستكين، مؤكداً لها بأنه لا يسأل عن بكائها من باب الواجب وفقط كما تظن، لماذا لا يُصرِّ؟، إنها تنتظر إصراره لتشعر بأهميتها لديه، نعم ستدفعه وتحتف بعدم رغبتها في الاقتراب منه، لكن بداخلها تصرخ فيه أن لا يستمع إليها، أن يضمها ويمسح شعرها مُعلنًا حبّه وملكيته لها، لماذا لا تتحرك يا هشام؟، لماذا، إن لم أخبرك بسبب بكائي تتركني وتصمت؟.

أنا لا أريد الحديثَ فلربما لا أعرف سبباً حقيقياً لدموعي، فقط أريد أن أشعر بدفء قربك، بلهفتك على ضمي ولو بالقوة؛ أريد أن أنام على ذراعك لا أكثر، أنتظرُ فقط أن تُصر، فما الذي يدفعك بعيداً بكل هذا البرود؟!

شعرت بكلماتها التي تدور بداخلها تتعاضم أكثر فأكثر مع تواصل صمته، تخنقها وتمنع عن رثيتها الهواء، بدأت تتنفس بصعوبةٍ واحتقن وجهها وكأنَّ هناك من ينفثُ بوجهها نيراناً مشتعلة، الحنقُ يغلي بصدرها يكوها والعُصاة المُسننة تتلوى بحلقها كالحية، وبدون مقدمات نهضت

جالسة في محاولة ضعيفة للتنفس بسهولة أكثر، لحظات أخرى مرت وهو يكتفى بالنظر نحوها دون أن يُحرك ساكنًا مستمعًا لأنفاسها العنيفة تحاربها، كل ما فعله أن قال برتابة وهو مازال قابلاً في مكانه:

- هل أفتح لك النافذة؟ .

صقيع كلماته رمى بها بين ثلوج عدم اكتراثه بعنف فتجمدت للحظات قبل أن ينفجر بركاناً يأسيها بوجهه كالعادة. وجدت نفسها تَهْتَفُ باكيةً بلا مقدماتٍ وهي تهوى من فوق الفراش على ركبتيها:

- لا، لا أريد منك شيئاً، عُد لأحلامك السعيدة، عُد لصمتك المطبق هذا، لا تتعب أحبالك الصوتية لأجلي

ما إن انتهت حتى شعرت بدقات قلبها عيفةً مؤلمةً مما دفعها للسكون تماماً لعل الألم يهدأ، في نفس الوقت الذي هب فيه هشام جالساً وهو يستغفر بصوتٍ مرتفع ويمسح وجهه بعنفٍ مُمرراً أنامله فوق شعره القصير للغاية عدة مرات، لا يعلم ماذا يفعل، لقد سأها وهي لم تجبه فلماذا تصرخ هكذا؟!

طُرقاتٌ صغيرة على باب الغرفة جعلها تتحمل آلامها وتنهض مسرعةً لتفتح الباب لتجد خلفه ابنتها تفركان عينيها بقبضتيهما وقد استقيظتا فرعيتين على أثر صوتٍ صراخٍ أمهما الذي عبرت حممه إلى غرفتهما كما يحدث دائماً، ضمتها في صدرها وغادرت معهما لتقضي الليلة بينهما تاركةً خلفها زوجها جالساً مكانه دافئاً رأسه بين كفيه وقد

نفدت طاقته لهذا اليوم، لحظات قليلة مرت قبل أن يصلها صوت
شخيره المتواصل وكأن شيئاً لم يكن، يا للرجال !!

– لماذا تبكين ؟ هالة .. هالة !

انتفضت هالة من شرودها لتجد دموعها تملأ وجهها وهشام يهزها
قليلاً وهو يسألها عن سبب بكائها، تنفست بعمق وهي تغلق عينيها
وتضغطهما بقوة، لقد شردت في مشهدٍ تكرر كثيراً فيما مضى، تبكى
فيسألها – إن كان مستيقظاً – عن سبب بكائها مانحاً إياها تعاطفاً
روتينياً متكرراً، فيتجادلا ثم صراحاً باكياً يكاد يمنع عنها الهواء وأخيراً
تذهب لتنام مع الأطفال ليعود هو وينام وكأن شيئاً لم يكن. وعندما
يستقيظ صباحاً يذهب لعمله سريعاً دون أن يكلف نفسه عناء
الاطمئنان عليها، هذه هي عادته عندما يتشاجرا، يتجنبها حتى يعود من
عمله ثم يبدأ بمصالحتها معتذراً وبوعد يقطعه على نفسه بأنه لن يكرر ما
حدث وسيهتم في المرة المقبلة، وسترى !

أما الآن وبعد أن اكتشفا مرضها الخبيث تغير الوضع قليلاً، أصبح
يهتم، يحاول تعويضها عن إهماله لها لسنوات وهو يعلم أنها ستفارقة
للأبد، التفتت نحوه تعلقو شفيتها ابتسامة شاردة لتجيبه مطمئنة إياه:

– لا شيء، أنا بخير

ضمها قليلاً وهو يتساءل بقلق وإلحاح:

- لقد كنتِ تبكين بقوة ولا تستجيبي لنداءاتي المتواصلة!.

راقبت نظرة الشفقة المشوبة بالقلق في عينيه وسؤال متفجر يدور بقلبيها، أيجب أن أموت يا هشام لتبدي اهتمامًا بي؟، ولكنها منعتة بقوة وهى تُطبق فكيتها بارتعاش قبل أن ينطلق لسانها به، وماذا يفيد العتاب الآن؟!، لا وقت لديها لتقصيه في تعذيب نفسها ومن حولها بعتاب أجوف منتظرة أعداءًا واهية قائمة على الشفقة فقط .

وجدت يدها ترتفع تلقائيًا لترت على يده الساكنة فوق كتفها بتسامح قائلة:

- ربما كنت أحلم، لا عليك عُذ لنومك، سأخفض لأصلي قليلًا
نُحِضت متهدلة الكتفين وقبل أن تصل لباب الغرفة سمعته يقول من خلفها:

- لا تتأخري، سأنتظرك

أومأت برأسها دون أن تجيب وخرجت من الغرفة مغلقة بابها خلفها موقنة بأنه لن يفعل! .

استيقظت هالة صباحًا وهى تشعر بإرهاق بالغ يسري بجميع أنحاء جسدها ورغم ذلك نُحِضت بصعوبة لتستعد لتجهيز طفلتيها لتذهب بهما لدار الروضة كما هو المعتاد يوميًا. بحثت عنه فى أرجاء الشقة فلم

تجده، لقد غادر إلى عمله باكراً جداً، وفي طريقها إلى الطابق الثاني نزولاً وهي تُمسك بطفليتها بعناية وجدت حمائها العجوز تخرج من شقتها وتُتمم على غلق الباب جيداً ثم تسحب وشاحها المنزلق دائماً ليغطي مقدمة شعرها بعناية ثم تُخرج محفظة جلدية سوداء من جانب جلبابها المنسدل على جسدها باستقامة لتُدس بها المفتاح وتُغلق سحابها بحرص وكأن بداخلها كنزٍ ثمين. أَلقت عليها هالة تحية الصباح فالتفتت إليها أم هشام وهي تَجِيب باعتيادية وتُحني بصعوبة لتقبل الطفلتين بحنو مربتة على شعريهما قبل أن تعتدل بصعوبة أكبر وهالة تسألها عن وجهتها باكراً هكذا، فقالت أم هشام وهي تضرب الأرض بخفة بعكازها:

- ياسين جارنا أخبرني منذ أيام عن مركز للعلاج الطبيعي، فيه طبية تعالج الخشونة بالحجامة ولكنها لا تعمل إلا صباحاً فقط

- ياسين الممرض؟!

أومأت أم هشام برأسها بإيجاب قبل أن تقول مردفة:

- نعم هو، إنه يمدح فيها بشدة وفي زوجها الدكتور بلال، وأكد لي بأن شفاء ركبتي على يديها بإذن الله

مطت هالة شفيتها بتفكير وهي تعرض خدماتها قائلة:

- ما رأيكِ أن تنتظري حتى أعود لأُصطحبكِ إلى هناك؟

تبسمت أم هشام وهى تراقب الإرهاق والمرض الباديين على ملامح
هالة المتعبة ثم قالت:

— لا داعي يابُنيتي، المركز لا يبعد عن هنا كثيرًا، فقط بضعة دقائق

تقبلت هالة رفض حماتها بسعة صدر فهى لم تكن متحمسة من
الأساس، نعم هى تود مساعدتها ولكن تلك المشاعر الجديدة التى
ربطتها بحماها لم تعتد عليها بعد، لقد كانتا كقط وفأر منذ شهور قليلة
فقط، ولكن فجأة بعد أن علمت حماها بمرض هالة ألميت تبدلت تمامًا
وصارت لها أمًا رؤوَمَا، أعدت عليها من حناها وكأنها تودعها، وبعد أن
كانت نظراتها لها فى السابق تحمل عداونية فى طياتها، صارت نظرات
مشفقة رحيمة. فجأة تذكرت أنها يتيمة وأن لا أهل لها فقررت أن تكون
هى أمها وتحيطها بحنان العائلة!. لماذا لا نرحمهم إلا بعد علمنا بموعد
ذهابهم؟!، وكأن الموت يحتاج إلى تحديد موعد لتتأنق!.

تنهدت والدة هشام بارتياح وهى تضيق عينها بتركيز وتعديل من
وضع نظارتها السمكية القابعة فوق عينها وقد انتهت للتو من قراءة
اللافتة الكبيرة لمركز العلاج الطبيعى الذى لا يبعد كثيرًا عن منزلها، هو
يعد تقريبًا فى نفس الحي البسيط. دلفت من باب المركز وقد وجدت ما
أبلغها به ياسين من قبل متجسدًا أمامها، صالة استقبال كبيرة مزدحمة
بالنساء اللاتي يرغبن فى العلاج بالحجامة فى هذا الوقت من الصباح

وثلاث غرف خلف ثلاثة أبواب لا تعلم أيهم وجهتها ومكتب عتيق في مواجهة الباب تمامًا يتناقض حجمه مع الدفتر الوحيد الموضوع فوقه ولقد استنتجت والدة هشام أن هذا المكتب لـ ياسين يدون به أسماء المرضى كما هو الحال، تلفتت يمينه ويسرة باحثة بعينها عنه حتى وجدته عائداً من حجرة جانبية صغيرة لم تلحظها من قبل ويده كوب من الشاي الساخن تتصاعد أبخرته بسباق لا ينتهي، وما إن رآها حتى أقبل عليها بابتسامة مرحبة قائلاً بخفوت:

– الحمد لله أنك قد أتيت باكراً يا أم هشام، لقد حجزت لك أول كشف، الدكتورة عبير وصلت ودخلت حجرتها للتو

أخرجت والدة هشام حافظتها الكبيرة وهي تسأله عن ثمن الكشف ولكنه وضع يده سريعاً على حافظتها ليمنعها قائلاً:

– الدكتورة عبير لا تأخذ أجرًا على عملها هذا يا حاجة، فهي تهب ثوابه لحمايتها رحمها الله

رفعت والدة هشام حاجبيها بدهشة متعجبة قبل أن يشير إليها ياسين بالدخول وهو يتقدمها بخطوة واحدة، وعندما دلفت داخل حجرة الكشف وأغلق ياسين الباب خلفها بحرص. استقبلتها عبير ناهضة تجاهها من خلف مكتبها الصغير القابع في زاوية بعيدة عن باب الحجرة بابتسامة مشرقة لتأخذ بيدها لأقرب مقعد أمامها .

عاينت والدّة هشام عبير وغطاء وجهها الذي ألقّت به خلف رأسها بأنّافة وهي تقدّر عمرها بأنّها لم تتجاوز العقد الثالث بعد من عمرها وتمتّت بفضول:

– أنتِ الدكتورة عبير؟!

ضحكت عبير ضحكة صغيرة خافتة وهي ترى نظرات الفضول المصحوبة بالدهشة التي تُطل بضاوّة من عيني المرأة وقالت بتفهم:

– نعم أنا هي، ولكنني لست بطبيبة

وعندما رأت حاجبي والدّة هشام يعقدان وتغضنت زوايا عينيها باتهام، قالت شارحة:

– زوجي الدكتور بلال طبيب وهو في الأصل صاحب هذا المركز للعلاج الطبيعي ولكن عمله هنا لا يبدأ إلا بعد صلاة المغرب بقليل، وقد منحني دورات عدة في العلاج بالحجامة وأجازني فيها.

تنفست والدّة هشام الصعداء وقد اطمأنت بعض الشيء وهي تسترخي قليلاً ثم بدأت في شرح ما يؤلمها وهي تستند بكفيها على ركبتيها وعبير تستمع إليها بإنصات، وهي تشرع في العمل على الفور بأصابع مدربة خبيرة، بينما والدّة هشام تطلق العنان لذكرايتها وهي تحكي لها باستفاضة عن شبابها وصحتها التي ولت في تربية ولدها وابنتها التي تقطن بعيداً عنها مع زوجها، وكيف جاءت زوجة ابنها لتأخذه منها

هكذا دون تعب، وأخذت تقص عليها وكأنها تعرفها منذ زمن طويل
المشاكل التي دبت بينهما حتى اضطر هشام إلى تأجير الشقة الشاغرة
في الطابق الذي يعلوها لفصلهما عن بعضهما البعض .

استشفت عبر من حديث المرأة عدم تقبلها لزوجة ابنها فقالت
وهي تتابع عملها بتلقائية:

- أتعلمين يا خالتي، زوجي الدكتور بلال وحيد أمه، وكنت أربها
في البداية ولا أعرف كيفية التعامل معها، ولكنها احتضنتني كأبنة
لها وصارت لي أمًا ثانية، هي من علمتني كيف أعمل لخدمة الناس
دون انتظار مقابل وساعدتني في تربية أولادي الأربعة بكل حب
وصبر، وعملت معي هنا ودربتني كثيرًا حتى أصبحت خبيرة في
هذا المجال، وعندما توفاه الله افتقدتها كثيرًا وبكيتها أكثر من
وَلَدَها نفسه، وكلما أسجد بين يدي الله في صلاتي أتذكرها في
دعواتي أكثر من والدي الحقيقية .

تنهدت والدة هشام وهي تمصمص شفيتها وتترحم على الفقيدة ثم
قالت وهي تحرك رأسها وكأنها تدافع عن نفسها:

- والله يا ابنتي لقد عاملتها بالحسنى، لولا تأخر حملها لسنة كاملة
ورفضها الذهاب للطبيبة لمعرفة سبب تأخر الحمل، فصارت
العلاقة بيننا سيئة للغاية، وحتى بعدما حملت بطفلتها لم نتصافى

أبدًا إلا بعد أن علمت بمرضها الحميت وبأنها موشكة على لقاء ربها .

رفعت عبير وجهها مصدومة، سيظل الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياتنا، نؤمن به وننتظره، وبالرغم من ذلك يصدنا عندما نشتم رائحته حولنا، أطرقت برأسها، تفر بحدوء وتحرك عنقها يمنة ويسرة بشفقة وهي تتخيل كيف ستفارق أمًا ما أطفالها في مثل هذا السن المبكر جدًا وهي على علم بذلك، فهي أم وتدرك كيف هو شعور الأم عندما يتعرض الأمر بمستقبل أطفالها، لانت ملامح عبير بتسليم لقدر الله، متممة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، عافاها الله من كل سوء، وحفظها لأطفالها

تنهدت والدة هشام وصمتت للحظات ولكن صمتها لم يدم طويلًا وعادت لتستكمل حكيها حتى كادت عبير أن تنتهي من عملها، لم يوقفها إلا رنين هاتف عبير الذي أصر أن تجيبه بإلحاح، راقبتها المرأة بإنصات فضحه تركيز ملاحظها الشديد معها وهي تتحدث إلى زوجها بخفوت ووجهها يتلون باللون الوردي المحبب، وما أن لاحظت عبير تنصتها عليها أنهت المكالمة سريعًا هامسة له بخفوت:

- سنرى حكاية ضميرك هذا فيما بعد، لدي عمل الآن، مع السلامة .

أُفْتُتِ المَكَاةُ وهى تُعِيدُ بِنَظَرِهَا عَنِ وَالِدَةِ هِشَامِ الَّتِى رَفَعَتْ حَاجِبًا وَاحِدًا بِإِدْرَاكِ مِصْطَنَعٍ وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ مَا دَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُتَصِلِ مِنْ تَوَرُّدِ وَجْهِهَا، وَقَبْلَ أَنْ تَعَاوِدَ عِبِيرَ إِتْمَاءَ عَمَلِهَا قَالَتْ بِإِتْسَامَةِ مُوَضَّحَةٍ:

— إِنَّهُ زَوْجِي

عَادَتِ الْمَرْأَةُ تَتَنَهَّدُ مَجْدَّدًا وَهِيَ تَهْزُ رَأْسَهَا بِثِقَةٍ فِي تَحْمِينِهَا السَّابِقِ ثُمَّ عَقِبَتْ وَهِيَ تَعْتَدِلُ فِي جَلِيسَتِهَا بِحِكَايَةِ أُخْرَى عَنِ إِحْدَى مَشَاكِلِ وَلَدِهَا مَعَ زَوْجَتِهِ بِسَبَبِ عَدَمِ مَهَاتِفَتِهَا لَهَا لِيُطْمَئِنَّ عَلَيْهَا خِلَالِ فِتْرَةِ عَمَلِهِ الِذِى تَدُومُ الْيَوْمَ كُلَّهُ وَضِيقِهَا بِمَكَاةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِى يَفْعَلُهَا فَقَطْ وَهُوَ عَائِدٌ مِنْ عَمَلِهِ لِيَسْأَلَهَا عَنِ الْمَشْتَرَوَاتِ الْضَّرُورِيَةِ لِلْمَنْزَلِ

ضَحَكَتْ عِبِيرُ بِخَفَةِ وَهِيَ تَنْتَهِي عَمَلِهَا وَتَنْهَضُ قَائِلَةً:

— أَنَا وَزَوْجِي حَالَةٌ عَاطِفِيَّةٌ خَاصَّةٌ، مِنْ الظُّلْمِ الْقِيَاسِ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَصْدُقُكَ الْقَوْلَ مَكَاةُ تِلْكَ تَمْنَحُنِي دَفْعَةً قَوِيَّةً جَدًّا لِاسْتِكْمَالِ مَهَامِي الْيَوْمِيَّةِ بِحِمَاسٍ مُتَدَفِّقٍ

ارْتَكَزَتْ وَالِدَةُ هِشَامِ عَلَى عَكَازِهَا نَاهِضَةً وَهِيَ تُتِمِّتُ غَيْرَ مُعْجَبَةٍ بِمَا سَمِعَتْ لِلتَّو:

— بَنَاتِ آخِرِ زَمَنِ

اِحْتَضَنْتْ عِبِيرُ كَتِفِيهَا مُودَعَةً إِيَّاهَا وَهِيَ تَذَكِّرُهَا بِالتَّعْلِيمَاتِ الْوَاجِبِ اتِّبَاعِهَا بَعْدَ الْحِجَامَةِ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ وَالِدَةُ هِشَامِ نَحْوَ بَابِ الْحِجْرَةِ بِبَطْءٍ

مطرقة برأسها وكأنها تفكر بأمر هام وما أن أمسكت بمقبض الباب حتى التفتت فجأة تجاه عبير متسائلة:

- ألا تدليني على عروس مناسبة لظروف ولدي هشام

اتسعت عيني عبير بدهشة مأخوذة وهي تكتف غير مُصدقة:

- ماذا ؟!

أدخلت هالة طفلتيها إلى دار الروضة، عند الباب الخارجي تشير إليهما بابتسامة وعندما تسابقتا إلى رؤى ومعلمة أخرى كانت تقف بجوارها، انحن رؤى إليهما محتضنة جسديهما الصغير بين ذراعيها وعندما استمعت إلى نداء هالة لها وهي مازالت واقفة عند باب أولياء الأمور الخارجي:

- رؤى !!

التفتت رؤى والمعلمة الأخرى نحو الصوت، وخطفت رؤى نظرة مرتبكة إلى هالة التي كنت تشير إليها بابتسامة صامتة متسائلة عن تجاهلها فأشاحت بوجهها وكأنها لم ترها، هاربة مما تُتوق إليه!. بينما أخذت المعلمة الأخرى الأطفال إلى الداخل، تبعتهم رؤى مُعلقة الباب الداخلى للدار خلفها وكأن شيئاً لم يكن !.

تلاشت ابتسامة هالة وزاغت نظراتها مفكرة، هل قررت رؤى الرفض
لذا لا تريد أي تواصل معي ولو حتى بنظرة؟!، نفضت الفكرة عن
رأسها سريعاً وهي تضع خيارات أخرى، ربما انشغال رؤى في بداية
يومها بالأطفال هو السبب في تجاهلها لها !!

وعندما ذهبت لإصطحب الأطفال في نهاية اليوم فعلت رؤى نفس
ما فعلته في بدايته، فتجنبت الحديث معها منصرفه بخطوات مضطربة
بعيدة عنها. عاينتها هالة من الخلف وهي تلحظ مشيتها المتوترة ونحوها
الشديد وملابسها الغير مهندمة حائرة بداخلها عن تلك الحالة المدرية
الواضحة على رؤى، ترى هل تعاني من اكتئاب ما، وما السبب؟، هل
هو عرضها الذي عرضته عليها بين المقابر؟ أمعضلة هو إلى هذا الحد؟

ولكنها لم تيأس، ظلت منتظرة بالحديقة الصغيرة الداخلية التابعة
لروضة الأطفال حتى رأت رؤى تخرج من الدار مُعلقة حقيبتها فوق
كتفها، مُتشبهة بحزامها الجلدي كأنها توازن منكبيها، نُفضت هالة على
الفور وهي تنادى على طفلتيها لتأتيا إليها وهما تتصايحان هُؤا مما جذب
عيني رؤى إليهما فتوقفت خطواتهما دفعة واحدة وقد أيقنت بأن هالة
ما زالت تنتظرها بإصرار. تلك المرأة لا تستلم أبداً، حتى الوهن والضعف
الباديين عليها لم يجعلها تتراجع عما تريد. هل معرفة موعد الموت كافٍ
ليتمتع الانسان بقوة لم يكن يملكها من قبل وكأنه لم يعد يهاب شيئاً

بعدها، بل يصبح الخوف في ذاته كلمة باهتة لا حياة فيها، تختفى كل المعاني أمامه ولا يبقى سوى انتظار مواجهته وجهًا لوجه .

تنحنت رؤى وهى تقرب بوجهها من هالة التى تقترب منها بابتسامة ضعيفة وخطوات واهنة، لم تستطع صد تلك الأسئلة فى عينيها، ولم تكن تملك الإجابات، لا تعلم لماذا تضطرب ولا ممن تقرب، ربما لأنه لاح لها أمل جديد فى تغير حياتها نسيبًا إذا وافقت والدتها على الانتقال لشقة أخرى خالية من ذكريات مُعذبة كما أخبرها الطبيب. تشعر أن اقتلاع جذور شجرة ضخمة قديمة هو أهون بكثير من حمل والدتها على ترك منزلهم !

- حسنًا، لو كان عرضى الذى عرضته عليك من قبل هو سبب تحاشيكِ لِقائى فاعتبريه كأن لم يكن

رفعت رؤى عينيها وقد صدمتها عبارة هالة القوية وقبل أن تجيبها تغيرت نبرة هالة وأطل الحنان من نظراتها الطويلة وهى تقول مستدركة بمرح:

- لكنني لن أتنازل أبدًا عن صداقتنا التى لم تبدأ بعد

سارت رؤى بجوار هالة والفضول يكاد تنطق به خطواتها المتوترة، وفجأة قررت البوح بما يعتمل بصدرها بتلقائية ودون تخطيط فتوقفت واستدارت نحو هالة متسائلة بفضول:

- هالة، التعب والوهن يظهران عليك بوضوح ورغم ذلك صممت على المشي معي حتى منزلي فلماذا؟!

رفعت هالة كتفيها وهي تستكمل سيرها فتجبر رؤى على اللحاق بها وهي تقول بلامبالاة:

- لاشيء، أود أن أتعرف على مكان سكنك فقط ونتحدث قليلاً أثناء سيرنا، أما التعب والوهن فهما يلازمانى دائماً لعدة أيام بعد جلسة العلاج الكيميائى فهى مرهقة جداً .

زمت رؤى شفتيها بتعاطف ثم تابعت بفضول أكبر على غير عادتھا:

- هل حقاً ليس لك أخوة أو أقرباء كما قلت من قبل

ظهر شبح ابتسامة على شفتي هالة وأطرقت برأسها قليلاً قائلة
بشروء:

- الأقرباء والأخوة يا رؤى هم من تجدينهم دومًا متى احتجت إليهم، أما من لا يدرون شيئًا عن عذابك، عن معاملة زوجك لك، عن حاجتك إلى عائلة، إلى وجودهم حولك ليشدوا من أزرك إذا مالت بك الدنيا، عن شكوى تودين أن ترميها بحجر أحدهم ليحتويك بعدها بتفهم فتعودين بعدها لحياتك وكأن المعاناة لم تكن، من لا يفعلون ذلك يا رؤى حتى لو علموا بموتك فلن

يفعلوه مع أطفالك، هم ليسوا بأقرباء، هم فقط رحم، لا نقطع
صلتنا به، فقط ابتغاء مرضاة الله .

شعرت رؤى بكل كلمة ألقته هالة للتو على مسامعها، لا لم تشعر
فقط، بل تعايشت معها بكل جوارحها حتى الغصة التي تخنق كلمات
رفيقتها تذوقتها واستشعرت وخزتها بحلقها، وتساءلت بداخلها، ترى هل
تواجد أقرباء من حولنا له أهمية كبيرة لهذه الدرجة؟، هل لو كنت
أمتلك أحدهم كنت سأستعين به على علاج والدتي وربما تتغير حياتي؟.

استندت هالة إلى ذراع زوجها وهو يأخذها إلى أحد المقاعد الخشبية
المتهالكة بجانب ذاك الجدار الشبه متهدم بداخل تلك المشفى الحكومي
في انتظار دورها لجلسة علاج كيميائية أخرى كما حدد لها الطبيب،
حاولت هالة كتم أنفاسها قدر المستطاع فالمقعد بجواره كومة من نفايات
المشفى التي تُلقي في ساحتها الخارجية بإهمال دون مراعاة لهدف المشفى
المنطقي وهو علاج المرضى لا جلب الأمراض إليهم. أخذ هشام
يتفحص تذكرة العلاج مجدداً بينما ركزت هالة بصرها وسمعتها من تلك
المجموعة التي تقف بجوارهم وقد تباينت أعمارهم ما بين عجوز وشاب
في مقتبل العمر وآخر مازالت بمنصفه. جذبا حديثهم وكل منهم يحكي
وجعه وآلامه، وكأن مشاركة الآلام تخفف بالفعل من شدة وطأها،
عكس السعادة التي تزداد وتكبر عندما نتشاركها مع الآخرين. كان

الرجل العجوز يشد على كف زوجته بداخل كفه وكأنه يدعمها ويؤكد لها أملاً احتل نظراته دوماً وهو يتحدث إلى المرأة الأربعينية التي تقف مواجهة له قائلاً لها وهو يشير لزوجته:

- لا تبتأسي وتعلمي الصبر من زوجتي، هل رأيت يوماً امرأة مصابة بذلك المرض وفي قمة الصبر والثبات مثلها، أشعر أن المرض سيأس منها ويرحل دون رجعة، كيف له بمواجهة تلك المحاربة!

ابتسمت زوجته العجوز وهي تنظر له بامتنان وتنفس بمجهود بالغ، ربما هي تعلم أنه يسعى إلى ابتسامتها أكثر من بحثه عن علاج مرهق في ذاك السن الطاعن.

راقبت هالة البسمة التي علت وجه الشاب الأسمر الطويل الذي يقف بجوارهم والأمل الذي رسم خطوطه في مقلتيه وهو ينظر إلى الرجل وزوجته بتفاؤل وكأن لسان حاله يقول:

- لو كانت تلك المسنة قادرة على هزيمة المرض فمن باب أولى أن أفعل أنا

عادت هالة بعينيها إلى زوجها المنشغل بالنظر إلى بهو المشفى الظاهر أمامه وانخفضت نظراتها إلى يديه المعقودتين فوق صدره ثم تحركت ببصرها إلى يديها الفارغتين فوق قدميها وهي تتسائل عن ماهية الدفء الذي يسري الآن بكف المرأة العجوز. ترى ماهو شعور الدفء ذاك، ماهذا السر الذي ستظل دوماً تجهل معناه، لماذا يظن هشام بأن

الاهتمام فقط في مصاحبتها لجلستها العلاجية، وهو صامت، متباعد، شاردًا في الفراغ، متجهم الوجه، خاوي النظرات وكأنه ينتزع منها صبرها ليضع عوضًا عنه يأسه وخوفه من المستقبل. ألفت هشام إليها فجأة وشاهد نظراتها متمركزة فوق يديه بشرود، اقترب منها قليلًا، راقبت هالة يده وهي تتجه نحوها، هل فهم أخيرًا ماذا أحتاج، هل سيدعمني الآن؟، سيمسك بيدي، لا .. سيضم كتفي بساعده إلى صدره. إلا أنها أغمضت عينيها بيأس عندما استند بيده إلى ظهر المقعد المتهالك من خلفها وهو يميل نحوها قائلاً بغيط:

- تلك الممرضة هناك مستفزة للغاية، سألها أحدهم عن شيء ما فصاحت بعصبية دون مراعاة كهولته ولا مرضه الواضح عليه والشمس الحارقة التي نقف جميعًا أسفلها منذ ساعات وكأننا نعمل خدم لديهم هنا، إهمال !!

رحيل

هل هو الخريف حقًا أم هي فقط التي تشعر بأنها تحيا فصولها الأخيرة من عمرها، هل تساوي الليل والنهار جاء مصاحبًا لهذا الموسم أم أنها هي التي ترى ببصيرتها انعدام الزمن في المكان الذي ستذهب له قريبًا؟!، حالتها تزداد تدهورًا وأصبحت حبيسة المنزل. ورقة شجر باهتة سقطت من مكان ما مرورًا بنافذتها، ألصقتها الرياح القوية بزجاجها لثوانٍ ثم عادت تُكمل رحلة سقوطها للأسفل بعد أن منحتها إشارة بأن تستعد للذهاب!..

تنفست هالة بعمق ومدت يدها نحو غُرة الشعر المُبعثرة على جبين ابنتها جنى النائمة على يمينها، واضعة يدها الصغيرة أسفل رأسها باسترخاء وشفتيها منفرجتين قليلًا تتنفس من خلالهما كعادتها، وقامت بتسويتها بخنان وهي تتحسس كل خصلة منها ببطء ممتزج برعشة أناملها خشية من أن توقظها. ثم مدت يدها الأخرى نحو لجين عن يسارها والتي تنهد دائمًا تنهدات ناعمة رقيقة أثناء نومها وكأنها تحلم بشيء سعيد على الدوام. لمسة يد هالة فوق جبينها جعلت حاجبيها الصغيرين ينعقدين قليلًا بينما زمت شفتيها ثم عادت ملاحظها تسترخي وتسيح في حلمها من جديد. ترى هل مفارقتها لهما ستجعلانهما تتأخران في النطق أكثر مما هما عليه؟، هل ستسهلان الأمر على رؤى

كأم بديلة؟، أم ستتغير مشاعرهما نحوها بعد أن تسكن معهم بنفس المنزل وتنام مكان والدتهما ويعتادان عليها أكثر بكثير من كونها مجرد معلمة؟.

– هل أنقلهما إلى غرفتهما الآن؟

قاطعت عبارة هشام خيالها عن مستقبل لن تحياه، فالتفتت نحوه قائلة بهمس وهي تحرك رأسها نفيًا بشروءٍ تغادره دون أن يُغادرها:

– لا، أريدهما بجواري الليلة

أوماً برأسه موافقًا وانحنى بجذعه نحو نهاية الفراش ليسحب غطاءاً خفيفاً لنفسه مستعداً لقضاء ليلته بغرفة بناته، فاعتدلت هالة على الفور جالسة في مكانها وهي تقول بنبرة خفيفة:

– هشام، أبق هنا

لم ينتبه إلى نبرة الرجاء الناطقة في صوتها ولا إلى نظرة عينيها التي تحتوي وجهه وكأنها تطبع بداخل مقلتيها ملامحه الطفولية ببشرته القمحية. لم يفهم أنها نظرة وداع تحرق قلبها شوقاً له .

اعتدل بعد أن حمل الغطاء وتقدم نحوها بابتسامة ثم انحنى ثانية يطبع قبلة على شعرها هامساً:

– لا داعي، السرير لن يكفيني جميعاً بسهولة، ولا أريد ازعاجكم بتقلباتي الكثيرة، تُصبحين على خير

عندما التفت ليرحل أمسكت بكفه بوهن فاستدار لها وللمرة الثانية لم يستطع قراءة نظرتها المتوسلة وهى تقول بصوت مرتجف قليلاً:

- أخشى أن تكون هذه آخر ليلة لي ..

قاطعها وهو يمسك بذقنها بهدوء ويرفع وجهها نحوه قائلاً بثقة اعتاد الحديث بها معها عندما تقول مثل هذه الكلمات:

- لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى، أنت بخير وستتحسنين مع العلاج صدقيني، أتركى هذه الوسواس جانباً الآن وارتاحى فجلسة العلاج اليوم صباحاً كانت شاقة عليك للغاية، هيا اخلدي إلى النوم

قبلها مرة أخرى واعتدل مغادراً للغرفة إلى غرفة بناته، التفتت هالة إلى المنضدة الصغيرة بجوار السرير بتفكير إلى أن تهتدت فى النهاية وقد حسمت أمرها. مدت يدها إليها وسحبت أحد دفاتر اللغة العربية الخاصة بابنتها جنى، ثم سحبت قلمًا كان بجوار الدفتر وهى تنوي كتابة رسالتين منفصلتين .

تنفست بقوة وعمق لتكبح دموعها محاولة تثبيت القلم الأزرق بين أصابعها والى اعتادت ابنتها لجئن عض خاصرته بأسنانها وبدأت تخط بيدها المرتعشة الرسالة الأولى وقد كانت كوصية وتذكار منها إلى ابنتيهما الصغيرتين. كانت رسالة صغيرة وموجزة وبها مرح وبهجة فى محاولة يائسة للتخفيف عنهما عندما تقومان بقراءتها يوماً ما أو يقرأها أحدهم عليهما. وفى بداية كل سطر منها حرصت على أن تكرر نفس الجملة

مرات ومرات " سأكون حولكما دوماً، وكعادتي سأنام بغرفتكما دون أن ترياني".

أنهت رسالتها الأولى وانتهت معها تلك الصفحة التي قلبتها ليقف قلمها أمام صفحة جديدة تاركة صفحة خالية بينهما كعادتها دائماً للكتابة في دفاتر بناتها الصغيرة. تحرك القلم بمدادٍ من قلبها مستعداً لكتابة الرسالة الثانية والتي لن تستطيع أن تكذب بها وتظهر البهجة كما فعلت في الأولى، فقد كانت موجهة لمن امتلكها ولم تملكه، لزوجها النائم بالغرفة الأخرى تاركاً رياح الوداع تعصف بقلبها الوحيد وجسدها الراحل .

زفرت مرة تلو الأخرى وقد فقدت السيطرة على عبارتها النازفة وهي لا تعلم لماذا قررت أن تكتب له، هل تؤنبه أم تعاتبه برقة؟، ألا تكفي المسؤولية التي ستقع على عاتقه فور رحيلها؟!، لماذا تشعر بتلك الطاقة الغاضبة والمتضاربة بداخلها وكأنها تريد أن تشمت به وفي نفس الوقت تُشفق عليه مما سيلقى. ويتردد كبير وبدون تخطيط بدأت تكتب:

- زوجي الحبيب

ثم تطمسها بتوتر حتى كادت الورقة الرقيقة تتمزق بفعل رأس القلم المدب، إنطلقت الزفرة الأخيرة وقد قررت أن تترك العنان لقلمها وقلبها معاً يكتبان ما يريدان، وما شأنا هي!؟

ما إن دخل هشام غرفة بناته حتى ارتقى على أول سرير قابله وأغمض عينيه وهو يشعر بعظامه تأن بشدة من فرط الإرهاق الذى يشعر به، اليوم كان شاقاً للغاية، صباحاً فى جلسة العلاج معها ثم أعادها إلى المنزل، وانطلق إلى عمله وكأنه يجرى خلف الوقت ليلحق بعضاً منه قبل أن يُخصم له اليوم كله، فصديقه فى الشركة وعده بأن يموه عن غيابه صباحاً قدر المستطاع، عمله كمحاسب دقيق جداً ويحتاج إلى تركيزه الذهني الكامل، وهذه الأيام ومنذ أن تدهورت حالة زوجته وهو مشتت بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، الخطأ الواحد فى رقم واحد ربما يكلفه فقدان وظيفته على أقل تقدير!. انتفض فجأة من شروده عندما ضربت رياح قوية زجاج النافذة المفتوحة وهو يشعر أن أطرافه تكاد تكون تجمدت على أثر تلك الضربة، تنحنح وهو ينهض ليغلق النافذة تماماً موجّحاً نفسه على سرعة انفعاله هكذا وكأنه طفل صغير ينام وحده، عاد إلى نومه وهو يبتسم متذكراً سخرية والدته منه عندما انتفض أمامها هكذا فى يوم من الأيام على أثر صفقة مفاجأة لباب الشقة وقالت له بسخرية لاذعة " أحضر لك طاسة الحضة " !.

من المستحيل أن ينسى ذلك اليوم مادام حياً، وكيف ينسى عودته من الخارج وملابسه يعلوها الغبار مكوناً طبقة رمادية رقيقة باهتة فوقها وقد دفنها للتو، دفن زوجته. صورة جسدها الملفوف فى الكفن وأخوتها الرجال يحملانه ويدخلان به القبر لا يمكن أن يفارق تخيلته أبداً، هل هذا هو جسد زوجته حقاً؟،

هل ينصت إليهم وهم يدفعونه ليخرج من ساحة القبر ويتركها وحدها، تبيت أول لياليها فى قبرها المظلم، بلا رفيق؟!

وهل كان هو هذا الرفيق الذى يخشى عليها من عدم وجوده عندما كانت تبیت فی بیده؟، وفی غرفته، وعلى فراشه؟! هل سيشكل القبر فارقاً سوى فی الظلمة فقط؟!

هالة التي كانت تملأ البيت سعادة فی بداية زواجهما ثم اختفت ضحكاتهما شيئاً فشيئاً وتراجعت صحتها ببطء حتى فارقها لون الحياة وصارت جثة متحركة، ثم هامة!

كيف ينسى عيني والدته المتورمتين من أثر البكاء وهى تحتضن ابنتيه فی صدرها بشفقة، وقد أصبحنا يتيمتي الأم، كيف ينسى تلك العيون الحائرة وهم يتسائلون عنها بحروف متعثرة ونظرات ضائعة " أين أمي ؟!"، كيف ينسى ظهره المنحني وكأنه يستعد لحمل المسؤولية الثقيلة والجديدة عليه؟

وكيف ينسى يد أمه الممدودة إليه بدفتر صغير لإحدى ابنتيه تخبره بأن زوجته تركت له رسالة. وإن كان يستطيع نسيان كل هذا مع مرور الزمن، فكيف بالله أن ينسى ما كتبه له فی رسالتها تلك بكلمات مذبوحة وذابحة، تلك اللحظة شعر بأنه لا يقرأ الكلمات بعينه بل يسمعها بصوتها الباكي، وكأنها تهمس بقلمها فوق الأوراق، تذكره، تسأله، ترجوه، تقسو عليه، تبكيه وتبكيه، تحبه، وتناديه، ثم تهدده!:

- هشام، كتبت هذه الرسالة فی آخر ليلة لي فی بيتك، هل تذكرها؟، عندما طلبت منك أن تبقى معي، عندما رجوتك أن تنتظر، عندما كنت أحتاج إلى ضمتك لألفظ حياتي بصدرك، ليكون آخر ما أستشقه هو عطرك، رائحتك، ولكنك رفضت

وابتعدت ظناً منك بأنك ستصحو كالعادة لتجديني، وأنا أسألك الآن، هل وجدتني يا هشام؟!، هل صدقت الآن شعوري بأنها آخر ليلة؟!، أشعر الآن بأني من القسوة لدرجة أن أسألك وأنا على يقين بأنني لن أسمع الإجابة أبداً، هل سمعتني وأنا أحتضر؟، أم أنك كنت غارقاً بنومك؟!، هل وجدت جنتي باردة في الصباح؟، أم كان لا يزال بها بعض من سخونة نرعي؟

أنا قاسية جداً يا هشام في تلك اللحظة، ليس قسوة عليك، بل لأجلك !، نعم لأجلك حتى لا تكررهما مع غيري، فأنا أريدك أن تعامل زوجتك الأخرى معاملة طيبة لتستطيع هي أن تحسن معاملة بناقي، بناقي فقط صدقي هو كل ما أفكر به في تلك اللحظة، لا تفعل معها كما كنت تفعل معي أرجوك، أرجوك أحبها .

عندما تبكي لا تتركها، ضمها إليك.

عندما تفتقد أهلها كن أنت كل أهلها.

عندما تغضب وتثور فجأة منك اعلم أنها تفتقدك، تحتاج ضمتك

عندما تهتف بك " ابتعد "، لا تفعل، بل اقترُب أكثر !.

عندما تصرف ببذخ اعلم بأنها تعوض نقص حبك واهتمامك بها، تحتاج عاطفتك.

عندما تصرخ وتهتمك بما لم تفعله، اعلم بأنها لا تقصد ظلمك بل تنطق بمخاوفها فقط، بما يموج به صدرها ولا تعلمه أنت.

هشام، أقول لك هذا وأنا مقبلة على ربي ليس لي حاجة في دنياكم، فأرجوك تفكر في كلماتي التي أنطق بها للمرة الأولى وقد حالت كرامتي وكبريائي أن أقولها لك سابقًا وأتسول منك حبًا. صدقني لقد أحبيتك بكل جوارحي ولم أكن أطمع بالكثير، أردت حبك فقط، أردت ضمتك فقط، أردت أن أصنع معك عالمًا يغنيني عن فقدتهم من أحبة، لو كان العالم كله نبذني ووجدتك، لكنت تكفي، إلا أنني أضعتك أيضًا، فمن سيبقى لي سوى ضمة قبر ربما ستكون أرحم بي من قلوب تلفظني دومًا.

أوصيك ببناي خيرًا وتأكد بأنني سأكون معهما على الدوام، بكل طريقة ممكنة، فاحذر غصبي.

زوجتك الحبة " هالة "

أغلق هشام الدفتر وهو يرفع رأسه بعينين باكيتين ومشاعر مضطربة متضاربة.

لماذا لم تتكلم من قبل؟.

لماذا لم تنبهه لأخطائه؟.

لماذا ضاع كل هذا الوقت هباءً وهو لا يفهم؟.

إنه لم يكن يقصد، لم يكن يقصد نبذها كما ظنت .

نحس والدفتر مازال بيده وذراعايه متهدلتان بجواره وأخذ يدور حول نفسه والدمع يقفز من مقلتيه وقلبه يغلي وحلقه يلفظ الكلمات

كفدائف تحرقه ويريد أن يتخلص من شدة ألمها وهو يهتف بحسرة
باكية:

- لماذا لم تتكلمي من قبل؟، كيف أفهم وحدي ما كنت تخبئني في
صدرك؟، لم أكن أقصد، صدقيني لم أكن أقصد، أحببتك بطريقي
لا بطريقتك، هالة، أجيبي يا هالة أجيبي لا تتركيني أحترق هكذا .

عبارته الأخيرة جاءت كصرخة نداء غاضبة متألمة متحسرة كتحسره
الذي جاء بعد فوات الأوان، فتحت والدته الباب مندفعة نحوه وقد
استمعت إلى صياحه الباكي وأخذت تحتضنه وتربت على كتفه وظهره
حتى هدأت صرخاته قليلاً وأخذ ينهت من فرط الإنفعال متمماً دون
وعي ورأسه ملقاة على كتف والدته:

- قولي لها يا أمي أنني أحببتها كما أحبك والدي، أخبريها أنني لا
أعرف حباً آخر غير هذا، أحفظها في بيتي، أوفر لها ما تحتاج،
أرعاها عندما تمرض، لم لم تتكلم؟ لم ؟ ربما كنا سننتفاهم!، تبّاً
لكرامتها تلك، تبّاً، تبّاً.

كان يكفي أن تقف عند مدخل المقابر، فلماذا ظلت تتوغل خلف
الجنائز؟، ربما لم تكن تتصور فراق أمها يوماً من الأيام لذلك اتبعت
جنازتها وقد غشت عيناها غلالة من الدموع الصامتة، حتى صعد
الرجال وقد هالوا عليها التراب، الجيران أصروا على مصاحبته إلى هنا،
لم تكن معها امرأة واحدة فجميع جاراتها حذرنا من الذهاب، وبعضهن
لُحْن إلى تحريم اتباع الجنائز للنساء، ولكنها أصرت، وها هي تقف

وحيدة على مشارف القبر بعد دخول الرجال المصاحبين لها للمسجد الصغير بالجوار لأداء صلاة الجمعة .

كتفت ذراعيتها، أطرقت برأسها، راقبت ظلها، وهى تخطو خطوات واهنة في محاولة للوصول إلى السيارة التى ستنتظر بداخلها حتى عودتهم إليها ليعيدوها معهم إلى المنزل، ولكن غلالة الدموع كانت تزداد قتامة وثقلاً بمقلتيها وهى تتذكر معاناة والدتها قبل أن تموت، بل قبل أن تقتلها !

عندما وصلت لهذه النقطة اعتصر قلبها برودة ثلجية مفاجئة، سرت على طول ظهرها حتى استقرت فى نهايته وهى تتذكر جسد والدتها وهو يحترق بالكامل وتدور بجنون متخبطة فى نيرانها بين جدران غرفة المكتب، تضرب بيديها كل شىء تصطدم به وتصرخ صرخات بشعة لن تنسها يوماً، صراخ مهول مزق ستار الصمت بالحى بأكملة، ألسنة لهب ودخان غشت جدران غرفة المكتب وعندما حطم الجيران باب المنزل أخيراً كانت قد تفحمت واستقر جسدها خلف المقعد الضخم، وهى تقف بعيداً أمام الغرفة المفتوحة، تشاهد، وفقط !.

كانت تحبه، بل تعشقه، ولكن حبه لم ينجح فى شفاءها من مرضها النفسى الذى خَفَّت وطأته بعد زواجها به، ولكنه لم يذهب تماماً، أما بعد موته بهذا الشكل المفجع فقد أصبح المرض يقارب الجنون فى أعراضه، تمزق لأجل فراقه شعرها عاجزة عن استكمال الحياة بدونها، أوقفت زمنها بين يديه، فماذا سيبقى بعده إلا الرحيل إليه؟!، ربما كانت هى سبباً بمقتل أبيها، فلم تبخل على أمها بأن تلحق به !.

وها هي قد أصبحت وحيدة فعليًا، بيت يخشى الناس ولوجه وقد أسموه بيت المجانين، نعم وحيدة، ولكن ليس تمامًا، لا زال لديها البعض، ومنهم صديقها الوحيدة، هالة التي اختفت هي وطفلتها فجأة منذ، منذ متى؟ ربما شهرين أو ثلاثة لا تذكر، والأغرب أنها لم تسأل، اكتفت بقول مديرة دار الروضة بأن والدته جنى و لجّين مريضة للغاية، أم اكتفت برسالة نصية من هالة مؤلفة من كلمات قليلة فقط:

- بناتي يا رؤى، بناتي في عهدتك

نعم هي تعلم أنها مريضة فما الجديد ولماذا القلق؟!، سيعودون حتمًا، ربما هم في سفر ما، نعم ربما، من يدري!

هل الألم الذى يعتصر قلبها الآن هو ألم فراق ما تبقى من عائلتها فقط، أم ألم الوحدة التي ستزداد وتنهش ما تبقى من انسانيته، وهل تبقى من آدميتها شيء بعد ما فعلته بأمها؟!،

توقفت حركتها مع توقف جسدها فجأة وقد ودعت الذكريات عند هذا الحد وعدّلت من وضع النظارة الشمسية القائمة فوق عينيها رغم غياب أشعة الشمس بفعل الرياح القوية المحملة بغبار ورمال القبور من حولها وقد أدركت أنها قد تاهت بين المدافن واختلف الطريق عليها، ابتعدت نعم ولكن ليس كثيرًا، وهي الآن لا ترى أحداً يمر بها لتسأله، دارت حول نفسها وهي ترفع أناملها تتلمس وجنتها المبتلة من أثر الدموع، ثم قررت أن تمشى في خط مستقيم لتصل إلى ذاك المنعطف التي رآته وهي تشرأب برأسها وتستطيل على أصابع قدميها الطويلة لعلها ترى منفذاً من بعيد .

سارت خطوات متعجلة متحسنة طريقها والصمت يحوم حولها، يقلقها ويثير مخاوف قديمة برأسها، رائحة الموت تبعث من كل اتجاه، تُرى هل يُحاسبون الآن على ما فعلوا في دنياهم، بماذا يجيبون، هل يُعذَّبونَ بذنوبٍ أم ينعمونَ بتوبة؟!، أجفلها نباح كلب يفر في الطريق الغير ممهد من بعيد وقد سهجت الريح فأسّرت تحت الخطى حتى بدأت تلهث بقوة وتتعثّر خطواتها التي اقتربت إلى الركض واستحال سواد ملابسها إلى الرمادي بفعل الغبار المتناثر والأكياس البلاستيكية والأوراق الممزقة المتطايرة من حولها وامامها بفعل الرياح، لحظات أخرى و تراءى لها باب إحدى المدافن القريبة مواربًا قليلاً وسمعت صوتًا ما آتٍ من الداخل، ظنت على الفور بأنه أحد الزائرين لهذا القبر، وأنها قد وجدت أخيرًا مرشدًا لتلك المتاهة الحجرية التي ضاعت بها، صعدت السلم الصغير واستندت بكفها على حافة الباب وهي تنظر للدخل وتتنحنح بخفوت دافعة الباب بخفة قليلاً وتتقدم خطوات بطيئة متمهلة نحو شاهد القبر باحثة عن مصدر أصوات تُشبه الهمس، إرتفع حاجباها دهشة عندما وجدت المكان خاليًا تمامًا، لا أحد على الإطلاق !

هل كانت تتخيل أم ماذا ؟!

نفضت القلق عنها وهي تشرع في الإستدارة للعودة ولكن جسدها ارتج للخلف بقوة قبل أن تُكمل استدارتها وارتطمت بأحد حواف الباب الحديدي خلفها بقوة فأغلقتة لتصبح وحيدة بالداخل، اتسعت عينيها بذهول ورعب وهي متجمدة تنظر إلى غطاء القبر الذي بدأ يتلاشى فجأة أمام ناظريها وكأن ذرات تراهه وأحجاره تتبخر في الهواء بسرعة كبيرة وتغيب في السماء التي أكفهرت فجأة وأظلمت، بضجيج

يكاد يصم أذنيها، تعرى القبر وظهر جلياً من الداخل ورأت الجسد المسجى بداخله محاطاً بالكفن الأبيض ووجهه مكشوف أمامها، لا ليس وجهه، بل وجهها، إنها امرأة .

حاولت أن تتراجع ولكن قدمها تجمدتان عن الحركة فسقطت على ركبتيها هلعاً فوق الرمال المبعثرة على أرض المدفن وغاص قلبها بين أضلعها، حتى شعرت بجنون نبضاته تكاد تخترق حنجرتها، حاولت أن تصرخ ولكن صوتها أحتجز في قاع حلقها، عندها أدارت المرأة وجهها الشاحب إليها شحوب الموت وقد رحلت عنه ألوان الحياة وغارت مقلتيها للدخل، تعرفت رؤى على ملامح المرأة وحاولت الصراخ باسمها، هالة !، ولكن صوتها لم يصل لفمها أبداً، صوت همس هالة كان أشبه برياح تعبر بجوار أذني رؤى فاتسعت عينيها عندما فهمت ما همست لها به والذي لم يكن سوى كلمتين فقط " بناتي .. بناتي " .

خرج من عمله مندفعاً نحو سلم الشركة الخارجي، يحمل سترته بأصابعه خلف ظهره وقميصه غير مُهْنَم مفتوحة أول ثلاثة أزرار منه بعث وكأنه خارج من معركة ما للتو، تابعته عيون رجال الأمن أسفل البناية بفضول وتساؤل، بينما تجاهل نداءات عادل صديقه و زميله في العمل المتكررة والذي حاول اللحاق به قبل أن يبتعد ولكنه لم يجبه، لقد حُصِم له منذ قليل ثلاثة أيام أخرى من راتبه على أثر مشاجرة افتعلها هو عندما أخطأ متدرب في أحد أرقام الحسابات، لم يكن مجرد شجار أو انفعال، لقد أمسك بتلابيب الموظف وهو يصرخ به ويسبه، حاول

زملاؤه تهدئته ولكنه لم يستجب لتحذيرهم حتى سمعه مدير فرع الشركة الذى اكتفى فى المرة السابقة بمجرد لفت نظره وتوبيخه، أما هذه المرة فلقد تجاوز حدود العمل بكثير، شهر تلو الشهر وهو يفقد أعصابه واتزانة وحب زملائه بسبب سلوكه العنيف والغير مبرر من وجهة نظرهم، لا يعلمون ما يعانیه بعد فقداهما، الندم والألم أصبحا يلوكانه بين فكیهما، المسؤولية التى باتت تثقل كتفيه تجاه ابنتیه بعد غياب والدتهما لم يعد یحتملها، كل يوم یقف عاجزاً أمام حروف جنی و لجین المبعثرة لا یستطیع فهم جملة مفیده منهما، لا یستطیع التعامل معهما، أكتشف ولأول مرة أنه لم یكن والدهما فعلياً، لا یعرف عنهما أى شىء، ماذا تأكلان، کیف تنامان، ماذا یفعل عندما تستیقظ أحدهما لیلاً باکیة من نومها وأحياناً مُبللة فراشها، تنادی أمها وتبحث عنها فى جمیع غرف المنزل وفى النهاية تجف دموعها فوق وجنتها وهى تنام مرغمة وشهقاتها متواصلة تشق صدره، لا یعلم ماذا یفعل .

هل كنتِ تحملین كل هذه المسؤولية یا هالة دون أن أدري، دون أن أشعر، بل كنتِ أحياناً أتساءل ماذا تفعلین طوال الیوم فى غیابی، الیوم علمت، الیوم أدركت، الیوم أنام فى فراش بارد وحدي، أفتقد حتى شجارك معی، أفتقد روحك الدافئة، حبك الصامت لی. لماذا لا نشعر بقدرهم إلا بعد أن یرحلوا، ذهاباً بلا عودة؟.

أحتاجك یا هالة أحتاجك بشدة !.

عندما عاد إلى منزله مر فى البداية على شقة والدته ولكنه لم یجدها، ولم یجد البنات أيضاً، ترى أين ذهبت؟، صعد إلى شقته التى لم یعد

يدخلها إلا نادرًا منذ وفاة زوجته وانتقل هو وبناته للعيش في شقة والدته بعد أن أصبحت الوحدة صديقهم الأوحـد، دارت عينيه في الأركان وهو مازال يقف على عتبتها، نوافذ شقته كانت مغلقة والستائر تحجب عنها الشمس كما تركها تمامًا، الغبار يعلو الأثاث والسجاد والحوائط، كانت تعج بالأصوات والحركة والحياة، والآن صامتة كالقبر بلا زوار.

لم يستطع أن يخطو خطوة للداخل إلا قبل أن يمد أنامله ليُضيء المصابيح، وعندما دخل لم يُغلق الباب خلفه، تريت خطواته وهو يلج غرفة الفتيات ويُشعل ضوءها في البداية قبل أن يلفها بعينيه لثوانٍ، ترى أين خبأت والدته الدفتر التي كتبت فيه هالة خطابها الأخير له ولبناته، لقد خشيت عليه والدته الإنهيار مرة أخرى فخبأت الدفتر ولم تجربهُ بمكانه، كانت لديه رغبة قوية في قراءة وصيتها لجنى و لجُين ولكن والدته لم تمهله فاستطاع بالكاد قراءة كلمات مبعثرة هنا وهناك في الورقة، تعلقت عينيه فقط بالكلمات التي كررتها هالة للبنات وهي تطمأنهما قائلة مرارًا وتكرارًا:

— سأكون حولكما دومًا، وكعادتي سأنام بغرفتكما دون أن ترياني

ترى ماذا كانت تقصد بتلك الجملة وماذا كانت تعني بتحذيرها إياه عندما كتبت له " أحذر غضبي " !

في تلك اللحظة نباته حواسه بأنه لم يعد وحيدًا في الشقة عندما سمع صوت حفيف ثياب كحفيف أوراق الشجر قادمًا نحوه وشعر بكف باردة توضع على كتفه من الخلف، التفت فرعًا وقد صدر منه رغبًا عنه

شهقة مكتومة، وما أن اكتملت استدارته حتى واجه عينها وهي تحرك رأسها وعلى شفيتها ابتسامة ساخرة تقول:

– العادات القديمة لا تموت !

زفر بقوة والشحوب يودع وجهه وتعود إليه الحياة مُجدِّداً وهو يمسحه بكلتا يديه ثم ينظر لها وهو يرفع عينيه إليها بعتب قائلاً:

– لا أعلم ماهي هوايتك في إفزاعي هكذا كلما حانت لك الفرصة!

ضربت والدته بعصاها على الأرض وهي تضحك بخفوت قائلة:

– لا أستطيع أن أفوت على نفسي فرصة رؤيتك وأنت مذعور هكذا كالأطفال

زفر من جديد وتخطاها حائفاً وخرج من الغرفة ثم من الشقة كلها هابطاً إلى الأسفل ومازال قلبه يحارب ليعود إلى نبضاته الطبيعية، تستغل والدته كل فرصة ممكنة لإفزاعه بمتعة عجيبة وكأنها تلهو منذ أن علمت بالفوبيا التي تُصيبه في الأماكن المهجورة والأصوات العالية المفاجئة بجواره .

تحولت ملامحه من التشنج والحنق إلى الحنو والهدوء عندما وجد ابنتاه تقفان على عتبة باب شقة والدته ويرتديان ملابس دار الروضة المخصصة بهما، جنى تُكثف يديها فوق صدرها وتحاول أن تضغط جرس الباب بلسانها و لجئن تدفعها بعيداً عن زر الجرس بتقزز وهي تنظر إلى لسان أختها وكأنه قد تحول إلى ثعبان يريد ابتلاع فريسته

ببرود، أسرع بالخطى نحوهما وحملهما فجأة تحت ذراعه وهو يدخل بهما شقة والدته هاتفاً بحب:

- أيتها المشاغبتان

لحقت بهن والدته وأغلقت الباب خلفها ووقفت تنظر إليه وهو يدغدغهنا وهما تضحكان بصعوبة وتنظران إليه نظرات مندهشة لعدم اعتيادهما على مداعباته أو التقرب منه، تقدمت والدته وجلست على الأريكة العتيقة بجوارهم وهي تقول بلا مقدمات:

- لقد وجدت لك عروس مناسبة

توقف عن الحركة وضاعت نظراته مع اختفاء ابتسامته بالتدريج فلم يبقى منها سوى شبح ابتسامة مرسومة فوق وجه حزين بينما ضحكات البنات كانت تصله وكأنها صدى يتردد من بعيد، ألن تياس أمه من هذا الحديث، ألن تمل أبداً؟!

يكفي هالة وما سببه لها من ألم وعذاب، حتى آخر رفق لها، هل يدخل امرأة أخرى في حياته ليعذبها هي أيضاً حتى تموت مكتوبة بناره!، رفع رأسه عندما سمع حديث والدته مُكرراً بتصميم هذه المرة:

- هشام، كن واقعياً، أنا أتحرك بصعوبة وأختك عصبية ملولة تحتمل زوجها بالكاد، ولا تسأل عنا سوى في المناسبات فقط، والبنات يحتجن إلى أم ترعاهما، اليوم تعبت بشدة عندما ذهبت بهما إلى دار الروضة وهناك بحثت عن عاملة تأتي لتأخذهما كل يوم إلى هناك وتعيدهما ثانية في آخر اليوم .

لقد استطعت أن أجد مخرج لتلك المشكلة أما بقية مسؤوليتيها فأنا
لا أستطيع حلها، أنا أعتنى بنفسى بصعوبة يا ولدي

نفض واقفًا وهو يضع كلتا يديه حول خصره وغصة مُسننة عالقة في
حلقة لا فكاك من أُلها، يكاد يتنفس بصعوبة وهو يشعر بها تقف
بجواره وتقول بإصرار:

– إنها تحب بناتك ولديها استعداد لترك عملها و..

هتف وهو يستدير نحوها متسع العينين:

– هل هي تعمل أيضًا؟!

حاولت الحديث ولكنه قاطعها وهو يضحك ساخرًا وحروفه تقطر
بؤس ومرارة:

– تعمل!، زوجة أخرى تعمل، ماشاء الله، ثم نخوض حرب ضروس
بعد الزواج لرغبتها في العودة للعمل، ومشاجرات لا تنتهي، وألم
وعذاب ثم موت .

– يا ولدي هي ستترك العمل بإرادتها وست..

صرخ مقاطعًا أمه من جديد وقد صارت عيناه حمراء بلون الدم من
فرط انفعاله وهو يسترجع لحظات شجارهما في أول عام مر عليه بعد
زواجه الأول:

– هالة تركت العمل أيضًا بإرادتها من أجلي، ثم ماذا، ألم تشهدي
بنفسك على حربها معي لكي تعود لعملها؟!، لا يا أمي .. لا

وألف لا، لو كانت هذه الفتاة هي آخر امرأة على وجه الأرض لما تزوجتها أبدًا.

وقبل أن تستوعب كلماته كان قد خرج من الشقة بنزق صافعًا الباب خلفه بقوة معلنًا رفضه الصريح لرؤى دون حتى أن يعلم من هي.

ها هي قد رُفضت كما توقعت من البداية، وقبل أن يراها من الأصل، فكيف لو رآها؟، رفعت رؤى رأسها بإحباط تخشى النظر لعيني والدلة هشام حتى لا ترى انعكاس هزيمتها في معركة لم تبدأ بعد وهي تسمعها تنهد بحسرة قائلة:

- أعلم يا ابنتي أنك وافقتي على مضض، لقد حكّت لي حالة رحمها الله كل شيء، وأنا الآن وجهي منك في الأرض، لا أعلم ماذا أفعل

ضغطت رؤى الدفتر الذى تركت به حالة الوصية والرسالة بين يديها بانفعال وتوتر رغمًا عنها قبل أن تقول بصوت لا يكاد يُسمع:

- لا عليك يا خالة، المهم الآن هو مصلحة جنى و لجين، أيًا كانت من سيتزوجها لا بد وأن تكون رحيمة تستطيع التعامل مع حالة الفتيات بعد أن انزوتا هكذا .

أومأت والده هشام برأسها مؤكدة وهي تمط شفثيها بحيرة، أين تجد من تتوفر بها هذه الصفات، لقد شاهدت فتيات كُثر في المركز الطبي كلما ذهبت للحجامة أو التحدث مع عبير هناك، فهل تجد عندها مطلبها؟، نهضت واقفة متكأة على عصاها بضعف وظهر منحني وقد عقدت العزم على ألا تترك عبير إلا بعد أن تُرشح لها أكثر من فتاة مناسبة لظروف ولدها وبناته، لا سبيل آخر أمامها .

اقتران

عادت والدة هشام إلى منزلها بعد أن تركت رؤى على حالتها المحبطة تلك، وبرغم تعاطفها معها إلا أنها وجدت نفسها تذهب من فورها إلى مركز العلاج الطبيعي حيث عير وفتياتها الكثر من حولها، فمصلحة ولدها في المقام الأول، والمسؤولية الملقاة على عاتقها أكبر عندها من الجميع، ومن أجل العلاقة القوية التي استطاعت والدته هشام تكوينها مع عير في الفترة الماضية، استمعت لها الأخيرة للنهاية بصبر ثم وعدتها بصدق بالبحث الجاد لها عن زوجة مناسبة، ضربت عصاها على الدرج وهي تنكأ عليها بشرود مستندة إلى بعض الأمل لتصعد الدرجات إلى حيث شقتها وعندما أدارت المفتاح في الباب سمعت خطوات سريعة تصعد إلى نفس الطابق، التفتت عاقدة حاجبها ثم ما لبثت أن انفرجا بانسراح وتغضنت زوايا عينيها بابتسامة مجمدة وهي ترى عادل صديق ولدها يقفز السلم برشاقة صعودًا بجسده النحيل ويتسم لها وهو يُحييها بمرح:

– وأخيرًا التقينا يا جميلة !

ضحكت والددة هشام وهى ترحب به بشدة وتدعوه للدخول، عادل هو الوحيد القادر على إضحائها بمرحه المعتاد، تحبه كولد ثانٍ لها وتتعجب دومًا من قدره المشابه لقدر هشام فى كل شىء تقريبًا، هو أيضًا رحلت عنه زوجته وتركته له طفل حديث الولادة وقد فاضت روحها إلى بارئها أثناء ولادته، الفارق الوحيد بينهما أنه وزوجته كانا عاشقين، وبعد فراقها رفض كل حديث عن زواجه بآخري، لم يكن يتصور امرأة أخرى بجواره بعد حبيبته الراحلة، وانشغل بالاعتناء بطفله بمساعدة والديه، حتى هذه اللحظة !.

عندما دعتة للجلوس فى الداخل وهى تستعد لدخول المطبخ لإحضار مشروب له أوقفها رافضًا ثم سأل عن هشام فتنهدت بأسى وهى تشير برأسها للغرفة الداخلية:

– نائم كالعادة بجوار بناته

استدارت لتعود إلى المقعد المجاور له وهى تستند كليًا على عصاتها بكلتا يديها ثم تركن بذقنها إليهم متابعَةً بعدم رضا:

– بعد عودته من العمل يقضى معظم يومه نائمًا كما ترى يا ولدى
ارتكز عادل إلى فخذه بمرفقيه وهو يطرق بكعب حذاءه الأرض قليلاً متممًا:

- أصبحت أعصابه على المحك، كل يوم يفتعل مشكلة ما مع أحدهم

ناظرته بقلق بينما هو ينهض ويأتى بمقعد خشى عتيق يضعه أمامها بشكل عكسي ثم يجلس فوقه مواجهًا لها محاولاً الحديث بجدية:

- أسمعني يا خالتي، لابد وأن تزوجيه، إن تزوج حلت مشاكله تمامًا
صدقيني

لمعت عيناها ساخرة وهى تشير إليه بذقنها هاتفة:

- انظروا من يتكلم !!

رفع كلتا يديه باستسلام مدافعًا عن نفسه:

- لا لا لا، خالتي أنا مختلف

- بل أنت مُتخلف

حاول ألا يقهقه بقوة ولكنه لم يستطع منع ضحكة عالية بالظهور
لثوان قبل أن يكتبها بكفيه معتذرًا وهى ترمقه ليصمت ففعل على
مضض قبل أن تشير إليه ليقترّب بانتباه تام وقد بدا عليها أنها على
وشك البوح بسرٍ عظيم، فاقترّب وهى تهمس له:

- زوجته رحمها الله كانت قد حدثتني قبل وفاتها عن فتاة وحيدة
تعمل فى دار الروضة القريبة من هنا وهى معلمة للطفلتين أيضًا، واعدتها

عدة مرات وتعرفت إليها وهي فتاة طيبة ومؤدبة للغاية وحنونة جدًا على الأطفال .

سكتت هنيهة ثم أشاحت بوجهها يسارًا بتذمر وهي تستمر بالهمس بعد أن مصممت شفيتها:

- ولكن الخروس ولدي رفضها دون حتى أن يراها بمجرد علمه بأنها عاملة .

أومأ برأسه مؤكدًا وكأنما يساندها في تذمرها وهي تتابع أسرارها الحربية مغممة:

- حتى بعد أن أخبرته بأنها ستترك العمل ظل على رفضه وثورته .

واشتعلت عيناها بحماس جاء كزائر جديد على حديثها وهي تلوح بيدها بتصميم حتى كادت أن تُصيب عينيه:

- خمس فتيات رأيتهن وأنا في مركز العلاج الطبيعي الذي أعالج فيه ولقد وعدتني الطبيبة هناك بأن تأتي إلي بالمزيد، بيني وبينك الطبيبة صديقتي ولكنني لا أحب التفاخر كما تعلم !.

كان يومىء برأسه بلا توقف وهو يرهف سمعه لها وما إن انتهت حتى قال بخفوت يبادلها أسرارها:

- هل هي جميلة؟!

عقدت حاجبها بتفكير لنصف دقيقة كاملة قبل أن تقول بتردد:

- لا أعلم يا ولدى هل يصح أن أصف لك امرأة منتقبة أم لا

رفع حاجبيه مندهشاً قبل أن يهتف بغرابة:

- العروس منتقبة؟!

- إنها حتى غير محجبة يا معتوه

- أنت من قلتِ بأنها منتقبة

- أنا أتحدث عن الطيبة أيها المختل

أعاد رأسه إلى الوراء بإدراك متأخر:

- آآه ، فهمت

مجدداً مصمست شفيتها وهي تنظر له مستهجنة جهله المطبق وهي

تتحسر بهدوء:

- يبدو أن ولدي ليس هو الخروس وحده كما كنت أظن

حرك رأسه نفيًا وهو يجيبها :

- صديقي يا خالتي، الخروسين كثر في هذه البلد الجميل

رغمًا عنها ابتسمت ابتسامة واسعة وهي تهر رأسها متعجبة قبل أن

تنظر في عينيه بمكر متسائلة وقد ظهرت لها لمعة حديثة في عينيه:

- عادل، أنت قررت الزواج أخيراً، أليس كذلك؟

اتسعت عيناه بدهشة قبل أن يراوغ مجددًا:

- أوتقرأين الأفكار أيضًا، قلبي الصغير لا يحتمل؟

نمرته بجدية هذه المرة متجاوزةً عن مزاحه الثقيل هاتفةً بوجهه:

- لن تفلح مراوغتك، أنت قررت الزواج، صحيح؟

أطرق برأسه أمام ذكائها ومعرفتها به وقال معترفًا متهرّبًا من عينيها:

- أنا رجل في النهاية يا خالتي وأحتاج إلى شريكة لحياتي، والطفل

أيضًا يحتاج إلى عائلة متكاملة، ولكنني لم أجد امرأة بالمواصفات

التي أريدها بعد .

ناظرته بجدوى وهي تفكر في الدقائق القليلة السابقة، عندما انتابها

الحزن على وحدته للحظات وعشقه لامرأته المتوفاة، والذي بدأ ينحصر

بجوار تلك اللمعة المضيئة في عينيه لجرد أن أعاد التفكير في المسألة،

وتضع نفسها في كفة الميزان الأخرى وهي التي وهبت عمرها لتربية

ولدها بعد رحيل زوجها وصممت على ألا تمنح نفسها لغيره مهما

حدث .

لماذا تقارن الآن وهي من سعت للبحث عن عروس لولدها بمجرد

أن علمت بمرض هالة المميت، أهو ذاك دور البطولة الذي يتلبسنا

بعوارضه دومًا عندما يتعلق الأمر بالآخرين؟!، أم هي فقط سنّة الحياة؟.

وجدت وجهها يرتفع تلقائياً نحوه وتسأله بتفهّم:

- هل تريدني أن أشرح لك واحدة؟

ازدرد ريقاً وهمياً وتنحنح ليجلي حنجرتَه أو ليُخفي ارتبأكَه ربما وهو
يجيب بتمهل:

- أعجبتني مواصفات العروس التي رفضها هشام دون أن يراها،
فقط أريد أن أعرف، هل هي جميلة؟

تعجبت أكثر وهي ترفع كتفها بحيرة وتقول:

- أنت وذوقك

- كيف !

زفرت بنفاذ صبر منها وقد احتدم الصراع بداخلها، ماذا تفعل، هل
تُعطي فرصة أخرى لـ هشام ربما يُعيد النظر فهو الأنسب لها، أم تعتمد
على وعد عبير وتترك لـ رؤى فرصة مع عادل، حسمت أمرها أخيراً
بقرارها أن تترك الأمور عالقَة بعض الشيء وتمسك بالعصاة من
المنتصف فقالت:

- بُنى، كل رجل وله ذوق مختلف، فمثلاً في الماضي كانت الفتاة
ممتلئة القوام هي الأجمل في عين الرجال وهي ذات الحظ الأوفر في
طلب يدها للزواج، أما الآن فرمما الوضع يختلف بعض الشيء،
ربما تكون جميلة في عيناى ولكنها لا تعجبك، أنت وذوقك !

رأته يُغمض عين بينما يبقى الثانية مفتوحةً وهو ينظر لها برب هاتفاً
بإدراك:

- خالتي، أنتِ تلاعيني !

ضربت عصاها في الأرض حانقة وهي تنهض صائحة فيه ونظراتها
تجيد بعيداً عنه:

- أسمها رؤى وأنت تعرف عنوان دار الروضة، أذهب وانظر إليها،
ولا تتحجج بي، سأذهب لأوقظ صديقك المخبول مثلك !

تبعثها نظراته وهي تلج الغرفة الأخرى وهو يمرر أصابعه بين
خصلات شعره الكثيف مفكراً في الأمر بجدية أكبر، سيفعل ما قالته
بحق قبل أن تنصرف غاضبة، سيذهب ويراها ويتحدث إليها ربما
تعجبه، بالتأكيد هالة لن توصي إلا بفتاة تأمنها على ابنتيها وبيتها، لن
تأخذ مكان زوجته السابقة حتماً فهي قد تركت وجعاً مستمراً في خافقه
الذي كان يعشق كل تفصيلة بها، ربما تساعد رؤى في تسكين هذا الألم
وتُعيد إلى روحه الراكدة لحة من حياة غادرت بلا عودة، ولم لا؟ .

- أنت تُشبه الأطفال في تشبثك بما تريد يا عادل، سأنصرف حالاً

كانت العبارة الحانقة لـ هشام الذى ألقاها وهو يدس كفيه بجيبى
بنطاله وهو يستدير مستعداً للانصراف ولكن عادل تمسك بمرفقه بقوة
وهو يجذبه ليعيده بجواره أمام السور الخارجى لدار الروضة هاتفاً برجاء:

- وتتركني وحدي في هذا الموقف؟!

زفر هشام بعدم رضا وهو يلوم نفسه على استسلامه لرغبات
صديقه المراهق الكبير، عندما أخبره عادل برغبته فى الارتباط مرة
أخرى، بارك هشام هذه الخطوة الجديدة التى كان يتوقعها منذ أسابيع
وهو يشعر بحاجة صديقه للزواج مُجدداً، ولكن لا ينكر أنه فوجئ
عندما علم برغبة عادل فى الزواج من نفس الفتاة التى رشتها له والدته
من قبل، ومع تصميم عادل الذى لم يستطع الفكاك منه اضطر إلى
الإنصياع له ومرافقته إلى دار الروضة ليراها صديقه من بعيد أولاً حتى
إذا أعجبته يقفز إلى الخطوة التالية ويحدثها عن رغبته بزيارة رسمية لبيت
عائلتها، فى البداية رفض الذهاب معه بشدة فالأمر برمته لا يخصه،
ولكن عادل قطع عليه الطريق بمكر وهو يسأله إن كان قد أعاد التفكير
فيها كعروس مستقبلية مما جعله يزفر فى النهاية مُعلننا موافقته وها هو
الآن يقف بجواره كمراهقان يتسكعان أمام مدرسة للبنات فقط !..

جاءت أمام عادل الفرصة التى كان فى انتظارها منذ ساعة على
الأقل وعبرت إحدى عاملات النظافة من البوابة الداخلية للدار ومرت
بالحديقة الصغيرة حتى توقفت أمام صندوق القمامة الخارجى وهمت بأن

تضع به أحد أكياس القمامة الكبيرة السوداء، تحرك عادل سريعاً نحوها وراها هشام يتبادل معها الحديث قليلاً قبل أن يدس في يدها ورقة مالية ما وراها تبتسم له وهي تُشير بأصبعها إلى كلتا عينيها وتستدير لتعود للدخل، قطب هشام ما بين حاجبيه بضيق وهو يتوقع الحديث الذي دار بينهما، لم يكن استياءه بسبب الحديث نفسه، بل للطريقة السهلة التي يستخدمها عادل دوماً ليحصل على ما يريد به بساطة لا تُذكر طالما يملك ثمنه !.

وضع عادل يديه بابتسامة زهو في جيبى بنطاله الجينز وهو فخور بذلكاء ويبحث الخطي نحو هشام الحائق الذي ينظر في ساعته كل ثانيتين تقريباً، وعندما اقترب منه هتف هشام بقلة صبر:

– عادل، أمامك خمس دقائق فقط وسأتركك هنا وأنصرف، اليوم الدراسي أوشك على الإنتهاء ولو حضرت أُمي صدفة ووجدتني هنا لن يمر الأمر هكذا ببساطة، وأنت تعلمها جيداً .

لم يكذب ينتهي هشام من إلقاء وعيده، حتى وجدا العاملة تعبر الباب خروجاً مرة أخرى وتتجه نحوهما بابتسامة واسعة متأملة وتُسرع الخطي نحوهما بنظرات تلمع بالنصر المؤزر!، اقتربت العاملة منهما وهي تمد يدها ل عادل بالهاتف المحمول، وبالرغم من قِدم تاريخ تصنيعه إلا أن كاميرا الفيديو به تُسجل بشكل لا بأس به، تناول عادل الهاتف منها واقترب بجسده من هشام وهو يُعيد تشغيل الفيديو التي سجلته العاملة

ل رؤى وهى تتحدث بتلقائية بداخل أحد الفصول مع الأطفال وتمارحهم بلطف، تعلقت عيني عادل بعينها لدقيقة كاملة وابتسامة خفيفة علت شفثيه مما جعل هشام ينظر إلى الدقيقة الأخرى الباقية فى زمن الفيديو بفضول ثم تسائل مُتمتًا:

- هل هذه هي ؟

أوماً عادل برأسه ومازالت الابتسامة تعلو شفثيه وهو يُدقق بملاحظها الصغيرة مما جعل هشام يوقن بأنها سكنت منطقة القبول بقلب عادل وخصيصاً وهو يرى نظرة الرضا والشغف التى تتراقص بعيني صديقه منذ بداية تشغيل مقطع الفيديو حتى ثمايته، لم يكن هشام وحده من لاحظ ابتسامة عادل بل العاملة أيضاً فعلت وهى تتحفز فى وقفته منتظرة بقية الإكرامية بلهفة وشغف، ولم يخب ظنها، منحها عادل ورقة أخرى بسخاء هذه المرة وهو يشكرها ويناولها هاتفها وعندما انصرفت مُسرعة تكاد تطير من السعادة برغم ثقل وزنها، التفت عادل نحو هشام وهو يحاول رسم تعبير حيادي على وجهه قائلاً:

- أعتقد أنني سأنتظرها لأتحدث إليها، لو أردت الانصراف أنت، لا بأس

رفع هشام حاجبيه بخبت وهو يستند إلى حافة الباب الخشبي القصير والملون الذى يقف بجانبه يريد التلاعب بصديقه قليلاً قائلاً:

- أنا غير مُتعب، لو أردت الانصراف أنت فافعل

لم يلحظ عادل نبرة المزاح في صوت هشام مما جعله يرفع وجهًا متجهًا نحوه، كان هشام يريد الاستمرار في مزاحه ولكن ملامح عادل في تلك اللحظة كانت كفيلة بأن تطلق العنان لضحكاته العالية وهو يُمسك بذقن عادل ويقول بأسلوب ساخر:

- هل وقعت في الحب من أول مقطع فيديو يا صديقي؟

حرر عادل ذقنه وهو يدفع هشام بغيظ وقبل أن يرد عليه رأى بعض النساء مقبلة نحو باب الدار من أكثر من اتجاه فعلم بأن اليوم الدراسي قد انتهى وستخرج له عروسه الغافلة عن ما يحدث حولها بين لحظة وأخرى مما جعله ينسى هشام تمامًا ويلتفت بكامل انتباهه مراقبًا الباب الداخلي، نظر هشام إلى ساعة معصمه وقرر التحرك على الفور قبل أن تخرج الفتيات أو تراه والدته ويقع فريسة بين يديها .

لم يشعر عادل بانصراف هشام وهو يراها تخرج حاملة حقيبتها وتتحرك بخفة بين الأطفال المندفعين للخارج بتهور، لا يعلم لماذا تتعلق عينيه بعينيها تحديدًا ولا يكاد يحيد عنها، هذه ليست خصاله أبدًا، فهو كالمعتاد في مثل هذه المواقف يحدق بالفتاة بالكامل ولا بد وأن يحصل جسدها على نسبة نجاح لاختباراته لا تقل عن تسعون بالمائة، هذه فقط التي ودون أن تدري أسرت عينيه بداخل عينيه وجعلته غير قادر على تحريكهما بعيدًا عنها، نظرهما الطفولية تقطن بها دمعة خفية تلمع من خلف زجاجها الشفاف، ربما هي دمعة تأثر وقد كانت يدها تربت بخنو

على وجنة طفلة يظهر عليها أنها من ذوي الاحتياجات الخاصة، هل هي حنون إلى تلك الدرجة!، وعندما التفتت إلى العاملة ورأتها تصورها اعتقدت بأنها تمزح معها فبادلت الكاميرا ابتسامة بريئة وكأنها تبتسم له هو بالذات، سر ما بها، ربما عندما يقترب يستطيع فك اللغز .

تقدمت العاملة منها وهمست لها وهي تشير بأصبعها نحو عادل الذي استطاع المرور بسهولة من بين النساء والوقوف بأقرب مكان منها، اقتربت منه بروتينية وارهاق واضح وهي تتوقع أن يكون أحد أولياء الأمور ويريد السؤال عن ابنته، وعندما وقفت أمامه مرحبة به بعملية ومن دون ابتسامة واحدة، تلثم قليلاً قبل أن يتمالك نفسه ونظراته تتمركز بداخل عينيها متسائلاً:

- آنسة رؤى ؟

أومأت برأسها مؤكدة بصمت منتظرة أن يبدأ بتعريفها باسم ابنته ولكنها فوجئت به يقول على الفور:

- هل من الممكن أن تمنحيني عنوانك بالضبط !

كاد أن يقع على وجهه بعد أن تعرقل بأحد درجات السلم ولكنه حافظ على اتزانه في اللحظة الأخيرة وهو يمسك بسوره الحديدي واعتدل ينظر خلفه بتذمر نحو والدته التي كانت تدفعه من الخلف

ليصعد بعد أن لاحظت تردده ووقوفه عن الحركة لثوانٍ، عدل من قميصه الأزرق بفتور وهو يزفر بشدة ويطمئن على وضعية غلبة الحلوى الكبيرة في يده الأخرى ثم يُكمل رحلة الصعود للطابق الرابع بلا حول ولا قوة، ها هو قد أطاعها رُغمًا عنه بعد أن نفذت حُججه وقد أتت له بعروس يتوفر بها الشروط التي تمسك بها ورفض رؤى من أجلها، فتاة لم تكن تعمل في يوم من الأيام، محجبة، وعلى استعداد لتقبل ظروفه وتربية بناته كما يجب، حاول أن يهرب من حصار والدته كثيرًا ولكنها لم تياس وظلت تطارده بمكرها لأيام، مرة تدعي المرض وترفض إعداد طعامه، ومرة تضغط عليه بالحديث المتواصل عن عادل صديقه الذي أخذ منها مواصفات رؤى وعنوان عملها في دار الروضة وفي الأسبوع التالي اتصل بما ليدعوها لحضور حفل زواجه البسيط والسريع. تمشي خلفه من غرفة لأخرى تحكي له عن العروس الجميلة التي رشحتها لها عير وامتدحتها بكل الصفات الرائعة، حتى يأس وأصبحت حياته لا تُطاق، وأخيرًا اضطر للرضوخ والموافقة، الفتاة يتيمة الأبوين وتعيش مع عمها في تلك البناية في الطابق الرابع الذي كاد أن يتجاوزه أثناء شروده لولا والدته التي جذبته من ذراع قميصه متأففة من ضياعه وهي تهمس بأنفاس متلاحقة بأنهما وصلا إلى الشقة المنشودة، استدار وهو يُخلص قميصه من قبضتها ويهتف من بين أسنانه بغيظ :

— أمي، لماذا تعامليني هكذا، احترميني قليلاً ؟

أومأت برأسها بعدم رضا وهي تجيبه بزمجرة خفية وتُشير نحو باب الشقة:

- معك حق، في المرة القادمة سأضربك بالعصا على رأسك، هيا اطرق الباب لقد تأخرنا

حرك رأسه بيأس وهو يرفع يده للضغط على جرس الباب لمرة واحدة فقط وهو يتأمل الحائط المجاور للباب الذي رُسم فوقه صورة لجمال يمشي في الصحراء يعلو رأسه طائرة ما وبجوارهما مكتوب عبارة مشهورة " حج مرور وذنّب مغفور"، أعتاد تلك الجملة كثيراً بالرغم من فضوله الذي يدفعه دائماً إلى البحث عن الرسام الذي رسم هذه الرسومات الفذة ليسأله سؤالاً واحداً " لماذا يجمع بين الجمال والطائرة دائماً وما علاقة الجمال بالحج هذه الأيام "؟!

أخرجه صوت تحرك خلف الباب من تساؤلاته اللامعة فاستعاد نظراته الحياضية وهو يبتعد قليلاً عن الباب بجوار والدته، ليفتح لهما رجل وقور لم يتجاوز العقد الخامس من عمره، ناقضت هيئته المستقيمة التي تدل على صحة وفيرة شعر رأسه الأبيض بالكامل مما يجعل من يشاهده لأول وهلة ينخدع بعمره الحقيقي، رحب الرجل بهما للغاية وهو يصطحبهما إلى غرفة استقبال الضيوف ذات المساحة الضيقة بجوار الباب مباشرة، تبعته زوجته التي أتت لاحقاً تحمل صينية المشروبات والحلوى، كان الرجل بالفعل على علم كما هو المعتاد بتلك

الزيارة ومن الواضح من المقابلة الدافئة والمرحبة بشدة بأن الأمر لا ينقصه سوى تعارف الطرفين فقط، عرف من حديث الرجل بأنه عم العروس وفي مكانة والدها تمامًا لديها، وهي تعيش معه هو وزوجته منذ أن فقدت والديها، تبادلوا الأحاديث حول ظروف هشام الخاصة متطرقين إلى وفاة زوجته الأليمة وغيرها من مناقشة وضعه المادي الذي لم يختلفوا حوله أبدًا، ثم طال الحديث عن والد العروس رحمه الله ومدى تعلقها به وتعلقه بها بشكل خاص حتى أن هشام وجد عينيه تدمع رغمًا عنه وتعاطف معها دون أن يراها .

من الواضح أن العروس خجولة للغاية وتخشى اللقاء، فزوجة عمها خرجت إليها عدة مرات وفي كل مرة تعود بدونها، حتى أن الظنون بدأت تراوده حول رفضها له.

طرقات خفيفة على الباب من الخارج قطعت عليه أفكاره وجذبت انتباهه ونظراته لقدمين تلجان إلى الغرفة بتردد واضح وكأنها تريد العودة من حيث أتت، صاحبها رائحة مسكية ليمونية أنعشت حواسه، مرت عينيه مرتحلة على تفاصيلها من أسفل إلى أعلى ببطء، اصطدمت نظراته بأصابع كفها المتشابكة ببعضهما البعض بتوتر أما معدتها وكأنها تعاني ألمًا ما بها، ولكن عينيه لم تتوقفا بل استمرت في الصعود راحلة حتى جاء دور وجهها أخيرًا في الظهور أمام شاشتهما البراقة، في تلك اللحظات كانت والدته تقوم بدورها في احتضانها بحفاوة ودعوتها

للجلوس بجانبها، تأففت نظراته وهي ترجو والدته بالابتعاد قليلاً، لا زال يريد وجهها أكثر، جلست بجوار والدته هشام مطرقة إلى الأرض وجهها متورد بخوف أكثر منه خجل، لم يتحدث إليها وترك لوالدته العنان، فهي كفيلة بالأمر، بالإضافة إلى أنه مشغول بمراقبة وجهها المخبىء أكثره خلف حجابها الرقيق حوله، انشغل عقله بمدى التقارب والتمازج بين لون حجابها ولون عينيها، وفي هذه اللحظة اكتشف بأنه كان يبتسم، وبأن عمها وزوجته كانا يراقبان ابتسامته تلك عن كتب بملامح منسرحة، ترى هل هذه نفس ابتسامة عادل وهو يشاهد رؤى؟، ابتسامة القبول !

تنحنحت والدته وهي تنهض موجهه حديثها نحو زوجة العم وهي تطلب منها الذهاب للحمام، بإدراك شديد نهضت المرأة سريعاً وهي تأخذ والدته للخارج وبعد ثوان لحق الرجل بهما وتركهما وحيدين ولكن برفقة بعضهما البعض .

شكر هشام صنيع والدته بداخله وهو يلتفت نحو عروسه محاولاً جذب طرف حديث ما بينهما يجعلها تنظر إليه وتحدث معه، هو يعلم بأنه لا يجيد الحديث لذلك تنحنح عدة مرات يجلى صوته وهو يضع كأس العصير الساكن بيده على الطاولة الصغيرة المقابلة له والفاصلة بينهما، وبدأ بسؤالها عن أحوالها بشكل جعله يبدو كأبله أو معتوه كما تقول له والدته دائماً وهي تفرعه، وعندما وجد منها إجابات تشبه

الهمس إلى حد كبير، بحث عن موضوع ربما هي تحبه فيجعلها تتكلم بأريحية أكثر فاختار أن يسألها برقة عن والدها وما قاله عمها عن علاقتها القوية به، وبالفعل نجح في جذب انتباهها وجعلها تؤكد له ما أخبره به عمها من معلومات عنه، عادت عينيها تدمع من جديد عندما رأى الدموع تترقق في عينيها بحزن وهي تتحدث عن تدليله لها والذي افتقدته بشدة .

ضعفها أمامه جعله يشعر في لحظة بمسؤولية خاصة تجاهها، حشجة رقيقة بصوتها سببتها الدموع، أشعلت رغبة بداخله للبحث عن إجابة سؤال ساحر طاف بوجوده .

سؤال حول لون عينيها عندما تبتسم، كيف ستكون ياترى؟، كانت رأسها قد عادت للأسفل من جديد وهي تجفف دموعها برقة عندها سمعته يناديهامشاكسًا:

— جديلة

رفعت رأسها نحوه بدهشة بالغة من جراته، كيف واثته المرأة ليرقق اسمها هكذا بعد دقائق من لقائهما الأول؟!، مسحت وجهها بكفيها وقد احتقن لونه للغاية وهو يتابع بتلذذ، مراقبًا تقلب أنفاسها البادية بقوة في تسارع صدرها صعودًا وهبوطًا:

— والدك كان فنانًا حقًا في اختيار هذا الاسم ليخصك به

لم تمهله عائلتها وقتاً إضافياً ليستمتع بهذا الشعور الغريب الذى بدأ يغزوه وهو يرى مدى تأثيره عليها بمجرد أن رقق اسمها فقط، طريقة واحدة على الباب النصف مغلق دخل بعدها عمها ومن نظرة واحدة لابنة أخيه علم بأنها فى ورطة ما، اقترب منها فوقفت ناهضة على الفور وهو يحيط بكتفيها متسائلاً باهتمام:

- جد ايل، هل أنتِ بخير حبيبتي؟

أومأت برأسها له وهى تمس برغبتها فى العودة لغرفتها على الفور، تركها تغادر وهو يستشعر سخونة وجهها واحمراره المبالغ فيه وجلس يستكمل الحديث مع هشام باهتمام وحماس متجاهلاً ألقُ البرق الظاهر بقوة فى عينيه، وعند عودة زوجته ووالدة هشام بدأ الحديث يأخذ مجرى آخر وتلقائي بعد أن تكلمت والدته هشام بصراحة عن إعجابها بـ جد ايل ورضا ولدها الواضح دون الحاجة لسؤال، فى البداية كان قلق بخصوص تفاصيل الماديات التى سُتطلب منه وبالأخص لأنها لم تتزوج من قبل ولكنه وجد العكس تماماً والرجل يُيسر له ويقول له بصراحة أن يأتي بما يستطيع تحمله فقط .

وبدون أن يرى الدكتورة عبير كما تقول عنها والدته دوماً شكرها بدخله عن الهدية التى قدمتها له دون سابق معرفة، " جد ايل " هدية لا يليق بها سوى تدليل كتدليل والدها لها .

الروح

كان ذلك اليوم مختلفًا جدًا، مختلفًا لدرجة أن لاحظ زملاءه في العمل تبدل حاله بشكل مفاجيء، بداية من رجال الأمن على بوابة الشركة الذين لم يصدقوا أنفسهم وتبادلوا مع بعضهم البعض نظرات مندهشة عندما مر بهم في الصباح بابتسامة واسعة وهو يلقي عليهم تحيته التي غابت عنهم لشهور، أما الخمسة موظفين الذين تضمهم غرفة مكتبه بداخل الشركة فلم يكونوا أقل اندهاشًا، بل على العكس، ردوا تحيته وهم يحملقون به ويتأملون هيئته الجديدة، ذقنه الحليق، ملابسه المهندمة، يده التي ترتفع بالسلام على كتف كل من يقابله منهم، يوزع ابتساماته بالعدل على الجميع، واحد فقط من الخمسة هو من لاحظ قلق دفين خلف تلك النظرات المشعة، ومن يكون سوى صديقه الوحيد.

عندما جلس هشام أخيرًا خلف مكتبه وهو يُرسل نظرات ضاحكة رُغمًا عنه نحو عادل الذي كان ينهض من خلف مكتبه ويتقدم نحوه، أحنى عادل جذعه تجاه هشام وهو يربت على كتفه هامسًا بتفكُّه:

– هل يعني هذا أنه تم تحديد موعد الزواج؟

التفت إليه هشام محاولاً كبج جماح شيء مُزهر لا يعلم كنهه، يغرز بتلات سعادة بقلبه، مطالاً بقوة من خلف نظراته يعلن عن نفسه ويفضح صاحبه، وهو يرد على همسته بهمسة زاجرة قائلاً:

- دعني الآن يا عادل وأعدك أن أشيع فضولك عندما ينتهي العمل، اتفقنا؟

اعتدل عادل واقفاً وهو يرفع كلا حاجبيه ويحرك رأسه ويتنهد بيأس من صديقه، نعم لقد تغير مظهره، بدى الإشراق على وجهه، ولكن، هشام سيظل هشام إلى الأبد، يخاف أن يُعلن عن سعادته أمام الناس، يخشى إظهار فرحته لهم، يعتبر الحب سرّاً من الأسرار العليا لا يجب أن يعلمها أحد، بل ولا يلاحظها من الأساس، يخاف من الحسد؟، أم ربما يرى الحب ضعفاً يجب أن يوارى خلف الحُجُب!

في نهاية اليوم وفيّ هشام بوعدة وهو يسير بجوار عادل ويحكي له القبول الذي شعر به عندما رأى جدائل لأول مرة، وكيف قابله عمها وزوجته مقابلة حسنة ومُتفهمة لظروفه، وكيف عجلت والدته بالأمر كأسرع من سلق بيضة من دجاجة يتيمة، ولم تنتظر حتى أن يصلي صلاة استخارة، وقامت بكل الاتفاقيات اللازمة بالنيابة عنه في جلسة واحدة بحماس متقد وكأنها تترافع في قضية رأي عام!، ولقد كان حدس عادل في محله تماماً فبالفعل تم تحديد موعد عقد القران في نهاية هذا الأسبوع، والزفاف في نهاية الأسبوع المُقبل، وهذا يعني أن أمامهما عدة أيام فقط للتعارف، وعليه أن يجعلها تعتاد عليه بعض الشيء قبل الزفاف .

وضع عادل مجموعة من حبات الفول السوداني دفعة واحدة بفمه
ثم قال باعتراض:

- والدتك لم تقم بعملها كما يجب

التفت نحوه هشام بدهشة بينما حافلة ذات لون أحمر باهت تمر
بجواره مُسرعة وتلال من البشر يتعلقون بأبوابها المفتوحة وعادل يوميء
برأسه مؤكِّدًا:

- نعم لم تقم بعملها جيدًا، كان يجب أن تتعلم من والدتي، فلقد
اتفقت في جلسة واحدة على زفاف مباشرة خلال عشرة أيام
فقط، وتم لها ما أرادت

كاد هشام أن يُعلق ولكنه لاحظ شروط عادل بعض الشيء وهو
يستطرد بنظرات غامضة:

- ربما لأن ظروف رؤى زوجتي مختلفة، فهي وحيدة

تنحني هشام وقد أدرك للتو أنه نذل كبير، فلم يخطر بباله مرة
واحدة منذ شهر كامل، مذ أن حضر حفل الزفاف الصغير لصديقه أن
يسأله عن أحواله مع زوجته الجديدة، وهل هو مرتاح معها أم لا!، فهو
يعرف عادل جيدًا، إنه عكسه تمامًا، يكتب الحزن بداخله ويرتدى قناع
المرح دومًا ليداريه عن الناس، أما السعادة فهو كفيل بالإعلان عنها
لكل من هب ودب!، فلقد أعلن خبر زواجه على الشركة بأكملها
بمجرد أن اتفق على موعد الزفاف، بل وتعارك مع مدير فرع الشركة
لأول مرة ليحصل على إجازة لأسبوع كامل، وعندما عاد من أجازته لم

يكن يمشي بل كان يطير على أجنحة السعادة بينهم، أما ومن أيام قليلة، فقط عدة أيام لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، تبدل حاله، أصبح يشرد كثيراً، وهو لم يكلف نفسه ليسأله لماذا!!، حسم قراره وخصاله بعدم التدخل في شؤون الآخرين تحاربه وتسائل بحزم لم يقصده:

- بمناسبة حديثك عن زوجتك، كيف حالك معها أنت وطفلك؟

زفر عادل بقوة وقد ظن بأن هشام لن يسأله أبداً، فهو يحتاج للحديث ولكن لا يعلم ماذا سيقول بالضبط، إنها مجرد مخاوف لا يعلم لماذا تراوده بشأنها، نفص كفيه من بقايا قشر الفول السوداني العالقة به ودهسهما في جيبي بنطاله كعادته وقد توترت نظراته قليلاً وهو يقول:

- لا أخفي عليك يا صديقي، في البداية كانت علاقتنا جيدة للغاية ولقد شعرت بحبها لي وحاجتها لحبي، وأصدقك القول هي تهتم بي وبطفلي بحب لم أكن أتخيله، ولكن في الأيام الأخيرة تبدلت قليلاً، هناك شيء ما تخفيه ولا أعلم ماهو !

رفع هشام يده يحك ذقنه مفكراً وهو يطم شفتيه ثم عقب قائلاً:

- تقصد أنها لم تعد تهتم ؟

حرك عادل رأسه على الفور نائفاً وهو يجيب والحيرة تزداد بقلبه وعقله أكثر:

- لا، هي تهتم بلا شك ولكن، تُخفي أمراً ما عني، منذ أيام خرجت ولم تخبرني تاركة طفلي عند والدتي، وعندما سألتها بهدوء ثارت

بدون مبرر واتهمني بأنني أحبسها بالبيت وأراقب خطواتها كالجنونة.

- ألم تعرف إلى أين ذهبت؟

ودون أن يجيبه توقف فجأة أمام دُكان صغير زُجاجي يعرض أنواع شتى من الزهور وابتاع منه باقة ورود صغيرة مختلفة ألوانها، جمعها له البائع بمهارة وسرعة بداخل عقدة حمراء اللون زاهية، دفع عادل ثمنها وهو يتأملها برضا، وعندما خرجا لُيتابعا سيرهما، أستكمل عادل حديثه وكأنه لم يتوقف قائلاً:

- المشكلة بالنسبة لي ليست أين ذهبت، أنا أتق بها وأعلم أن النساء تحتاج أحياناً إلى التسوق بعيداً عن سأم الرجل السريع، المشكلة أنها تضع بيننا المسافات والحواجز وتخفي الأمر عني، أصبحت تشرد كثيراً وعندما أسأها تنهرب مني

نظر هشام إلى باقة الزهور بيد عادل وقال ساخراً:

- وهذه الزهور رشوة بالطبع لتبوح بما تخفيه

ضحك عادل بخفة وهو يرفع الزهور يستنشقها بقوة ثم يردف

مبتسماً:

- نعم هي رشوة بالفعل، ولكن لأمر آخر، لأنها طلبت العودة إلى عملها اليوم صباحاً ونحن نتناول الإفطار سوياً وأنا رفضت فغضبت مني، حاولت مصالحتها والتفاهم معها ولكنها أوصدت

باب غرفة النوم وهتفت من خلفه بطفولية بأنها لن تخرج حتى أرحل .

سكت هشام تمامًا وهو يتنهد بعمق وهو يسبل أهدابه حتى كاد أن يصطدم بالعجوز الذى مر بجانبه، ويدخله يحمد الله على أنه سبحانه ألهمه بعدم الموافقة على الزواج منها، ماذا لو كان تزوجها وقلبت حياته إلى جحيم لتعود للعمل مرة أخرى كما تفعل الآن مع عادل وكما فعلت هالة معه من قبل .

توقفت أفكاره للحظات عندما قفزت ذاكرته إلى هالة الراحلة، التي قامت بنفس العاصفة عندما رفض أن تعود لعملها بعد الزواج، ولكنه لم يأت لها بزهور، تركها تغضب وتصيح كل يوم وعندما سئم أخذ يبادلها صياحًا بصياح وشجارًا بشجار واستحالت حياته إلى جحيم فعلي لم يُخرجه منه إلا حملها بالتوأم جنى و لُجَيْن .

لكره عادل بكتفه ليعبر معه الطريق سريعًا ويهبطا إلى أقرب محطة مترو، وعندما وقفا على الرصيف فى انتظار القطار القادم، نظر هشام نحو عادل وقال وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- وهل تعتقد أن الزهور تأتي بنتائج مع امرأة عنيدة، مُصممة على ما برأسها

ابتسم عادل وهو يعلم بأن هشام فى هذه اللحظة لا يتحدث عن رؤى، إنما هو عالق فى ماضيه، فمال باتجاهه قائلاً بخفوت:

- المرأة لا تكون عبيدة إلا عندما يهملها زوجها يا هشام، فتريد
لفت انتباهه بعندها كما يفعل الأطفال، لذلك أنا على يقين بأنها
تريد العودة للعمل لا للعمل نفسه ولكن لأنها شعرت بانشغالي في
الأيام الماضية وبدأ اهتمامي بها يتناقص

ورفع باقة الزهور أمامه وهو يتابع بمرح ماكر:

- وباقة الزهور هذه كفيفة بالأم، مع كوب من غزل غير عفيف،
ورشة من شغف رجل بامرأته لا تستطيع أن تصده، وهكذا
أستطيع أن أكل عنادها هنيئًا مريئًا !

بُوق القطار قضى على الحروف المتبقية من حديثه وتحفز جميع
الناس على محطة القطار وعندما توقف أمامهم يفرد طوله على الرصيف
الطويل وفتحت أبوابه أندفع الناس إليه، لدرجة أن من يحاول الخروج
ربما يدخل مرة أخرى بقوة الدفع، هذه القوة البشرية هي التي دفعت به
هشام للداخل بصحبة عادل ولكن عقله كان وحيدًا تمامًا، منفصل
بالكلية عما يحدث من حوله، والتساؤلات تدور بذهنه بلا توقف، لماذا
كان يظن زوجته لا فائدة منها، ولماذا لم يلجأ إلى ناصح أمين كعادل له
خبرة في التعامل مع المرأة، ربما كانت مشاكله قد حُلّت معها، كان يرى
حياته معها بمنظور واحد، منظور متجمد، لو هُدمت الدنيا حوله لن
ينظر لها من غيره، ولن يحيد يمينًا أو يسارًا، ربما كان سيجد بابًا آخر يلج
منه إلى نقطة تفاهم مع هالة، كان دائمًا يحاول فتح باب خلفي، بينما
الباب الأمامي مُشرع على مصرعيه !

زخاتٌ مطر خفيف تتسابق واحدة بعد الأخرى فوق سطح زجاج
نوافذ السيارة المؤجرة، تُلاعب المساحات الأمامية لها وتتحداهَا أن
تستطع محوها بسهولة، بينما طرفاتها الخفيفة المتتابعة ترفع رايتها
البیضاء مُعلنة الهزيمة أمام قوة ضربات قلب جدائل الساكنة على المقعد
المجاور لهشام وهو يقودها إلى بيته، إنها تُحب صوت تلك الطرقات
الهامسة على الزجاج المجاور لها، طيلة العام تنتظر الشتاء لتتصت لها ليلاً
من خلف نافذتها المغلقة وكأن بينهما خبيئة ما، تتلحف بغطائها
الصوفي الثقيل وتغمضُ عينيها، " المطر " تنام على ترنيمته الهادئة كرضيع
فوق ساقِي والدته وبين ذراعيها مسترخياً بجسده فوق صدرها وهي
تهدده بلحن يعتاده يومياً، ما بالها الآن لا تستطيع أن تستمع له وقد
ذوى صوته وتراجع خلف نبض خافقها الذى يضخ بين أضلعها بصعوبة
مؤلمة، خوفاً، قلقاً، أو انتظاراً !

لو كان الإنتظار يقتل لقتلها فى التو، لماذا ضاقت المساحة الفاصلة
بينهما بداخل السيارة هكذا، تكاد أنفاسه الثقيلة بصحبة عينيه المتعلقة
بالطريق تبتلع الهواء بالكامل بداخل السيارة الغارقة بهما فى اللانهاية،
تكفي شحنات التوتر التى لازمتها منذ بدأت منحنيات الطريق يشير
إلى اقتراب منزله، متى سيصلان وينتهى الأمر لتبدأ رثيها فى التنفس من
جديد .

كان يلتفت نحوها بطرف عينيه بين دقيقة وأخرى ثم يعود ليتابع
الطريق مجدداً، يكاد يسمع ديبب أفكارها المشتتة بوضوح، تشي بها
بشرتها المتقلبة الألوان بين الوردي المحبب والشحوب الشديد، وهي

تتابع بعينها حبات المطر، بداية قوية لشتاء يعده بالكثير، أحياناً يُذكرنا الشتاء بما فقدنا، أو ربما بما كنا نملك ذات يوم !.

لقد فعل كل ما بوسعه في الأيام السابقة ومنذ أن عقد قرانها لي يجعلها تعتاده كخطيب وزوج، جلسات مطولة بينها وبين بناته، كانت لها نصيب الأسد من الزيارات العائلية وقد كان يترك لها مجال الانفراد بالفتيات وحدهما لفترة طويلة كما طلبت منه ليعتادا على وجودهما معها، كان يفرح باهتمامها بهما وخصيصاً أن قالت له والدته بفخر ذات مساء:

- جدائل قالت لي أنها قد اشتركت في دورة لعلاج تأخر النطق عند بناتك

دخلها المتزايد لم يكن يترك له فرصة سوى بعض المكالمات الهاتفية التي كان معظمها من نصيب والدته، والدته التي كانت شريكاً أساسياً في اختياراتها لأثاث بسيط احتل أركان شقته من ثلاثة أيام فقط. أصر هشام من البداية أن لا يعيشان مع والدته بشقتها، ولم تُمانع الأخيرة أو تعترض وكأنها هي أيضاً أصابها حمى الخوف من تكرار الماضي، فأحضرت امرأة تعرفها لفتح شقته وتنظيفها حتى صارت جديدة براقعة وباعت جُل أثاثها القديم، لتتأق الشقة بأثاث جديد للعروس القادمة على استحياء، ها هي قد أوشكت على التخلص من هذا العبء الثقيل ورميه على أكتاف أخرى، بداخلها يعرف بأنها شاركت في تعاسة ولدها مع هالة، ضميرها يؤلمها ويحثها على عمل أي شيء لئلا تراه سعيداً مستقراً مرة أخرى، فكل شيء مباح في الحب والحرب !، والآن تقف

بانتصار في صدر الشقة وأمام بابها بعد أن وضعت طعام العشاء للعروسين .

وجبة فاخرة تركت من أجلها حفل الزواج الصغير الذي لم يحضر فيه سوى المقربون فقط، حتى عادل حضر وحده واعتذر عن عدم حضور زوجته لمرضها، وجعلت ابنتها وزوجها يُقَالُها بسيارتها إلى المنزل لتُعدها كما يجب، وتضعها في شقة ولدها قبل وصوله هو وعروسه .

أستمعت إلى أصوات أقدام وحفيف ثياب ثقيلة تصعد السلم فتحركت على الفور تجاه باب الشقة المفتوح من البداية لتستقبلهما أمامه قبل دخولهما، كان المطر قد نال من ملابسهما فابتل فستان العُرس الأبيض ولم تنجُ حُلة هشام من البلل التام وقد خلع سترته بمجرد أن خرج من سيارته ورفعها فوق رأسيهما لتحميهما قدر المستطاع من الماء، أقبلت والدته هشام تُثنى جداً وتحتضنها وقد دمعت عيناها بجدوى وراحة عندما بادلت هشام الاحتضان وهي توصيه بعروسه، ولم تنسَ أن تلذعه بلسانها قبل أن تغادر هامسة في أذنه:

— أرفع رأس أبيك يا ولد

تركته والدماء تغلي في عروقه بسببها وهبطت للطابق الأسفل لشقتها حيث ينتظرها فراشها الدافئ بجوار الفتاتين النائمتين في فراشها منذ أن حملها زوج ابنتها من سيارته ووضعها في سريرها وانصرف هو وزوجته دون تقديم عرض مبتذل عن اصطحاب البنات معهما ولو حتى لحفظ ماء الوجه، ولما يفعلان؟ وماذا لو وافقت؟ لا .. الأفضل ألا يتدخلان من البداية كما هما دومًا !

حملت جدائل فستانها الثقيل بفضل البلبل وهي تلج للداخل ولم تنسَ تنظيف حذائها جيدًا قبل الدخول بينما تبعها هو مُغلَقًا الباب خلفه بهدوء، وقف بجانبها يلتقط انفاسه ويراقبها وهي تتجول بنظرها بين أركان صالة الاستقبال بتمعن وكأنها تتأكد أن كل شيء مكانه تمامًا كما وضعتهُ أول أمس، ابتسم بحماس وهو يدعوها للجلوس قليلًا ولكنها قالت بخجل وهي ترفع ذيل فستانها عن الأرض :

— سأدخل لأبدل ملابسي أولاً، ذيل الفستان مبتل وقد علق به التراب وأخشى أن يُفسد السجاد أكثر من هذا

أوماً لها موافقاً برأسه وهو يتنحى مُخرجًا دون سبب واضح، خلع حذائه وتركها تدخل غرفة النوم بينما تقدم هو قاصدًا أول مقعد أمامه وجلس وهو يُرجع ظهره للخلف مغمضًا عينيه محاولاً الاسترخاء قليلًا وتجميع عبايد أفكاره المندفعة بكل اتجاه بعقله، اليوم كان مُرهقًا جدًا له، أضطر إلى عمله صباحًا لعدة ساعات قبل أن يذهب بعد مداولات عدة لمحاولة الحصول على أجازة زواج لأيام، والتي لم يستطع أن يحصل منها سوى على يومين فقط يليهما يوم الجمعة والسبت، أجازة طويلة بالنسبة له لم يحصل عليها من قبل سوى في الأعياد !

هل تأخرت جدائل بالداخل أم هو فقط يتوهم، أم لعله يشناق؟!،

زفر وهو ينهض واقفًا لا يدري ماذا يفعل، أخذته قدماه دون إرادة نحو غرفة بناته المُلَقة، فتحتها برجفة دفيئة لا يعلم سببها ودخل ويده تسبق قدميه وترتفع تلقائيًا نحو زر الإضاءة كعادته، وقف يتأمل الغرفة النظيفة حوله بذهن شارد ويداه تتدفأ بجبي بنطاله، يَشعر بالاشتياق

الشديد لأول مرة بحياته، هل لأنها عروس جديد؟، ولكن لا، لقد كان يشعر بهذه اللفة لرؤيتها وللحديث معها في كل مرة يذهب لزيارتها، أو تأتي هي لوالدته، في كل محادثة هاتفية كان يتذرع بأي موضوع ليُطيل الحديث معها ويسمع صوتها أكثر، فهي خجلة جداً، يراها غامضة، هل يكون هذا هو سبب شغفه، كونها غامضة عليه، لا تتحدث بالكثير، لا تُثرثر، مازالت كتاباً مُغلِقاً مُدَوّن بلغة أخرى غير لغته .

" ألم أقل لك " !، عبارة رن صوتها بخاطره جعلته ينتفض، ويتراجع للخلف بظهره حتى خرج من الغرفة و يسحب بابها معه ليغلقها مُجدداً، يرى حروفها ترتسم بعقله وقلبه معاً، وكأن أحداً ما يشاركه قلبه وعقله ورأى ما يدور بهما فأجابه على الفور بها، مجرد حروف ولكنها صاخبة جداً، ضج بها فؤاده، " إذا تزوجت بأخرى غامضة صامتة ستصبح شغوفاً بها، على عكسي " !، مرر كفه على خصلات شعره وأصابعه تنغرز فيها بتوتر شديد وكلماتها السابقة له تسحق ضميره سحقاً وتَدْفِئُ بها سماء عينيه .

- هشام !

استدار سريعاً للخلف وأهدابه ترفرف بقوة وكأنه يجبر عقله على الخروج من ذكرياته ليرى من تقف أمامه في هذه اللحظة، ليستعيد حاضره، أطرق للحظات وهو يحاول تهدئة أنفاسه المتصارعة بصدره ثم رفع رأسه نحوها مبتسماً بمرح زائف ويسألها:

- هل تُخططين لقتلي جوعاً ؟!

ابتسمت جدائل وهو تُطرق برأسها هامسة:

- آسفة، تأخرت بالفعل

تأملها قليلاً قبل أن يُشير نحو الطاولة ذات السطح الزجاجي والبيضاوية الشكل التي تتوسط المقاعد الذهبية اللون وقد وضعت فوقها والدته صينية ضخمة مستديرة مملوءة بالطعام، تحركت جدائل بين المقاعد حتى اختارت واحداً وجلست فوقه بخفة، بينما جلس هو قبالتها والطاولة تفصل بينهما وبدأ يزيح الستار عن الطعام الشهي والصمت يعتلي اجتماعهما المنفرد هذا لأول مرة ويفرض سيطرته، لم يكن لأحد منهما شهية كبيرة فنهضا من جلستيهما تلك بعد دقائق معدودة وهو يدعوها ليُصلي بها ركعتين وهو بداخله يتمنى أن تقضي الصلاة على توتره وتشتت أفكاره هذا ولو بعض الشيء، وبالفعل بدأ الهدوء يعم قلوبهما عندما وقفت خلفه وكبر هو للصلاة، كان يحاول جاهداً أن يركز كل تفكيره في الكلمات القرآنية التي يتلوها بينما شيطانه يجذبه نحو ذكرى بعيدة، حُرمت فيها هالة من هذه الراحة النفسية التي تنساب الآن بين هشام وجدائل، فلم يكن لأي منهما دراية بهاتين الركعتين الخفيفتين وقد انتهت بحما الليلة الأولى نهاية درامية للغاية، أعقبها تدخل سافر من والدته في اليوم التالي قضى على الكثير من فرحتيهما بأولى أيامهما سوياً

تركها لدقائق بعد الصلاة ليبدل ملابسه خارجاً ثم عاد إليها وبداخله حماس لأن تكون هذه الليلة مختلفة عن ما عاشه من قبل، وفي الصباح لن يسمح لوالدته بالتدخل وسيقف لها بكل حسم إن حاولت حتى، لن يُفرط كما فرط مع هالة .

عندما عاد إليها كانت تقف امام المرأة الكبيرة تُعدل من مظهرها
بعد تخليها عن ملابس الصلاة

فوقف حائلاً بينها وبين المرأة مما جعل التوتر يعود إليها وتطرق
برأسها أرضاً .

- جديلة

عندما ناداها مُداعباً لم ترفع رأسها ولكنه استطاع أن يرى ارتعاش
جانبي شفتيها ربما بابتسامة صغيرة، أمسك بكفيها وقبلهما برقة هامساً
محاولاً استعادت جميع الدروس المُستفادة التي أخذها من عادل طوال
الأيام السابقة:

- أشعر بمشاعر مختلفة لأول مرة بحياتي، لأول مرة قلبي يتنفض
شوقاً عندما أقترّب من امرأة، حقيقة أنتِ تمنحيني الكثير، أكثر
مما كنت أتخيل أن أشعر يوماً

لأول مرة!، همست بحيرة دون أن ترفع رأسها وهي تحاول جاهدة
السيطرة على ارتعاشاتها المتواصلة:

- أنت كنت متزوج من قبل !

أرسل تنهيدة طويلة وقد انتقلت حيرتها إليه ربما عبر أناملهما
المتشابكة الآن والتي يضغطها برفق بين أصابعه:

- نعم، ولكن صدقيني، أنا أحيا معكِ مشاعر تطرق باب قلبي
لأول مرة

ارتعاشة أخرى لاحظها على جانبي شفتيها فأراد أن يرى الابتسامة بوضوح، يريد أن يستمتع بمزيج مشاعرها مع لون عينيها المميز وهي تبتسم لعينييه عن قُرب، مد يده أسفل ذقنها ليرفع رأسها إليه، رفعت عينيها المتوترة المهتزة في البداية نحوه بصعوبة وهي تجاهد لأن لا تنظر في عينييه مباشرة، رآها تحيد بعينيها جانبًا نحو المرأة من خلفه وفجأة امتنع وجهها وشحب كالأموات، وصرخت وهي تندفع للخلف بقوة وتتعرش وتسقط أرضًا بعد أن اصطدم ظهرها بالحائط من خلفها، ملامح الرعب التي ارتسمت على وجهها وعينيها التي تجمدت على المرأة جعلته يتصلب مكانه للحظة وهو لا يستوعب ما حدث، ابتلع ريقه بصعوبة عندما أفاق من صدمته وهو يلتفت خلفه، لا شيء!، المرأة تعكس صورته بشكل طبيعي جدًا، عاد برأسه إليها فسقط قلبه بين قدميه عندما وجدها قد غابت عن الوعي .

لحظات عصبية مرت به وهو يحاول إفاقتها بعد أن حملها فوق الفراش وغطاها جيدًا وهي لا تستجيب، وأخيرًا بدأت تتأوه وترمش بعينيها مرارًا قبل أن تفتحهما بشكل كامل، نظرت إلى وجهه المتلهف القريب من وجهها للحظة لا يدرك عقلها بعد ما حدث، وفجأة استعادت ذاكرة الدقائق السابقة دفعة واحدة، فصرخت من جديد وهي تنظر نحو المرأة، ضمها إليه بقوة وهو يحول رأسه نحو المرأة لثانية ثم يُسيطر على انفعاله بها ويحاول تهدئتها بينما تمد يدها باتجاه المرأة مرتعشة وهي تهتف بصوت مبحوح من الرعب الشديد المُسيطر عليها:

- زوجتك، في المرأة

عاد يضمها بقوة أكبر إلى صدره من جديد وهو ينظر ثانية إلى ما تشير ويقول بصوت لم ينجح في إظهاره متماسكا:

- لا شيء حبيبي، أنت تتوهمين

حركت رأسها المضمومة إلى صدره بقوة رافضة وهي تصيح:

- لا، رأيته، كانت تبكي يا هشام، أنا متأكدة

تنحى لا ليجلي صوته بل لطرد تلك القشعريرة التي دبت بجسده بشدة وقد فشل في جعل نبرته هادئة، كاد أن يسألها وكيف تعرف شكل زوجته السابقة ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أنها رأت صور عدة لها بصحبة جنى و لجين عندما كانت تحضر لزيارتهما في شقة والدته، لا يعلم ماذا يفعل، التوتر يفرض سيطرته على جسده والبرودة تتسلل إليه بمكر يفقده صوابه، هو الرجل، ويجب عليه تهدئتها حتى ولو كان مرتعبا وهو لم ير شيئا، فكيف لو رأى !

- حبيبي، اهدهني أرجوك، أرتاحي قليلاً أنتِ مُتعبة فقط .

كان يشعر بصدرها يعلو ويهبط بجنون وجسدها الذى بين يديه ينتفض بقوة وبكاؤها يعلو شيئاً فشيئاً وهي تَهْتَف بلوعة وخوف:

- كانت تبكي يا هشام، ولكن ليس دموع، كانت تبكي دماً !

ماذا يفعل؟!، يضمها بقوة ولكن عينيه تدور حوله، يُقنع نفسه بصعوبة بأنها تهذي بالفعل وهو يهمس بآية الكرسي ويمسح على شعرها بيده الأخرى، وقعت عينيه على هاتفه الموضوع فوق المنضدة الصغيرة بجانب الفراش فمد يده وهو يميل بجذعه يمينا حتى استطاع أن يلتقطه،

مرر أصابعه فوق أزراره دون أن يفلتها حتى صدح منه صوت الشيخ أحمد العجمي يتلو سورة البقرة، وضع الهاتف بجانبها وعدل من وضع جسده وهي تتشبث به أكثر حتى استطاع الإستناد بظهره إلى ظهر السرير جاذبًا الغطاء حوله هو الآخر يتدثر به معها وهو يهمس لها بأن كل شيء سيكون بخير وربما هو الخوف من ليلة الزفاف هو من جعلها ترى أشياء لا وجود لها، أغمض عينيه بصعوبة عندما هدأت أنفاسها في صدره محاولاً إقناع نفسه بما كان يقنعها به منذ قليل .!

قضى نومه بين أحلامه المعبدة له والتي لم تسمح له بالإنسلاخ منها إلا بعد أن تسرب إليه رائحة دُخان قريب من أنفه، هناك شيء ما يحترق !، انتصب فجأة في مكانه جالسًا فوق سريره وعقله يجاهد صحوته المفاجأة، ولم تكن عينيه بأقل مجاهدة من عقله وهي تحاول بكل الطرق اختراق سحابة الدخان الكثيفة المحيطة به والتي تملأ الغرفة بالكامل، قفز من فوق الفراش هاتفًا باسمها وهو يخرج من باب الغرفة باحثًا عنها، بمجرد خروجه من الغرفة اصطدم بجسد امرأة لم يتبين ملامحها ولكنه استطاع تميز صوتها وهي تزجره باستياء:

– انتبه لخطواتك يا معتوه

سعل بقوة محاولاً كتم أنفاسه المختنقة وقد بدأ عقله بتميز الرائحة وما يحدث حوله، وهو يسألها متبرماً:

– أمي، ما كل هذا البخور، هل تنوين حرق المنزل !

مازالَت تُمسك بالسلسال الكبير المتدلي منه المبخرة الدائرية، وتحرك يدها به حركات دائرية وهى تجيبه بجدية:

- هذا بخور البرّ يا ولدى، يدفع عن المنزل العفاريت والأرواح، زوجتك حكّت لي ما حدث لها بالأمس عندما أتيت إليكما فى الصباح، وهى الآن فى الأسفل بصحبة بناتك
تبعّت حديثها بأن ظلت تتنقّل حولها وهى تُتمتم:

- انصرفوا، انصرفوا

زفر بقوة وهو يعود إلى الداخل محاولاً إلتقاط أية ملابس من الخزانة ليبدلها بمنامته ويهبط إلى شقة والدته ليتفقد زوجته، طرق الباب بقلق فاستمع إلى وقع أقدام صغيرة تتسابق نحو الباب مصحوبة بضجيج يعرفه، فُتح الباب واندفعت الفتاتان نحو ساقيه بشغف، كل واحدة منهما تحتضن ساقاً وتدفع أختها بعيداً، انحنى إليهما وحملهما إلى الداخل وهو يقبلهما مُغلّقاً الباب بقدمه وعيناه تبحث عنها حتى وجدها تخرج من الممر الصغير المؤدى للمطبخ تحمل بيديها صحن فاكهة صغير كانت تعدّه للفتاتين، رفعت وجهها نحوه وهى ترد تحيته بابتسامة خفيفة خجولة وتُكمل مسيرتها حتى وضعت الصحن على الطاولة الخشبية العتيقة ثم التفتت إليه ورأته وهو يضع جنى على الأريكة بينما لجّين تتمسك بذراعه وهو يحاول إقناعها بأنه سيحملها مرة أخرى بعد قليل حتى وافقت على تركه أخيراً، تسابقت الفتاتان إلى الطاولة حيث صحن الفاكهة بينما ثبت هو عينيه فى عينيها وهو يتقدم إليها، وعندما وقف أمامها تماماً بادرتّه قائلة بحرج بالغ:

- آسفة لما حدث بالأمس

وضع كفه على ذراعها وهو يمسده صعودًا وهبوطًا بخفة قائلاً
بخفوت وهو يُضيق عينيه باهتمام:

- هل أنت بخير؟

أومأت برأسها مؤكدة وهى تنظر نحو باب الشقة بتلقائية عندما فُتحَ
ودخلت حماقًا مغلقة الباب خلفها وهى تقول بتحدٍ موجهة حديثها
نحوها:

- تركت لكما البخور فى المطبخ، لو حدث شىء آخر أشعلاه على
الفور حتى تخرج من الشقة ولا تعود

التفت هشام نحوها يريد سؤالها عن ما تتحدث ومن تقصد ولكنه
خَشِيَ الإجابة، ربما عقله يرفضها ولكن خوفه القابع فوق عرش المنطق
بعقله أمره ألا يفعل، منذ أن كان يستمع إلى تلك الحكايا عن أرواح
الموتى التى تسكن الأماكن التى كانت تعيش بها يصدق ويوافقها، بل
ومرت ذكرياته عن رسالتها التى تركتها للبنات أمام عقله كشریط
سينمائي، تلك الرسالة التى لم يقرأها جيدًا ورغم ذلك عيناه حفظت
تلك الجملة التى كررَها هالة كثيرًا فى كل سطر بها وهى تقول لهما أنها
ستبقى معهما دائمًا فى غرفتهما وتنام بجوارهما ولكنهما لن يستطيعان
رؤيتها، وضعت والدته يدها على كتفه وهى تقول بجدية:

- خذ جدائل واصعد إلى شقتك الآن، سيمر زوج اختك بعد قليل
ليصحبني معه وسأخذ معي البنات

عقد جبينه متسائلاً بتعجب شديد:

- إلى أين ؟

ملأت رئتيها بالهواء وقد ظهر الإنشراح على قسّمات وجهها وهى تبتسم ابتسامة حلوة وتجيبه:

- اجراءات السفر يا بُني، العمرة، هل نسيت؟، سأسافر بصحبة أختك وزوجها !

لمس كتفها بخنان وهو يقترب منها وقد تشتت أفكاره أكثر وأكثر، وبدى كالطفل الذى لا يريد فراق والدته وهو يقول باعتراض:

- لقد كنتُ أصرُ عليكِ كثيراً لإتمام الإجراءات وأنتِ كنتِ تؤجلين الأمر، فلماذا الآن؟

- كنتُ أريد الإطمئنان عليكِ مع زوجتكِ يا ولدي، وها قد تزوجت والحمد لله، وأختك وزوجها سيذهبان للعمرة خلال أيام فلماذا التأجيل وأنت تعلم كم أشتاق للذهاب منذ فترة طويلة، فلم يعد فى العمر بقية .

أُعتَصِرَ قلبه وهو يرى دمعة الشوق بعينيها، لا يستطيع منعها، هو أكثر شخص يعلم مدى اشتياقها للسفر إلى مكة، هذا الشوق الذى جعلها تعصر على نفسها ليمونة كما تقول دوماً لتسافر بصحبة زوج ابنتها الذى لا تطيقه، وكيف تطيقه وهى لا تطيق ابنتها من الأساس، الحمد لله أنما تطيق نفسها أصلاً !

عندما صعد إلى شقته ومعه زوجته كان متربصاً بعض الشيء وهو يتلفت حوله بعينيه فقط كي لا يثير انتباهها، أما في الظاهر فلقد كان يبدو مرحاً وسعيداً لبيثها الإطمئنان اللازم، ربما كان خائفاً قليلاً ومتوترًا، ولكن سحابة الشوق انزوى خلفها بقية المشاعر الأخرى وهو يعيش تجربة أخرى يظللها الشغف كما لم يكن من قبل، كرفيفٍ لأجنحة عصفور صغير وهو يستعد للتحليق للمرة الأولى راهباً منتشياً، يسحب نفسه ببطء ونعومة من بين فكي الماضي، بداخله يهمس لها بصمت مطبق، طهريني من أفعالي السابقة معها، أمنيحي صكوك الغفران، غلفيني بالأبيض، بينما تصحج خلاياه وعروقه كلها نابضة بصخب، لا يسمع مناجاته سواه

هكذا يكون الشغف إذن ؟ ! .

مضت الأيام التالية هادئة ورائعة، شُرُفت الإجازة على الإنتهاء، إنها قصيرة للغاية، كمن تذوق حلواه المفضلة وقبل أن يأكل تُنزع منه بقسوة، إنه اليوم الأخير قبل العودة إلى العمل والإنخراط فيه مجدداً، استقيظ من غفوته عندما أصر رنين الهاتف على ألا يتوقف حتى يجيب، تلمل في فراشه الدافئ بها ومد يده يلتقط هاتفه محبباً بنبذة ناعسة، ومن يكون غير صديقه عادل الذى لديه القدرة على بعثرة خططه دفعة واحدة، حماسه المفرط وهو يدعو لزيارة عائلية تتعارف فيها زوجيتهما إلى بعضهما البعض ربما تصيران صديقتين مثلهما .

حاول هشام الرفض فلقد كان ينوي قضاء اليوم بالمنزل كعادته ولكن حماس عادل كان مشتتاً أكثر مما يجب مما دفعه للتسليم في النهاية والموافقة .

رحب عادل بصديقه بحفاوة وهو يستقبلهما عند باب شقته، ولم ينسى أن يُلقى تحية خفيفة ترحيباً بزوجة صديقه دون أن ينظر لها مباشرة، كانوا لا يزالون عند باب الشقة المغلق خلفهم بينما أقبلت رؤى تُرحب بصيوف زوجها وهي تحمل الطفل بين يديها، وعندما إلتقت عينيها بعيني جدائل للمرة الأولى استطاع هشام ملاحظة شحنة توتر سرت بينهما بشكل خفي، أخفض هشام بصره وهو يسير بصحبة عادل للداخل وقد أيقن في التو من نظراتها الغامضة نحو جدائل أن رؤى لم تنسى له أنه رفضها في يوم من الأيام بينما قَبِلَ به جدائل، اضطر في النهاية إلى أن يوميء برأسه لها على الموافقة وقد دعته رؤى للجلوس في الغرفة الأخرى لتجلسا بحرية أكبر بعيداً عن مجلس الرجال، مرت دقائقه متوترة بأفكاره وهو يحاول جاهداً التركيز مع صديقه والاستجابة لدعاباته ببعض الإبتسامات الخاوية، بينما ذهنه في مكان آخر والتوقعات تتلاعب به عما يحدث في الداخل الآن، ترى هل ستخبرها بأنها كانت عروساً مرشحة سابقة له من قبل والدته، هل ستقول الحقيقة بأنه رفضها دون أن يراها حتى أم ستقلب الموازين وتُدس برأس جدائل حكاية خيالية تحفظ بها ماء وجهها، وتُبعر بها صفاء حياته الوليدة معها !، استطاع بالكاد أن يلتفت لسؤال عادل عن أحواله مع

زوجته فأوماً برأسه وقد راودته سعادة خفية متذكراً الأيام الثلاث السابقة ولكنه ما لبث أن قطب جبينه وقد أصرت ذكرى ليلة الزفاف وما حدث فيها على العبور بذهنه لتشتته أكثر وتُعكر عليه سعادته، لاحظ عادل عبوس جبهته قليلاً فوضع كفه على ساق هشام وهو يتسائل عن سببه باهتمام، زفر هشام للحظة مخجلاً بعض انفعالاته السلبية التي تكدست بغبارها فوق أيام غسله الأولى معها وهو يتمتم بخفوت:

– ليلة الزفاف حدث أمر غريب

أرهف عادل سمعه وهشام يميل نحوه ويقص عليه بنبرة علاها القلق رغمًا عنه وكأنه يراها مرة أخرى أمام عينيه الآن، وما أن انتهى حتى قال عادل وهو يستند بظهره للخلف رافعاً حاجبيه وكأنه وجد الأمر أيسر مما كان يظن:

– عملت خيراً بأنك قمت بتشغيل سورة البقرة بجواركما، فحتى وإن كانت تتوهم نتيجة خوفها المفرط ربما من ليلة الزفاف وهذا ما أظنه، فهي ستبعث الإطمئنان والراحة في المنزل لثلاثة أيام متواصلة

ثم تابع ساخراً وهو يحرك رأسه كالدرويش:

– ودون الحاجة إلى شغل البيضة والحجر الذي قامت به والدتك في الصباح

ضحك هشام دون مرح حقيقي وهو يُلقي نظرة للداخل بطرف عينية وعقله يعمل بطاقة قصوى ليجد سبب يجعله يتذرع به لينادي زوجته ليطمئن عليها أو حتى لينصرفا في الحال، لقد مضت ساعة كاملة وهذا يكفي، بل يكفي جداً في الواقع !، أضاعت فكرة ما بعقله دون ترتيب فنظر إلى ساعته وهو يطلب زوجته فمازال أمامهما تسوق طويل في أحد متاجر ملابس الأطفال قبل أن يعودان إلى المنزل لينام باكراً وقد انتهت أجازته وحن وقت العمل .

منذ أن غادرا منزل عادل وهو ينظر إليها من وقت لآخر متمعناً في ذلك الشحوب والتوتر الذى كسى وجهها منذ أن خرجت من الغرفة الداخلية تصحبها رؤى، ياترى ماذا قالت هذه الرؤى لها جعلتها شاحبة هكذا، تناول كفها بين أصابعه وهو يسير بجوارها فلاحظ ارتعاش كفها وبرودتها الشديدة، لم يعد يقدر على الصمت أكثر من هذا، يخشى المواجهة ولكن لابد منها ليعلم ما يدور برأسها نحوه:

– أصابعك باردة جداً

وكأنه قد جذبها من فوق حافة جبل ثلج تتسلقه بصعوبة وهى تحبس أنفاسها خشية السقوط، فسمع شهيق عنيف تملأ به رئتيها ثم تحببه بارتباك خفيض ولون الحياة يعود لوجنتيها بعض الشيء:

– أشعرُ بالبرد، قليلاً

– هل أنت مُتعبة، نذهب للبيت على الفور؟

حركت رأسها نفيًا محاولة استعادة بعض الحماس لتغلف به صوتها حتى لا يشعر بشيء فيسألها، وهي تخشى السؤال، لا تريد الخوض، لا تريده بشدة فاجابته:

- لا.. الصغيرتان ستبتهجان بشدة إذا فاجئنهما بالملابس الجديدة، ربما هذا يحمسهما للعودة إلى الروضة مجددًا وقد انقطعنا عنها الأيام الماضية

عندما دخلا إلى متجر ملابس الأطفال وقفا للحظات عيناهما تطوف بالمكان بتمهل، فالمتجر كبير وكل ركن به يحوي نوعًا مختلفًا من الأثواب، حسب تصميمه، وقعت عينا جدائل على ركن مُميز بألوانه الوردية الزاهية والأبيض المتداخل معها بلفطة أنثوية خاصة، فتقدمتها خطواتها دون تفكير وقبل الخطوة الثالثة وجدته يجذبها برفق من مرفقها، وعندما استدارت إليه وجدته يشير إلى ركن آخر يطغى على ألوان ملابس اللون الأزرق والسماعي، وقبل أن تتحدث أخذها نحوه ووقف يختار تصميم مناسب للصغيرتين، عشر سريعًا على مبتغاه فأمسك بفستانين بيديه وهو ينشرهما أمامها قائلاً بحماس:

- ها .. ما رأيك؟

نظرت إلى الفستانين بإحباط وهي تمط شفيتها بعدم رضا وتقول:

- إنهما لا تُحبان اللون الأزرق، الوردى والأبيض يليقان بهما أكثر

وكأنها لم تقل شيئاً، طوى الثوبين على ساعده وهو يبحث عينيه عن العامل لبيتاعهما وهو يقول بعملية:

- الأبيض والوردي يتسخان سريعاً، أنا اعمل لمصلحتهما ومصلحتك

رأت العامل يقترب أكثر فقالت سريعاً باعتراض:

- الأمر لا علاقة له بالمصلحة، بل بإدخال السرور عليهما، وإن اتسحا فانا المسؤولة عن تنظيفهما لا أنت

وقف العامل قبالتها فمنحه هشام الثوبين بعصبية نوعاً ما وأمره بأن يغلفهما وعندما انصرف العامل التفت نحوها وهو يقول بحسم:

- جدائل، انا لا أحب الجدل في الشارع، الناس تنظر إلينا، انتظري حتى نعود للمنزل

- انتظري حتى نعود للمنزل!، وهل سيجدي النقاش وقتها إذن؟!!

وعندما وقف أمام الخزينة وهو يُخرج محفظته وقفت بجواره امرأة يبدو انها تخطت السبعين وربما أكثر، رفعت العجوز يدها وباصبعها حركت نظارتها الطبية حتى سقطت على أنفها ثم رفعت رأسها نحوه وعيناها تنظر إليه من فوق عويناتها مما جذب نظره إليها، فمالت إليه قليلاً وهي تهمس بصوت يضح بالسخرية المخلوطة ببحّة مميزة:

- أنت الوحيد الذى ستسعد بهذه الملابس الجديدة، لا الصغار ولا زوجتك، مبارك عليك، يليقان بك حقًا !

ضحكت بخفة وهى تدفع ثمن مشترواتها للخزينة، نظر لها بغيظ وتحفز فاستدارت لتتنصرف وهى ترمي له عبارتها الأخيرة:

- سامحني استمعت إلى حديثكما رغمًا عني، فأحببتُ أن أبارك لك سعادتك وتعاستهم

تحركت المرأة بخفة لاتتناسب مع عمرها بشكل جعله يرقبها حتى اختفت بين العارضات المعدنية المعلقة بينها الثياب، بينما عقله يسافر به بعيدًا جدًّا، حيث متجرجرًا آخر أيضًا ولكنه كان متجرجرًا للألعاب

- هشام، أنظر جنى تريد هذه اللعبة، تعلقت بها منذ دخولنا إلى هنا، وهى مناسبة لها جدًّا

- لا سأشتري أخرى أفضل، هذه ستُكسر سريعًا

- لا تقلق أنا ساعلمها كيف تحافظ عليها، هذه مهمتي

- قلت لا، ما اخترته لها مناسب أكثر

- هشام، هى من ستلعب بها لا أنت !

- هالة، لا أحب النقاش فى الشارع، أنتِ تعلمين ذلك

- إشرها يا هشام، إشرها لتلعب بها أنت، مبارك عليك اللعبة !

انتفض جسده وذهنه يعود لواقعه من جديد بهتاف عامل الخزينة
وقد نفذ صبره:

- سيدي، أنت تسد الطريق على من بعدك، هل ستدفع أم لا؟!

تحرك جسده بعيداً وهو يحرك رأسه نفياً ولكن عقله مازال عالماً بين
خطين فاصلين يقف هو الآن بمنتصفهما، التفت نحو المكان التي تقف
فيه جدائل الآن، فوجدها مطرقة برأسها للأسفل، عاقدة ذراعيها فوق
صدرها وترسم بكعب حذائها دوائر صغيرة متداخلة على الأرض
الملساء، عيناها مظلمة بشرود وحزن يراها للمرة الأولى ينسابان من
عينها إلى صفحة وجهها بتجهم أوجع قلبه .

وجد نفسه ينساق إليها ويقف بجوارها مُعلقاً الشوبن كما كانا مما
جعلها تظن بأنه وجد أثمانهما باهظة فعدل عن شرائهما ولكنها
فوجئت به يجذبها برفق حيث الركن الوردي ويقف قبالتها وهو يلمس
ذقنها بخفة وبداخل عينيه ترتسم ابتسامة حنونة، إنما حزينة شاردة
ويقول:

- اختاري الأنسب لهما، اختاري ما سيسعدكن

منذ أن سافرت والدته لأداء العمرة وهو يلاحظ انطوائها عنه
وشرودها يسيطر عليها يوماً بعد يوم، لا يعلم سبباً مقنعاً لتلك الحالة

التي وصلت إليها، في كل صباح عندما يستيقظ للخروج إلى عمله يجدها تنظر إليه برجاء، تمسك به عند الباب بقوة رافضة خروجه وهي تحتضنه هامسة بخوف:

– لا تتركني وحدي

حتى ملابسها لم تعد تهتم بهندمتها كالسابق، بل وتفعل الشيء أكثر من مرة بتوتر شديد وحرص للتأكد بأنها قامت به على أكمل وجه حتى أُرهِقَتْ تمامًا في أعمال المنزل، بين كل يوم وآخر تخترع حجة لتُبقي جنى و لجُين معها بالمنزل حتى تكاد أن تمنعهما عن دار الروضة تمامًا، تصحو في منتصف الليل متعركة ترتعش كالمختضر صارخة برجاء:

– لم أفعل، لم أفعل

الليلة الماضية لم تتغير كثيرًا، بل زادت حالتها سوءًا، عندما استقيظ مرتعبًا وقد ايقظه صوت بكائها، ضمها إليه وهو يُمسد شعرها ويقرأ آية الكرسي بجوار أذنها، صرخت مرة أخرى وهي تلتفت للخلف وتُشير إلى حافة الفراش هاتفة:

– الفراش يهبط بجواري، هناك من جلس بجانبني

ظل يُطمئننها بأن لا أحد معها وبأنها تحتاج إلى الإسترخاء كما يفعل كل مرة ويقوم بتشغيل سورة البقرة بجوارهما عن طريق هاتفه النقال، ليلة أمس أشعلت توتره وقلقه عليها، في طريقه إلى الخروج وتركها وحيدة

وقد أتت عاملة الدار لتصطحب بناته معها، لا يريد أن يفعل ولكنه مضطر .

قفز أسم عبير إلى رأسه دفعة واحدة فابتعد عن ضمتها قليلاً وهو يقول مقترحاً:

- ما رأيك بأن تذهبي إلى الدكتورة عبير ساعة أو ساعتين، أُمي كانت تقول أنها تعمل صباحاً في المركز الطبي وأعتقد أنها ستكون متواجدة الآن، هي تُحبك كما سمعت وستفرح بزيارتك بالتأكيد

ظهر عليها الوجوم يشوبه بعض التملل المنزعج للحظات، هناك شيء ما يشغلها تريد التحدث عنه، يظهر ذلك جلياً في عينيها التي يجب النظر إلى عمقها، وأخيراً حسمت أمرها وهي تقول بتفكير

- زوجة صديقك عادل تريد زيارتي هنا في المنزل، وقد اقترحت أن يكون صباحاً وأنتما في العمل وتنتظر مني موعداً، سأهاثفها بعد خروجك وأدعوها، أو .. أو ربما أذهب أنا إليها .

تلكأت يده على مقبض الباب وهو يشعر بتردها ويسمعه في نبرتها المرتعشة بل ويراه يعتلي كل خلجة في ملامحها التي تصير شاحبة كل يوم أكثر من سابقه، لا يريد لها الإختلاط برؤى، إنه حتى الآن لا يعلم ماذا قالت لها في الزيارة السابقة، نعم تكلم مع والدته قبل سفرها وعادت إليه في اليوم التالي تُطمئننه بأنها لم تتحدث معها سوى بالخير، ولكنه لا يطمئن لها ولا يعلم لماذا!!، رآها تنتظر قراره بترقب وعينيها تحوم حولهما

بقلق، ربما هو مُخطيء بشأن رؤى، ربما تصيران صديقتين وتستطيع أن تُخرجها من حالتها تلك، حسم أمره في النهاية بعد أن تنهد مُحرجًا انفعالات مشتتة تملأ صدره وتوجهه بل وتُرهبه في نفس الوقت وقال بخفوت:

– لا مانع لدي، افعلي ما يسعدك، ولكن إنتهني على نفسك جيدًا
و لا تنسي موعد عودة البنات من الروضة

مضى وأغلق الباب خلفه وهو يؤنب نفسه على موافقته تلك، لقد تسرع، ولكن، ربما لن تذهب أو حتى تجعلها تأتي هي إليها، ربما تُغير رأيها كما فعلت الأسبوع الماضي عندما قالت بأنها ستزور عمها وزوجته وعند عودته علم بأنها غيرت رأيها ولم تخرج، أو ربما ستسمع بنصيحته وتلتجئ إلى الدكتورة عبير ربما تجد لديها حلاً لأحلامها المفزعة تلك، أغلق عينيه وهو يُشير بيده لسيارة الأجرة وبدخله يدعو أن لا تُجيب رؤى على اتصال جداول فلا تحدث تلك المقابلة من الأصل، نعم وهذا احتمال وارد، فهو يعلم من عادل أن رؤى مزاجية الطباع وكثيرًا ما تقرر الخروج فجأة، تُرى إلى أين تذهب؟!.

هل يصلح فعل الصواب ليكون حلاً؟!، أو بمعنى أصح، هل يصلح بأن يكون حلاً كافيًا؟!، كانت تعلم أن من الصواب عدم عودتها إلى

ذاك المنزل الذى هجرته منذ شهور قليلة وتزوجت، ولم ترجع؟، ولمن تعود؟

ثم إن عودتها أو حتى زيارتها غير مسموحة، لم تعد شقة عائلتها ولم يملكها أحد من بعد ما تركتها، شُعبة الشقة كانت كافية ليزهد بها الجميع ويخشى الولوج إليها أو حتى الإقتراب من بابها، حتى أن الجارات يرمين أمام عتبتها الفلفل الأسود والحار حتى لا تخرج منها الأرواح وتؤذيهم كما يعتقدن .

ومن قد يُفكر فى شقة قُتل صاحبها بأسياخ اخترقت حنجرته واحترقت زوجته بغرفة مكتبه حتى تفحمت، وابنتها واقفة تنظر إليها!، حاولت كثيراً طمر الذكريات إلا أنها تتناثر وتتناثر بفوضوية فوق إدراكها وحاضرها، حتى غيّرتَه فلم تعد تفصل بينهما، وبرغم كل ذلك أخذتها قدماها إلى هناك، تشعر بالحنين، تشغُر بالإشتياق لمكان لعبها وهى صغيرة، وكيف تمنع الحنين عن أماكن جمعت بين الضحك والألم بأنفسنا، مهما دأبت على تعذيبنا، إلا أنها تظل تحمل بقاينا، ننجذب نحوها وقد آلمتنا الوحدة أكثر مما كنا نعيش فيها، هي ليست مجرد أماكن، إنها بزوايا حُلدنا رغمًا عن كل الدموع التى ذرفناها فيها .

لم يلاحظها أحد، ربما شكلها قد تغير قليلاً أو ربما الناس منشغلون أكثر مما يجب، تلك الساعة الهادئة بالحي وقد ذهب الرجال إلى أعمالهم بينما النساء بين تنظيفٍ وتسوق، لازالت تحمل مفتاح الشقة فى سلسال

مفاتيحها الخاصة، كاللص دخلت من باب البناية تتلفت حولها بحرص وهي تخطو نحو الشقة بجوار سلم البناية الكبير المؤدى للطوابق التالية، والذي يُلقى بظله دومًا على عتبة الشقة فيجعلها مظلمة ورغم النهار الساطع، تركت أجزاء الأوراق المربعة الشكل والمثلثة منها والفلفل الأسود كما هم في مكانهم وقد ألقتهما إحداهن على العتبة ولم تحاول إزالتها، فتحت الباب سريعًا وتخطت كل شيء وكأنها تقفز ودخلت مُغلقة الباب خلفها بخفوت.

ظلام، لا شيء غيره اصطدمت به عينيها، وفي لحظة أدركت بأنها كانت رعونة منها أن جاءت، ما تلك الجسارة الغبية التي تدفعها للوقوف على أعتاب الجنون بلا سبب حقيقي، أتخارب في معركة تريد أن تخسرها؟!.

الستائر مُسدلة بخشوع على النوافذ المغلقة، ينسل من بين فتحاتها الصغيرة شعاع ضوء يخشى الولوج بكامله ولكنه يسمح لها برؤية باهتة غير واضحة، رائحة الدخان مازالت تُعقب الجدران التي كانت أشبه بظلال شامخة أمامها، دون إدراك وجدت قدميها تتحركان وكأنها تُنظف حذائها قبل الدخول، الدخول؟! وكأن الأثاث المُغطى أمامها بأقمشة كانت بيضاء يتحداها بسخرية أن تفعل، تلفتت حولها وخافقها يضح بقوة الخوف، حتى يكاد يقفز من صدرها إلى مكانٍ آخر أكثر أمانًا، وعيناها تفيض بالدمع الغزير بلا توقف، بدأت العبارات تنضح بعقلها

تكاد تصم أذنيها، بل وتصفع أنسانيتها بقوة تجعلها تتحرك خطوة جانباً وكأنها ضربتها

" لا زلت تخططين لخلع السواد أيتها القبيحة " ، لتستقبلها عبارة أخرى صافعة في الاتجاه المقابل " لا أعلم لماذا لاقمتين ورتاح من شؤمك " ، رفعت كفيها تضعهما على أذنيها بأنين متواصل لعلّ العبارات الذابحة تتوقف، ولكنها لم تفعل " عطرك الرخيص لن يجذب إليك إلا البعوض أمثالك "، زاد ضغطها على أذنيها دون شعور وأنيها يزداد مختلطاً بالدموع، والذكريات تزداد قسوة لتدفعها للدوران حول نفسها بلا وعي لاهثة. وفجأة توقف كل شيء، وكأنها أصيبت بالصمم المفاجيء، عندها ماتت عيناها على كيان ما في الممر الضيق المؤدى إلى غرفتها، كيان يتحرك، ويقترّب منها، شعرت بقدميها تستحيل إلى شيء هلامي وهي تنثني أسفلها وتُسقطها على ركبتيها من شدة الفزع، هربت الدماء من عروقها عندما اقترب ذلك الكيان أكثر وتبينت ملامحه، لا.. ليست ملامحه، بل ما تبقى منها!، كياناً محترقاً بالكامل، يتصاعد منه دُخان بلا نار، وبرغم كل ذلك استطاعت أن تتبينه، عرفته، بل عرفتْها، عيناها مشوهة كلياً، قسمات وجهها ذائبة في بعضها البعض، إلا أنها استطاعت أن تفهم تلك السخرية الناضحة فيه، وقبل أن يغيب وعيها سمعتها تقول:

- كنتُ أعرف أنكِ ستأتين، أنتِ كالفأر لابد وأن يعود إلى جحره
مهما كان نتنا !

دوامة ترميها فتسلقفها دوامة أخرى تُعيدها لمنتصف الدائرة من
جديد، دائرة بمنتصف البحر تبتلع كل ما يقترب منها، كلما ظنت أنها
تخرج تجد نفسها في وسطها مجددًا، ظلت تحارب بذراعيها ولكن بقية
جسدها ثقيل للغاية، يكاد يكون مشلولاً عن الحركة، كانت تعلم بأنها
تحلُم، وتريد اليقظة ولكن لامفر، لابد من الغرق أولاً لتستيقظ، توقفت
عن الخاربة واستكانت، تموت بإرادتها، وأخيراً امتدت إليها يدين
لتنقذها، استسلمت لها وتركتهما ترفعها عاليًا وتقذفها بقوة للخارج،
وسقطت، هل هذه هي النجاة؟!، السقوط لتتحطم!

شهقت عاليًا وهي تستقيظ في سريرها وصدرها يؤلمها للغاية، نعم
هو حلُم كما كانت متيقنة، إلا إنه ليس تمامًا، جزء البحر فقط هو
الحلم، أما ما سبقه، كان حقيقيًا!، عرفت ذلك عندما اصطدمت عيناها
بسقف الغرفة فعرفته على التو، إنها في غرفتها، وفوق سريرها، ولكن
ليس في شقة زوجها، لقد كانت في شقة عائلتها كما كانت قبل أن
تفارق الوعي، جلست مذعورة شاخصة البصر وهي تحتضن جسدها
بذراعيها في محاولة يائسة للاحتماء:

- وأخيراً التقينا يا صديقة !

صرخة احتبست بحلقها وهى تلتفت نحو مصدر الصوت، ورأتها !،
تطوف بخيلاء أمامها كأن مساحة الغرفة الشاغرة المتبقية قد تعبدت
مستحيلة إلى معراج خاص لها، ذات ملايس فضية لامعة حوافها
فضفاضة تطوف معها كأنها تُرفرف، همسة منفلة غير مصدقة تحركت بها
شفتها دون صوت، خرجت الحروف مجنونة بجنون اللحظة هاتفة :

— هالة !

لا تعلم ما مر من وقت وهى تحرق به هالة المبتسمة لها بجمال،
انعدم الزمن وتوقفت ساعات الكون، شعرت بأن الطيور هى الأخرى
توقفت فجأة عن الطيران، وسكنت حركة الحياة، وكأن عمرها يتوقف
على تلك النظرات المرتعبة التى تحولت إلى ذهول ربما يقتلع مقلتيها من
شدته، قبل أن يعود الدم لضخه بأوردتها من جديد وتصرخ رثيها طالبة
للهواء ومازالت شفيتها التى أصبحت قاحلة من شدة شحوبها تُتمتم بلا
توقف:

— هالة، أنا أحلم، لا، هذا كابوس أريد أن أستيقظ، أنا لست هنا،
كل هذا غير حقيقي!

تركتها هالة تهذي للحظات وهى تهب ثم تستقر أمامها واقفة بثقة،
ذراع مناسبة بجانبها والأخرى موضوعة فوق خصرها برشاقة، ذهب

الشحوب ومات المرض، نفس ملامحها التي تعرفها إلا أنها ساطعة وكأن أشعة الشروق البرتقالية هجرت سماء الكون لتشرق بجبهتها حصرياً !

- هلاًّ تهْدأين قليلاً لننحدث؟

صرخات هلع انطلقت ترج أركان الشقة بالكامل آتية من خارج الغرفة جعلت أحبال صوت رؤى تعود للعمل تلقائياً، وهى تردّها بصراخ مماثل وترفع كفيها لأذنيها مجدداً وتضغط مقلتيها بجفنيها بقوة الخوف، تعرف صوت من تصرخ بالخارج، تحفظه عن ظهر قلب، ومن بين الصراخ والألم شعرت بنسمة منعشة تُلْفها، تحمل عبر المسك وصوت هالة العذب كقيثارة ينساب إلى قلبها من خلال أذنيها برفق وهدوء:

- لا تخافي، أنا أحميك منها منذ وقت طويل، عندما رأتك اليوم جُنّ جنونها وكانت ستؤذيك، ولكني قمت بحبسها بالغرفة التي احترقت بها وهى لن تستطيع الخروج منها الآن، لا تخافي صراخها، إنها تُفزعك فقط لتنتقم منك !

كيف تخرج من كل هذا الجنون؟!، هل تُسأير الحلم حتى ينتهي وتستقيظ أم ماذا تفعل؟!، جميعهم أموات، فكيف تتحدث إلى واحدة بينما الأخرى تصرخ بالخارج؟!، سكت الصراخ فجأة لتتشقق جدران البيت من صياحها الذى بدى كصوت يتردد بين الجبال "أحرقني يا دميمة، قتلني"

هذه المرة شعرت بنسمات باردة تدور من حولها حتى عزلتها الرياح
الخفيفة عن العالم فلم تعد تستمع إلى الصراخ الآتي من خارج الغرفة،
وبرودة عذبة تحط كالفراشة على كفيها لترفعها بنعومة من فوق أذنيها،
فتحت عينيها ببطء مهيب، لترى هالة تسحب أصابعها بين أناملها برقة
وتنظر إلى عينيها مباشرة وتقول بترخم:

- اطمئي، أنا صديقتك، أحملك بروحي

قالت هالة كلمتها الأخيرة ثم ضحكت بمرح وهي تتابع حديثها ناثرة
خصلات شعرها يمنة ويسرة فتتساقط منها حبات اللؤلؤ:

- فعلياً لا أملك غيرها في الوقت الحالي !

أسرت حبات اللؤلؤ المتطايرة عيني رؤى رغباً عنها بمنظرها البديع،
مما جعلها تتناسى للحظة بأنها تتحدث إلى ميتة بالفعل وتمتت مأخوذة:

- أنا أستحق انتقامها، لقد، احرقتها !

ابتسمت هالة لعينيها فأضاءت شمسٌ أخرى من بين فكيها ورفعت
كتفيها قليلاً وكأن الأمر يبدو معقولاً وهي تقول:

- هي من كانت ترغب باللاحق بأبيك، أنتِ أسديتِ لها معروفاً
تستحقني عليه الشكر، لا الإنتقام

حاولت رؤى أن تحيد بعينها ولو قليلاً عن عيني هالة ولكنها لم تستطع، كانت مأسورةً كلياً بداخلهما، حتى أن كلمات هالة بدت لها منطقية جداً، فحركت رأسها موافقة ثم تسالت بانبهار:

- وكيف تستطيعين حمايتي منها ؟

تحركت هالة لتعود إلى حالة الطواف من جديد، كملكة ترعى حماها، تتفقد الرعية، تُهيمن بجيوش غير مرئية، اقتربت من رؤى من خلفها وهمست بأذنها:

- في عالمكم، الشرير هو المسيطر والحاكم، أما عالمنا نحن، فقواعده مختلفة تماماً

عادت رؤى تتوتر من جديد وتتلقت حولها بضياغ وصوتها يرتعش بحروفه:

- أخرجيني إذن من هنا، واعدك أن لا أعود ثانيةً

همست هالة بأذنها الأخرى:

- لم تسأليني حتى الآن ماذا أريد منك

وهل تريدین شيئاً ؟!، غاصت حواسها ترقباً بين أمواج همستها، ترى ماذا تريد منها؟، ظلل عقلها سحاباً رمادياً يكاد يهطل بخططٍ تُفكر بها للخروج مما هي فيه الآن، سواء كان حلمًا أو حقيقة، ولكن

همسةً أخرى من هالة صدمتها ورسمت لها حدودًا لواقع يفرض نفسه عليها فرضًا لن تستطع تعديها أو حتى الدوران من حولها:

- أريدك أن تُحييني !

همسة كافية لتجعل وعيها يندفع بها بعيدًا عن حاضرها ولكنها تمسكت به بغضب صائحة باختيار معترض وقد عادت عيناها تشخص مُجددًا ولكن هذه المرة بدأت تند بدموعٍ وفيرة:

- أنا لستُ إلهًا لأُحييك !!

كموجة هادئة تحمل طفلًا أوشك على الغرق إلى أحضان اليابسة الخضراء، واجهت هالة عيني رؤى وقالت بنغمة ساحرة:

- أحييني فوق أوراقك، أحييني بين سطورك، أخبرني الناس عني، ربما أنا مت بالفعل ولكن، مازالت الحياة بها هالة أخرى وأخرى تنتظر أن تُحييها بقلمك !

ترقرق الدمع مُحدّدًا رمادي عينيها الحائرة بسحر الكلمات وهي تتسائل:

- كيف؟!

- أعلمُ بأن الكتابة هي هوايتك، أكتبي عني، وأنا سأمدك بكل ما تحتاجين من تفاصيل ستجعله يُجنّ، أريده أن يقرأ، أن يشتعل ضميره اشتعالًا

تموجت الحيرة بين طيات وجهها وعلامة استفهام كبيرة ظهرت بعينها فتابعت هالة مُجيبة عن سؤال صامت:

- هشام، وأيّاً كانت الطريقة التي ستُخبرني بها الناس عني، فسوف أضعها أمامه، وبين عينيه، سأرغمه بأن يقرأ

ولماذا تفعل؟! وما شأنها هي!، بقوة حركت رأسها رفضاً والتمرد يزحف رويداً رويداً بداخل عينيها، تمرد ظهر بوضوح في تشنج شفقيها وتوتر جسدها، ولكنها كانت مُحطّنة، على الأقل في تلك اللحظة، لقد عايشَت هالة المريضة الشاحبة، وسُحرتُ بهالة الكيان المرمري، أما الآن، فلقد وضعت نفسها وجهًا لوجه أمام هالة القاسية قليلاً!، قتلت هالة المساحة التي كانت تفصل بينهما وسحبت كل تركيزها في عمق الجُاج عينيها التي صارت تتوعد بقسوة وهي تقول بنبرة لها حرارة تلسع كعود ثقاب انطفئ وهجه للتو ورحل معه أريج حضورها:

- ستفعلين، وإلا !

انحنى نحوها وهي تضع الطفل أمامها على مقعده المُخصص له وتُطعمه وتناغيه، قبل أعلى رأسها وهو يقول مداعبًا:

- وأنا أين عشائي يا زيتونة !

رفعت وجهها إليه وهي تُضيق عينيها باستهجان مرح هاتفة:

- اعتقني لوجه الله، كف عن منادائي بهذا الاسم

عاد رأسه إلى الوراء ضاحكاً بينما هي تحمل مقعد الطفل من فوق الطاولة وتضعه على الأرض خشية سقوطه ونهضت تواجه ضحكاته التي يستفزها بما دوماً، دفعت من كتفه بغيظ صائحة:

- توقف عن إغاطتي يا عادل، أنا لستُ بزيتونة !

حاول التماسك بأن يوقف ضحكاته ويهدئ صخبها قليلاً وهو يضع كفيه فوق صدره إشارة لطلب صفحها، وضعت يديها بخصرها بتأفف متبرمة حتى سكت تماماً ثم أدارها إليه وأمسك وجهها بين كفيه في طريقه إلى الاعتذار، رفع حاجبيه وهو يقول بجدية أغاظتها أكثر:

- آسف حبيبتي، أنتِ لستِ زيتونة، بل أنتِ طبق من القشدة

ابتسمت رغماً عنها رافعة حاجب واحد بثقة ولكنها لم تتنازل عن التبرم العالق بشفتيها فكانت النتيجة النهائية شفاه معقوفة للأسفل قليلاً، ولكن عادل دمر أسفه مردفاً:

- طبق من القشدة سقطت فيه زيتونتان وشريحتين مكتنزتين من الطماطم الطازجة

غطت وجهها بكفيها وهي تحركه بيأس منه، هذا هو عادل، حبه مشاكسه، شغفه إغاطه، ولكن عندما يلحظ حزناً ما بعينيهما يتحول إلى عاشق متفهم لا يشق له غبار، إلا أنه يجدها في هذه اللحظة في مزاج

جيد للمزاح بالإضافة إلى أنه جائع، فلم لا؟!، أمسك بكفيها ليحرر وجهها وقبلهما مُدعياً الاعتذار، وقبل أن يتابع بمشاغبة أخرى سقطت نظراته على المقعد الوثير خلفها، منذ أسبوع تقريباً وهناك كتاباً للحكايات لا يُفارق يديها، تصحبه معها أينما جلست، فقال بعد أن مط شفتيه ورفع حاجبيه متسائلاً:

- يا ترى ما السبب المفاجيء لشغفك بالكتب هذه الأيام؟!

أرتبكت قليلاً وكأنها لم تتوقع أن يُلاحظ وتنحنحت باحثة عن إجابة منطقية لثوانٍ قبل أن تجيبه بعينين زائغتين:

- وهل لديك مانع؟

تنفس بعمق ثم قبل جبينها بعينين شاردتين، يشعر بأن دواخلها غير سعيدة بغيابه طوال اليوم في عمله، تشعر بالملل لذلك مزاجها متقلب بين يومٍ وآخر، لا يستطيع أن ينسى مظهرها وشكلها منذ أيام حين دخل المنزل فوجدها شاحبة تبكي بهستريا، تشبثت به حين رآته، كانت والدته قد هاتفته وأخبرته بأن رؤى مرت بها وتركت الطفل لديها متعلقة بالتسوق ولم تعد إلا بعد غروب الشمس بهيئة تشبه شخص دُفن بالخطأ وهو على قيد الحياة، وعندما استيقظ وجد نفسه محاصر بين جثث الموتى، ظن أن والدته تبالغ ولكن عندما دخل شقته ورآها هكذا، توقع أن الأمر جلل بحق، ليلتها أخبرته بأنها فقدت وعيها في المتجر الكبير ولم تكن تحمل هويتها فلم يتعرف الناس عليها ولم يأخذوها إلى أي مشفى

وظلوا يحاولون إفاقتها لوقت طويل، وعندما استفاقت بقيت مع عاملة المتجر بقية اليوم حتى استطاعت التوازن من جديد ثم عادت لتأخذ الطفل من والدته لذلك كانت حالتها مزرية !.

بداخله شيء ما يجاهد لتصديق قصتها تلك وبالأخص لأنها حامل في الشهر الأول من حملها ففقدناها توازنها أمر منطقي، ولكنه لم يكن مستريحاً أبداً ولا يعلم لماذا!، وفي اليوم التالي وجدها تعبث بمكتبته الكبيرة وتصنع لنفسها ركنًا خاصًا بكتبها ودفاترها، كانت في نظره خطوة جيدة للميء وقت فراغها بشيء مفيد كالقراءة، ولكن هذا لا يكفي، لابد وأن تتواصل مع صديقة أو أكثر لتكسر شرنقتها هذه، ومن يستحق الصداقة والتواصل سوى شخص تتشابهك طرُقنا بطرقه بشكل أو بآخر، ومن غير زوجة هشام تعاني من نفس الوحدة التي تعاني منها رؤى، لا بل أكثر، ما قصه هشام عليه اليوم عن زوجته فطر قلبه على صديقه، أغمض عينيه وضم رؤى إلى صدره وكلمات هشام الحائرة تضرب ذاكرته من جديد:

- أسبوع كامل تتحاشاني يا عادل، تقول بأن لمساتي العابرة لها تلسع جلدها بل تنغزها كالأشواك، أسمع صوت أنينها وهي نائمة وكأنها تعاني وتحارب ثم تستيقظ صارخة، سأجن يا عادل .

خرج من بئر ذكرياته رغبًا عنه عندما شعر برؤى تُربت على خده بقوة هاتفة:

- هيبه، أنت، أين رحلت بأفكارك

نفذ غبار الشroud عن حاضره وتكلم بجديده لم تعتدها منه إلا نادراً
يشوب نراته القلق وقال مُمسكاً بمرفقيها بتودد:

- حبيبي، ما رأيك لو توطدين علاقتك بزوجة هشام، إنها تعاني من
الوحدة وتحتاج لرفقة

تُعاني؟!، هل هذه رجفة التي شعر بها عادل تسري بجسدها؟!، تمن
في وجهها الذي تشنج وعضلة خدها التي ارتعشت وهي تقول بتلعثم
مختلطاً بضيق خفي:

- وكيف عرفت؟

تملكته الحيرة وهو يتأمل عينيها المنكسرة للأسفل للحظات ثم قال
بهدوء وهو يرفع رأسه لأعلى بشroud:

- ضغطت على هشام اليوم ليخرج ما في صدره، فحالته لا تُعجبني
منذ عدة أيام

- يستحق !

أخفض وجهه إليها وكأن كلمتها الهامسة ضربت معدته فجأة
بقسوة، زمت رؤى شفيتها وهي تشتم نفسها بداخلها على عدم
تحكمها بمشاعرها فانفلتت شفتها ببعض مما يحمله قلبها بتسرع، لم

تستطع أن تواجه عينيه المتسائلة بدهشة فأشاحت بوجهها بعيداً
وهربت من بين ذراعيه نحو المطبخ بخطوات عصبية وهي تُتمتم بضيق:

– ساعد لك العشاء !

تصلب جسده مكانه وهو يرقب حركتها النزقة المرتبكة وصوت
بكاء ضعيف لطفله قد بدأ يعلو بجانبه، انحنى يحمل الطفل وعينه لا
تفارق الباب الذى اختفت خلفه منذ لحظات، جبينه منعقد وقد بدأت
أفكار غريبة تغزو عقله عن تلك المشاعر التي لم يشعر بها يوماً في قلب
زوجته تجاه هشام، ترى هل مازالت تحمل في نفسها ذكرى رفضه لها في
السابق؟، لقد نسي هو شخصياً هذا الأمر، حتى أنه لم يناقشه معها
أبدًا، وعندما سألته في بداية تعارفهما من الذى دله عليها ولماذا اختارها
هى بالذات؟، اضطر أن يخترع لها قصة وهمية حتى لا يجرح مشاعرها
أكثر وقد أعجبته للغاية، فلماذا تطفوا تلك المشاعر السلبية الآن؟!

وقالت لي

تفحص الكاتب الصحفي عبدالحالق مروان المظروف بين يديه مندهشاً، ثم بدأ في فتحه وفض الأوراق منه وقراءة ما بين سطورها بفضول، حينها عَلمَ بأنه أمام حالة فريدة من نوعها تحتاج إلى تأمل عميق وصبر طويل لفك أحجيتها وألغازها قبل الحكم عليها، وقد تيقن من ذلك عندما وصلت عيناه لآخر سطور مقدمة الأوراق وقد كتبت له الرسالة فيها :

- "وسأظل أرسل لك تفاصيل زياراتها لي في شقي المهجورة، وفي كل ظرف سأرسله لك ستجد عليه عنواناً يتوسطه من الخارج وهو نفس العنوان الذى كتبه على الظرف الذى بين يديك الآن "وقالت لي " .

لا أريد منك تصديقي، أريد فقط أن تنشر شكواها، لعل روحها تهدأ قليلاً وينقطع شبحها عن زيارتي !.

لأول مرة يقف أمام رسالة كهذه، لقد اعتاد قراءة حكايات من سراديب الحياة المظلمة، بكل زواياها المهجورة، إلا أنها كانت جميعاً في النهاية شكايا وتجارب أحياء!، لم يتخيل أن يأتي يوماً يفرد مساحة في

بابه، لميثة!، بالتأكيد سيتهمه الجميع بالجنون، أو على أقل تقدير بصناعة ضجة إعلامية وهمية لبابه الأسوعي تنعكس على مبيعات المجلة التي يُشرف على أشهر باب بها " بين الناس " !.

سقط الظرف من بين يديه وهو يرفع وجهه القمحي البشرة بإجهاد مشوب بالحيرة ويستند بظهره للخلف مُلقياً بثقل جسده على ظهر المقعد الضخم خلف المكتب الخشبي الكبير والمُمتلئ سطحة بالأوراق والخطابات عن آخره والمستدير نصف استدارة من حوله، يواجهه مقعدان مُتقابلان من الجلد البني الفاتح وبينهما طاولة زجاجية مستديرة صغيرة، دار بالمقعد دورة كاملة فمرت عيناه على الجدران المطلية بالأزرق المتداخل مع الأبيض بانسجام يساعده على التركيز، دائماً ما يرفض تعلبِق اللوحات على الحوائط، يُفضلها هكذا خالية من أي إطار سوى من مكتبة مستطيلة في زاوية منها ضمت بعض الكتب المتنوعة التي يفضل قراءتها بين حين وآخر أثناء عمله، خلف مقعده نافذة موصودة في الجدار مُطعمة بزجاج سميك يفصله عن العالم الخارجي، نصف دورة إضافية لتُكمل عيناه رحلتها إلى اليسار فانعكست صورته على المرآة الطويلة الملتصقة بالجدار، أصبحت الآن أمامه مباشرة، توقف المقعد عن الحركة، لقد نال الإجهاد من روحه قبل جسده وعقله، انسحبت نظراته نحو خصلاته البيضاء على جانبي رأسه فمرر كفيه فوقهما وهو يشرد كلياً فيما قرأ منذ دقائق، تلك الرسالة التي سجنته بين سطورها من بين مائة وخمسين رسالة أخرى!، وأبت أن تحرره منها

حتى الآن، ثقافته الواسعة وطريقة تفكيره الواقعية يرفضان التصديق، ولكن حسه الأدبي والعاطفي وقبلهما حاسته الصحفية يدفعونه بشدة لنشر شكواها، حتى وإن نوه في بدايتها عن رفض عقله لها، يرى بها دروساً وعبراً أكثر من مجرد مسألة، فلربما تكون سبباً في انقشاع الضباب عن عيني أحدهم قبل فوات الأوان، ففي النهاية هي تجربة بشرية، وأخيراً وبعد معارك داخلية طاحنة كان قد أمسك بالقلم بعد أن حسم قراره وبدأ يكتب بتمهل :

- يقول أحد علماء النفس أن الصمت هو أشد مراحل الإنفعال، وأن أكثر اللحظات التي لانجد فيها ما نقوله من كلمات هي اللحظات التي يصل انفعالنا فيها إلى الذروة فنصمت!، هذا ما حدث لي أعزائي القراء وأنا أبجر بين سطور هذه الرسالة والتي من الواضح حسب حديث كاتببتها أنها ستكون سلسلة من الرسائل، لن أطيل عليكم فأنا أعلم أن تلك المقدمة قد بلغت من فضولكم المنتهى. سأضع الرسالة كما هي، كما كتبت ولكن، فقط سأحذف منها ما يمس أخلاقياتنا وديننا الحنيف من وجهة نظري ولكنني لن أمحو ما هو متناقض مع عقلي وثقافتني، وسأترك لكم الحكم في النهاية منتظراً تفاعلكم معها كما اعتدت منكم، المشاركة الوجدانية التي أصبحت علامة مميزة لصفحتنا هذه عن طريق بريد المجلة الإلكتروني .

للمرة الأولى لن أعنون الرسالة بما يليق بما فلقد أصرت صاحبها أن يكون عنوانها " وقالت لي "، والآن سأترك لكم الإبحار في لجأها كما حدث لي قبلكم .

وقالت لي !، من يريد " بين الناس "

أقرأ بابك دائماً وأراسلك وأعلم بأنه لا معنى لذكر مكان تواجدي الآن، ولكنها حالة مختلفة واختلافها باختلاف أبطالها ومكان كتابتها، أما عن المكان فأنا بين جدران غرفة موصودة في شقة مهجورة، ينتظرني خارجها كابوس أسود لينتقم مني شر انتقام على الفرصة التي منحها له، وأما عن أبطال القصة فتجلس أمامي الآن بطلتها الرئيسية والتي توفاهها الله منذ شهور !.

مزق الآن خطاي أو احرقه، إلعي كما تشاء، ولكن لا تُكذِّبني، هي الآن معي وجها لوجه ولا أعرف كيف، تعجب واندعش كما تشاء، ولكن صدقي، الكاذب دوماً تكون له مصلحة من وراء كذبتة، أما أنا فلا أريد سوى الخروج من هنا فقط!، فهي وبرغم طيبتها إلا أنها حين تغضب تكون مختلفة، هددتني إن لم تصل قصتها إلى الناس فستستحيل حياتي إلى جحيم دُنْيوي، وكل ذنبي أنني كنت صديقة عابرة في أواخر حياتها القصيرة .

ولسبب آخر اعتقد بأنه وجيه جداً، إنها تُريد أن تُملي علي بعض الأحداث التي لا يعلم عنها أحد شيئاً سواها هي وزوجها السابق فقط،

لذا فأنا الآن في حضرتها وبين يديها وأمام عينيها المُبتسمة بانتشاء وانتصار لم أر مثله من قبل، سأمرز لأسمها بحرف " هاء "، لن أبذل جهداً أكبر في ترميز اسم زوجها لأنه هو أيضاً يبدأ بنفس الحرف لذلك سأستعمل آخر حروفه وهي " ميم "، حتى يتيسر لي الحديث عنهما كما أرادت، أما زوجته الثانية التي تزوجها بعد وفاة " هاء " فسأمرز لها بحرف " جيم "، والآن إليك قصتها .

كالعادة استيقظت صارخة، وكالعادة انتفض من نومه فرعاً يتلفت حوله حتى يستطيع تمييز أنه في غرفة نومه وعلى فراشه وجدائل تشبث به، زفر بقوة وهو يريت على ظهرها مُمسداً لشعرها وهو يستغفر وقد بات الأمر غير محتمل، مازالت ترفض أن تُفص عليه كوابيسها وكأنها تخشى البوح، وبروتينية مد يده ملتقطاً هاتفه لتصحح آيات سورة البقرة في المكان، فتهدأ وترتخي عضلاتها المتشنجة ثم تنام على ساعده غارقة في عرق جبينها ومنابت شعرها وهو يسمح عنها العرق بيده الأخرى ورغماً عنه دواخله ترتجف وكأنه يستشعر رعبها ولكن يخشى الإعراف، سينتظر حتى تعود والدته لتتصرف، لقد سأم حديث عادل عن ضرورة التقرب إلى الله ليزيح عنهما ما هم فيه، إنه يصلى فروضه وهي كذلك، فماذا يفعلان أكثر من هذا؟!، صحيح أنه يؤخر الفروض وأحياناً يجمعها عندما يعود للمنزل آخر اليوم، ولكنه يؤديها في النهاية!، لقد

أخذ بنصيحته ويقوم بتشغيل آيات سورة البقرة في المنزل يوميًا ولم يحدث أي تطور، صحيح أنه لا يستمع إلى آية واحدة منها بتركيز بل ويعود للنوم في بدايتها، مصحفه يعلوه الغبار عن آخره من هجره لما بين دفتيه ولكن هذه قدرته، والله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها !.

علت زفراته مجددًا دون إرادة منه وهو يُحاول العودة للنوم من جديد بعد أن أقنع نفسه بتلك الأفكار، ولكن هزيم الريح الشديد في الخارج يثير خيالاته المتأصلة بعقله منذ الصغر عندما كانت والدته - ساعها الله - تقول له أن هذا صوت العفريت في الخارج إن لم ينم باكراً فسوف يدخل إليه!، ورغم اهتزازه الداخلي إلا أنه لم يستطع منع ابتسامه طافت بين شفتيه لبرهة وهو يسخر بداخله من هذه الذكرى:

- ولم أسأل نفسي يوماً عن مصلحة العفريت في جعلني أنام باكراً كل ليلة؟!!

التفت نحوها فوجد أنفاسها وقد انتظمت وراحت في سُبَات عميق، فسحب ذراعاه من أسفل رأسها ببطء، خفض من بين ركام الأغصان الثقيلة على مهل، ومشى على أطراف أصابعه حتى خرج من الغرفة دون أن يحدث جلبة، توجه إلى الثلاجة مباشرة فتحها والتقط منها ثمرة يوسفى وأخذ يزيل قشرتها الخارجية وهو يتوجه نحو غرفة بناته، فتحها بهدوء وألقى عليهما نظرة اطمئنان، ابتسم لرؤيتهما بتلقائية ولكن ابتسامته تلاشت على الفور عندما سقط شيء ما في الشقة الكائنة في

الطابق العلوي مما جعل صوت الارتطام يبدو وكأنه في شقته هو، استوعب ذلك مؤخرًا بعد أن بُحِثت ملامحه عند سماعه للصوت وقفز قلبه بين قدميه لثوان، مما جعله يحنق على نفسه وعلى استعداده الدائم للذعر هكذا، أغلق الباب عليهما وجر قدميه نحو الردهة، مر بين المقاعد المُرِيحة حتى التف جالسًا على مقعده المفضل أمام الطاولة، هوى جسده بحنق وهو يستنشق بقوة ويزفر ببطء ليهداً، نظر نحو كفه وقد تذكر للتو بأنه مازال مُحْتَفِظًا بالثمرة وقشرتها معًا في يدٍ واحدة، ولكن هيهات لقد ذهبت شهيته أدراج الرياح وانتهى الأمر.

مال للأمام ليضع ما بيده على الطاولة باستياء فلفتت نظره مجلة، عجبًا!، لا يذكر أنه اشتراها سابقًا، تناولها يقبلها بين يديه بلا حماس حقيقي، ضيق عينيه حتى تغضنت زواياها عندما وقعت نظراته على أحد أوراق المجلة مطوية من الداخل على شكل سهم غير متساوي بغير عناية، مر أصابعه بين أطراف الورقة ليعيدها كما كانت وقد أخذه الفضول قليلًا، " وقالت لي " سقطت نظراته على العنوان الأحمر اللون بسخاء، مما جذب انتباهه لأول السطور، وعندها تتم مندهشًا متسع العينين:

— امرأة ميتة تحكي قصتها، هاء، ميم، جيم!!

ارتحلت عيناه بين كل سطر وآخر، كلما ترك واحد قفز فوق الآخر سريعًا كسرعة أنفاسه وحركة صدره مُحملاً بها، وجهه يزداد احتقانًا بالدم

والكلمات تخطف الهواء من حوله وتحبسها عن رئتيه :

" لم يكن شغوفاً بي منذ البداية " ، أنا التي صرحت بمشاعري أولاً ،
عبدتُ له الطريق فصرتُ وكأنني أدفعه دفعاً لمشوار الزواج ، عندما
رفضته عائلتي في البداية لتفاوت المستويات الإجتماعية بيننا ، حرمت
نفسي من أن أرى الرجل الذي اخترته ينافح عن حبه ، يقاتل لأجلنا ،
فجنيته كل هذا وجعلته يتنحى جانباً ووقفت أنا بوجههم حتى رضخوا
في النهاية وهم يتعجبون من خلو ساحة المعركة منه! ، وبعد الزفاف بأقل
من شهر ، أنا التي كنت أخترع القصص ليظل متيقظاً بجوارى بعد دخولنا
للغراش ، ولكن كسر خاطري أصبح عادة لديه ، بل زاد الأمر سوءاً مع
مرور الوقت وهو يضمن عليّ بكلمة غزل أو مدح لمظهر قضيت في
الإعتناء به وقتاً طويلاً لأجله وحده ، فقط يبتسم ويقول كلمة واحدة "
جميل " ثم يُدير وجهه ليتابع المعروض أمامه على شاشة التلفاز ، ماذا
أقول ، لولا ثقتي بنفسي وبدرجة الجمال التي منحها الله لي لكنت
اقتنعت بأنني دميمة

عندما بدأت مشاكلني ومعاركي الداخلية تدب بيني وبين والدته ،
تركيني هو أواجه تدخلها في حياتنا الخاصة وحدي ، وعُدت لمحاربة المُتبقي
من عائلتي لأحصل على نصيبي لميراثي من والداي في شقة العائلة ، ولقد
كان مبلغاً زهيداً من المال ، قذفوه في وجهي ، ونبذوني من يومها ، وبذلك
المال القليل سعت لتأجير شقة أخرى لنفصل ولو بعض الشيء عن

والدته ووفرنا بعض الأثاث البسيط وقد كان هذا منتهى أمني من الدنيا، حياة خاصة بعيداً عن المشاكل، وظل الحال على ما هو عليه من هجر قلبه لي حتى تبيست أنوثتي، وأصبحت عدائية معه، نتعارك لأتفه الأسباب.

نعم أعترف، عزوفه عني لافوات طويلة سبب مباشر في اختلاقي للمشاكل، وقد شعرت بالنبذ، هل تتصور كيف يكون النبذ من أول رجل أحببته بحياتي؟!، لم أحب قبله، ولم أعرف رجلاً غيره، فهل يلومني أحد الآن عندما أقول أن الغيرة اشتعلت بقلبي عندما رأيت كيف يتعامل مع زوجته الجديدة " جيم " الذي تزوجها بعد وفاي، هل يستطيع أن يكرهني عندما يعلم بأنني السبب المباشر في الجحيم التي تعيشه هي الآن، لقد كنت أتصور أنه سيعاملها كما كان يتعامل معي، ولكنني نظرتُ إليه، فوجدته شغوفاً بها، حريصاً على إرضائها، عيناه تلمع دوماً وهو يتأملها، يبحث عنها، أنامله تجد طريقها سريعاً إلى أناملها، أينما جلست ينتقل فوراً بجوارها، يحتضن خصرها، لا يرضى بطفلةٍ تفصل بينهما في الفراش، بل لا يستطيع النوم إلا وهو يلمسها بشوق جارف كما لم يفعل معي يوماً وأنا حية .

أردتُ أن أسأله هامسةً بأذنه، لماذا؟، ولكنني تراجعْتُ في اللحظة الأخيرة، خفت أن يرتعب فيُفزع الطفلتين، فهو يخاف إلى درجة مُضحكة!، حاولتُ أن أبحث عن الإجابة في عينيه، وفعلاً عثرتُ عليها

وهو ينظر لها ببريقٍ لم يتوهج يوماً لأجلي، فأدركتُ الفارق حينها، لقد أحبها، هكذا ببساطة، أحبها !.

فانزويت بجيبة في أحد الأركان فوق الستائر المعلقة بعد أن هدمت عش العناكب به، العناكب التي تشعر بي أكثر منه ! .

إلى هذه النقطة توقفت " هاء " عن الحديث سيدي ووجهها متألم للغاية ونظرت نحوى بنزيف من الدمعات اللؤلؤية وقالت لي:

- أتعلمين صديقتي؟، أنا لستُ ميتةً فقط، بل فاشلة أيضاً، صحيح؟!

وقبل أن أجيبها سيدي علا الصراخ في الخارج من جديد، وكأن دمعاتها أضعفتها للغاية فأصبحت غير قادرة على حمايتي، سبحت الغرفة في ظلام سرمدي، وسمعت صوت والدي تصرخ بنبرة جحيمية وكأنها أمامي وجهًا لوجه:

- تعالي إلى غرفة والدك حالاً يا قاتلتنا، فهو يُريدك بشدة !

نظرتُ إلى " هاء " فوجدتها تن وتئن والألم يرسم بريشته الحزينة فوق ملامحها، أخذتُ تضعف وتذبل كالوردة المدهوسة للتو، وكأنها أصبحت بقايا متناثرة، وقتها اتخذت قراري بالخروج من الغرفة، سأذهب إلى أي بالرغم من علمي بأنه سيوبخني لتقاعسي عن حضور جنازته !!.

انتظر رسالتي القادمة، وللحديث بقية .

وكعادة عبد الخالق مروان لا بد وأن يُعلق بشيء من النصيح والحكمة في نهاية كل رسالة، إلا أن هذه الرسالة بشكل خاص لم يستطيع أن يكتب إلا عبارة واحدة فقط تعقيباً عليها :

" النفوس الطاهرة هي التي اختبرت الألم، ثم اختارت أن تُجنب الآخرين مرارته، مُنتظرة نصيبها العادل من السعادة سواءً في الدنيا أو الآخرة " .

وماذا ينتُج عن الصدمة الممزوجة بالخوف والرغبة، والمغلقة بتأنيب قاتل للضمير سوى قدر يغلي بالإنفعالات المضطردة الفائرة فوق وجدانه وعقله، هذا المزيج القابل للإشتعال ينفث في صدره، تُسحق المجلة الآن ببطء ودون إرادة بين كفيه بينما عيناه تتسعان عن آخرهما، عالقتان بتيه شديد وذهنه حبيس السطور التي قرأها للتو، إنها كلمات وتعبيرات هالة، هو يعرفها، أحداث خاصة لم يطلع عليها أحد سواهما، نسبة الشك في غير ذلك صفر، إذن هي تراقبه، تحقد عليه، تريد تدميره وزوجته، أعلنت حربها وليس لديها ما تخسره، بعد أن خسرت .. كلها! .

نفض رأسه بعنف وهو يتنفس لاهثاً ونقطة ما بزاية مُظلمة بعقله تتهمه بالجنون، وتسأله بتحدٍ، هل ستصدق هذا الهراء حقاً؟! .

درجة الغليان وصلت لقمتهما عندها تأججت جميع ردود فعله
فنهض من مقعده وهو يرفع رأسه للأعلى نحو السقف تحديداً، ثم تحيد
نظراته التي قاربت الجنون نحو الستائر، ثم قمة الستائر كمن يبحث
عنها، توقفت عيناه عند هذه النقطة وقد أوشكا حاجباه على الالتصاق
ببعضهما البعض من شدة التضييق بينهما، بينما مقلتيه تهتران بانفعال
سافر، ملامحه النهائية كانت أشبه بمجرم مُقدم على ارتكاب جريمة ما،
رفع المجلة للأعلى وهو يهتف ضاغطاً أسنانه بقوة رغمًا عنه:

– نعم، نعم يا هالة أحببتها، أحببتها أكثر مما فعلت معك

أنزل يديه للأسفل ثم فتحهما عن مصرعهما كمن يستعد لتلقى
طعنة قادمة نحوه وهو يُعيد هتافه وقد خرج عن السيطرة وأخذ جسده
يدور حول نفسه في المكان ذاته:

– ماذا ستفعلين بنا، هيا أريني جحيمك

لم يصل هتافه إلى أحد، بل وكأنه تم عزله تمامًا عن العالم، خرج من
دائرة وجوده، شعر بأن سور قد ضُرب حوله، ظُلْمة ما قُضت عليه،
ظُلْمة وظلم كـ يوسف آخر أُلقي به في بئرٍ بيد أخوته، وتسلق الهم
أشجاره الهزيلة، إنهار على ركبتيه ومازالت المجلة جزء من كفه وعينييه قد
احتقنتا بالدم وهو يرنح تحت ثقل ندم وذنب يسويانه بالأرض، وصار
يهمس بخفوت وقد تَعَبَ .. تَعَبَ حقًا ويريد أن يستريح:

- كنتِ قوية، أقوى من أن تُشعِريني بحاجتك لي، أقوى من أن تحكي معاناتك أمامي، وأنا كنت أغبي من أن أفهم كبريائك، فُهمت مؤخرًا، عندما قرأت وصيتك لي، فُهمت بأن ابتسامة السخرية التي كانت عالقة دائمًا فوق شفيتك كانت تُخفي مرارة وضعفًا أكبر مما يجب أن تتحمله وحدك، أما هي، جدائل، جمعت ضعفها بين كفيها وقدمته لي ببساطة هامسة " أحتاجك "، ضربتني همستها في قلب رجولي، جعلتني أستنهض معانٍ كثيرة بداخلي جعلتني أحوم حولها أنافح عنها ضد كل شيء، وأي شيء يجرحها، هنا فقط اكتشفت نفسي، وفُهمت معنى الكلمات التي كنتِ تردديها يومًا ما عندما كنتِ تقولين " لن أستطيع أن أفهمك، أنت ستفهم وحدك، ولكن مع امرأة أخرى غيري " ، والآن وقد فُهمت، فماذا تريد يا هالة، ماذا تريد؟!

- لماذا لم تُخبرني كل هذه المدة يا هشام؟!
دفن رأسه بين يديه وهو يركز على فخذه مُجيبها بخفوت:
- كل هذا حدث وأنتِ تؤدين مناسك العمرة يا أمي
ربتت على قدمه وهي تتساءل بخنان:
- وكيف حال زوجتك الآن؟

زفر حانقًا دون أن يرفع رأسه قائلاً:

- كما هي، كوايبس مفزعة ليلًا، وانزواءً بعيدًا عني وشروء في
ملكوتها الخاص نهارًا، تعيش عذابًا مستمرًا

استندت بكفيها إلى عكاظها بتفكير عميق لِلحظات قبل أن ترفع
حاجبها بتحضر وهي تُغمغم وتومىء برأسها بثقة:

- لا تحمل هم يا بُني، أنا كفيلة به

لم يشأ أن يُطلعها على أمر المجلة والرسالة التي كُتبت بها، بالرغم من
حنقه الشديد الذي تملك منه بمجرد أن أخبرته جداول في الصباح أن
رؤى كانت تزورها في اليوم السابق، وهكذا استطاع الربط بين وجود
المجلة في البيت وزيارة رؤى الغربية، كان يريد فضح أمرها عند والدته
مؤكدًا لها سوء اختيارها السابق لها كزوجة له، ولكنه لم يفعل، لم يقل
شيئًا، خاف أن تطلب منه قراءتها أو تقع بالكلام أمام جداول وتذكرها،
فلقد تأكد لديه بأن جداول لم تفتحها من الأساس بل وتفاجأت
بوجودها، إلا أن هناك سببًا آخر أقوى منه في اللحظة الأخيرة، مازال
يريد الاحتفاظ بماء وجهه أمامها، فوالدته حتى هذه اللحظة لا تعلم
كيف ظهر فجأة المال الذي سهل لهم عملية الانتقال إلى شقة أخرى،
أقصى ماقالته هالة لها وقتها أن هشام طلب سلفة من عمله، تفرق
الدمع في عينيه وهو يتذكر كيف وقفت والدته تونجها ظنًا منها أن هالة
هي التي ضغطت عليه ليطلب تلك السلفة المزعومة، وعندما تحرك

ليُوقف والدته نظرت له هالة نظرة معناها أن " لا صير، اتركها "، فتوقف على الفور وكأنه كان ينتظر تلك النظرة، وكأنها لا تُهان أمامه في تلك اللحظة بسببه، أراد أن يحتفظ بكرامته أمام والدته ولو حتى على حساب كرامتها !.

أخرجه من شروده رنين جرس باب الشقة فهض بثقل ليجيب نداء من خلفه، بمجرد أن فتح الباب انهل عليه سيل من الدعوات قد كان يتوقعها في هذا اليوم بالذات، فهذا هو مواعدها الأسبوعي !.

ابتسم لها ابتسامة مصطنعة ثم التفت إلى والدته منادياً:

— إنها عنبر يا أمي

عاد يبتسم مرة أخرى ولكن هذه المرة ابتسامة حقيقية وهو يقارن اسمها بجبئتها الضخمة البنية، وهي تتباهى ببنيته هذه أمام الجميع وخصيصاً بأنها تقتزن بصحة وفيرة، تلك الصحة التي تأكل عيش من وراءها كما تقول، فهي المتخصصة الوحيدة في المنطقة والمسؤولة عن تنظيف ومسح سلام العمارات وشققها أيضاً لو تطلب الأمر، وهي التي فتحت شقة هشام ونظفتها قبل عرسه، ولم تنسَ وقتها أن تُلقي النصائح على مسامع والدته هشام بأن الشقة مُغلقة منذ شهور وربما تكون مسكونة الآن، فلماذا لا يلجأون إلى شيخٍ واصل ليُحصنها، كالشيخ عبد الفتاح، فاتح الأبواب الموصودة وقاهر الجن والأشباح !،

في ذاك الوقت لم تلتفت والدته هشام كثيراً لثروتها ولكن الآن هي تحتاجها بشدة، نهضت من مقعدها وتوجهت نحو الباب بظهر منحني قليلاً هاتفةً:

- انتظري يا عنبر أريدك في أمر هام

وقف هشام مكانه عند الباب منتظراً أن يبدأ في رحلة حمل الماء اللازم إليها ولكنه فوجئ عندما سألتها والدته وهي تضيق عينيها بجدية وتركيز:

- أين هو مكان الشيخ عبد الفتاح هذا يا عنبر

زفر هشام بقوة وتوجه للداخل تاركاً مكانه خائياً وقد بدأ يعرف ما هي الخطوات التي ستبعتها والدته لحل مشكلة زوجته، بينما لمعت عيني عنبر وهي تُجيب بحماس زائد:

- ألم أقل لك يا خالة، على كل حال الشيخ يراعي مسألة التكتّم على الناس المحترمة أمثالكم لذلك هو من سيحضر إليكم

أومات والدته هشام برضا وهي تُتمتم موافقة:

- هذا ما كنت سأطلبه خصوصاً وأن الشقة تحتاج إلى زيارة منه

بمجرد أن أغلقت باب الشقة سمعت هشام يقول من خلفها بضجر

ونفور شديدين:

- أمى أنا لا أحب تعريض جدائل لتلك المواقف من فضلك

- ولا أنا يا ولدي، ولكن ما باليد حيلة

ظل يذرع ردهة الشقة جيئةً وذهابًا وعقله يرفض الفكرة تمامًا،
بالرغم من أنه لا يعرف ماذا سيفعل هذا المدعو عبد الفتاح ولكنه
يخشى عليها، توقف فجأة والتفت إلى والدته التي كانت شاردة بعيداً
غارقةً في أفكارها وقد فاض به الكيل:

- أمى أنا غير متحمس أبداً لهذا الحل

تمت والدته وعيناها مازالت شاردة في النافذة أمامها مباشرة:

- لا تخف عليها أنا سأصرف وأقنعها بضرورته

خرج هشام من بيت والدته بحركات عصبية ينطق بها جسده،
هابطاً درجات السلم بسرعة كبيرة وهو يضع الهاتف على أذنه ويقول
متوتراً:

- عادل قابلني بعد ساعة في مكاننا المعتاد، أحتاج التحدث معك

بشدة

جلس عادل فوق الأريكة الخشبية وهو يضع ساقاً فوق الأخرى
وذراعيه ممتدتان على ظهر الأريكة من خلفه وينظر بتفكير إلى ظهر

هشام الذى يقف أمامه مواجه لمياة النيل، وكفيه غارقين فى جيبى سرواله وبرودة الجو فى هذا التوقيت من العام تجعل من لقاءهما فى هذا المكان فى غاية الحمق، ولكنه ليس بأقل من الحق الذى تملك من هشام وهو يواجه عادل عند بداية اللقاء و يرمي بوجهه اتهامه لزوجته رؤى بأنها سبباً مباشراً فى الحالة التى وصلت إليها جدائل وخصيصاً بعد زيارتها لها أول أمس .

كادت أن تقوم بينهما مشاجرة حقيقية بينما عادل يدافع عن زوجته بشراسة ضاعف منها الهواء المثلج المنبعث من رئتيه، بقايا التعقل دفعت هشام ليند هتافه المنفعل عند هذه النقطة ويتوجه إلى سور الكورنيش مستنداً بجسده إليه وبداخله يعلم أنه أخطأ وتسرع وقد يتسبب هو هذه المرة فى هدم بيت صديقه أو على الأقل تكدير صفو حياته، تركه عادل ليهدأ قليلاً وجلس يفكر لعله يستطيع الوصول لحل أمثل يجعله يحل مشكلة هشام دون أن يمس أحد زوجته رؤى ولو بكلمة واحدة، دقائق أخرى وبدأ الوضع بينهما يفتت شيئاً فشيئاً حتى قرر هشام إنهاءه بالكامل وتصحيحه، استدار نحو عادل متقدماً نحوه ببطء حتى وقف أمامه تماماً، ولكن الكلمات هربت من صدره فعالجه عادل قائلاً بهدوء:

- لجرد العلم بالشيء، رؤى زوجتى كانت ترفض أى تواصل مع زوجتك وأنا من ضغط عليها لتذهب لزيارتها

جلس هشام بجواره وهو يربت على كتفه وصوته يعبر عن إطراد
الإنفعالات المتناقضة بداخله قائلاً:

- أنا آسف يا عادل، أعذريني، فأنا واقع تحت ضغوط أكبر من
قدراي على التحمل

مال عادل للأمام وهو يفرك كفيه ببعضهما البعض ويجمعها نافثاً
الهواء بينهما لعل الدفء ينبعث فيهما ولو قليلاً، ثم قال بجفاء:

- لا تُبرر يا هشام، هذه الضغوط التي تتحدث عنها نابعة من
مخاوفك، من عدم قدرتك على المواجهة، لا تنظر أبعد من أنفك
- كالعادة -

قال كلمته الأخيرة بسخرية وهو ينهض واقفاً واضعاً كفيه بجانب
سترته الجلدية الثقيلة، قائلاً:

- أرجو أن لا تنسى في خضم معتركك هذا أنك ستسافر بعد عدة
أيام إلى مقر الشركة في الإسكندرية لضرورة العمل

أوماً هشام برأسه موافقاً وهو يراقب انصراف عادل الذي ألقى
كلمته وغادر دون انتظار الرد، معه كل الحق، لقد أقحم زوجته في
مشاكله الخاصة، وكأنه يخبره دوماً بأن زوجته رؤى مازالت تتمنى أنه لو
وافق على الزواج منها، حتى وهي زوجة رجل آخر الآن، ودوافع الحقد
بداخلها تحركها لتتغيب حياته مع جدائل .

هو يؤلم صديقه دون أن يشعر، ربما من أجل ذلك لم يُشر من قريب أو بعيد إلى المجلة والرسالة التي قرأها بها، واكتفى فقط بأن زيارتها الأخيرة قلبت حالها وجعلتها شاردة سارحة في ملكوت آخر، يبدو أنه ليس أمامه حل آخر سوى الذى تقدمه إليه والدته، الشيخ عبد الفتاح!.

بسروال أسود وقميص ناصع بياضه بلا رابطة عنق وفوقهما سُرّة صوفية سوداء طويلة تصل إلى ركبتيه، دخل الشيخ عبد الفتاح شقة هشام بخطوات واثقة، تمهلت عينا والدّة هشام عليه بنظرات تقييمية، ربما تجاوز الأربعين من عمره بسنوات قليلة، ذقنه حلقة لامعة ورأسه أصلع من منتصفها تمامًا، أطلت الطيبة مع التواضع من عينيه إطلالة مُميّزة بصحبة ابتسامة غامضة موشومة فوق شفّتيه فلا تزول وهو يتجول بعينيه بأريحية بأركان الشقة ووالدة هشام تأخذه من غرفة إلى أخرى مع صمت تام يُخيم على الجميع سوى من ضربات عكازها على الأرض أثناء سيرها وهمهمات خفيضة لا يستطيع أحد منهم فهمها تصدر من بين شفّتي الشيخ عبد الفتاح، لم يستمر الصمت طويلاً حينما أهدى الرجل جولته ثم عاد إلى الردهة وهو يُناظر جداول التي انكششت بين ذراعي زوجها وبعينيهما نفور وخوف تجاه عنبر الواقفة ملتصق ظهرها بباب الشقة المغلق كما أمرها عبد الفتاح بعد دخوله ثم تحولت نظراتها

المتجهمة الخائفة نحو الأخير الذى ابتسم عندما أخبره هشام بأنها
تنتفض بقوة، فجلس على المقعد المقابل لهما ونبرة هادئة قال:

- لا تُبالي، إنها تنتفض لرؤيتي

ارتفع حاجبي هشام بدهشة وقبل أن ينطق انفجرت الكلمات من
فم عنبر وهى تتكلم بهتاف كعادتها قائلة:

- لا تقلق يا أستاذ هشام، زوجتك بالتأكيد ملبوسة ومن يسكنها
هو الذى يرتعش الآن، فالشيخ عبد الفتاح مشهور عند الجن -
اللهم احفظنا - ويخافونه

أشار لها عبد الفتاح أن تصمت بينما قالت والدة هشام متسائلة:

- ماذا رأيت فى الشقة يا شيخ، ومن ماذا تُعاني زوجة ابني؟

لازالت عينيه عالقة فى عيني جدائل وهو يجيبها بنوع من الإشفاق:

- حقيقة يا خالة، هذه الشقة ليس بها موضع قدم، قبيلة عن
أكملها من الجن تعيشُ بها، أما زوجة الأستاذ هشام فلا بد من أن
أقوم بالكشف عليها أولاً

- ماذا؟!!

هتف بها هشام باعتراض ودهشة بعدما حفزت عبارة الرجل الأخيرة
دفاعاته كاملة فشد على ذراعها يضمها إليه دون شعور، وهى

استجابت غامرة وجهها في صدره أكثر، لا تعلم ماذا يحدث حولها، لا تعرف سوى بضع كلمات شحيحة قالتها حماها قبل حضور ذلك الرجل بعشر دقائق لا أكثر، عن أنه رجل بركة سيقوم بحل جميع مشاكلها وبأنها لن ترى بعدها تلك الكواييس المزعجة مرة أخرى!، أعادتها نبرة صوته التي شأبها بعض السخرية إلى حاضريهم وهو يتحدث إلى هشام موضحاً:

- الكشف هنا يعني بأنني سأقرأ عليها بعض من آيات القرآن الكريم لأستطيع تشخيص حالتها

سكت هنيهةً وبدأ على ملامحه بأن هناك عبارة لازالت عالقة بجوفه، ثم أخرجها مُردفًا باهتمام :

- ولو أن بخبرتي الطويلة ودون كشف، أرى بأنها حالة مَسْنٍ

حرفه الأخير خرج ممطوطاً قليلاً، مُحدثاً رنيناً مَرعجاً بمعناه وليس بصوته فقط وهو يمر بذبذباته بينهم، إلا أن تلك الحالة لا تقارن أمام التوتر والذعر الذي حدث بعدها عندما أكمل حديثه وهو يزيد من تركيزه بنظرات ثاقبة في عيني جدائل:

- أرى وجه امرأة غاضبة يُطل من عينيها الآن!

لم تتوقف عنبر عن قول العبارة التي يبدو أنها لا تحفظ غيرها من حين لآخر:

- اللهم احفظنا

بينما أصبح الخوف سلعة رائجة بين الثلاثة الآخرين وقد تحولت نظرات والددة هشام وهي تناظر الشيخ عبد الفتاح إلى نظرة رجاء صامتة ترجوه العلاج، بينما أغمضت جدايل عينيها وهي تتشبث بقميص هشام الذى تجمدت عيناه على وجه الرجل الذى أوماً برأسه يطمئنهما وهو يمد يده بجيب سترته مُخرِجاً لُفافة صغيرة بيضاء لم تزد عن حجم أصبعين من كفه قائلاً:

- لا داعي لكل هذا الذعر، مدة العلاج لن تزيد عن الشهر، جلستان فى الأسبوع، إذا إلترتم بتنفيذ جميع الطلبات

مَرَحَتْ ابتسامة ساخرة مرتعشة قليلاً على شفتى هشام، ودون تفكير قال مُعلِّقاً:

- آه، هل ستطلب منا دجاجة مُطلقة، أم كتكوتاً يتيماً، أم ستقوم بالإعداد لزار ..

قاطعته ضحكة الشيخ عبد الفتاح التى انطلقت ساجحة فى فضاء المكان وقد بدا المرح على وجهه، وبعد أن هداً إلتفت إلى والددة هشام قائلاً:

- من فضلك يا خالة، أريد زجاجة مياه وإناء بلاستيكي متوسط الحجم إملاييه بالماء أيضاً وبعض قطع من ملابس لكل ما يقطن فى

هذا البيت

أومات المرأة برأسها وانصرفت للداخل تتبعها عنبر لمساعدتها بينما عاد برأسه إلى هشام قائلاً بنبرة مازال المرح عالفاً بما:

- أنت قديم للغاية يا أستاذ هشام، حتى الدجالين اليوم لم يعودوا يستخدموا تلك الطرق وقد أستهلكت كثيراً في الأفلام المصرية

صرف هشام عينيه عن الرجل بحرج وهو يذس أصابعه أسفل ذقن جدايل وهو يهمس لها أن لا تخاف وأنه بجوارها في كل خطوة، دقائق قليلة وعادت عنبر حاملة الإناء البلاستيكي بين يديها وصدرها ينهت صعوداً وهبوطاً، وضعت الإناء عند قدمي عبد الفتاح

واعتمدت تتناول قطع الملابس من يد والددة هشام التي كانت تحمل زجاجة المياه بيدها الأخرى، أشار عبد الفتاح إلى الإناء وهو يوجه حديثه لـ عنبر أمراً:

- أغمسي الملابس في المياه، أغمر بها لآخرها

فعلت عنبر ما أمرها به ثم ناولته زجاجة المياه وابتعدت تقف بجوار والددة هشام، فتح الرجل الزجاجية ثم وضعها على الطاولة التي تفصل مقعده عن مقعد شاغر بجواره، ثم عاد إلى اللقافة الصغيرة الورقية التي أخرجها من جيبه مُسبقاً، فتحها أمام هشام وهو يشير إلى المادة التي تشبه الدقيق ولكن لونها أصفر قاني يميل إلى الحمرة وهو يقول:

- هذا زعفران، النساء تستخدمه عادة لتحسين نكهات الطعام، أو لإضافة لونه إلى العصائر

تعاقبت نظرات هشام المضطربة بين والدته التي أومأت له مؤكدة وبين الزعفران وحامله الذى بدأ يُفرغه بدقة بداخل الزجاجاة، فيمتزج لونه بالمياه ليتغير لونها إلى الأحمر الباهت، أغلق الشيخ عبدالفتاح الزجاجاة جيداً ثم رجها بقوة بين يديه لدقيقة كاملة ثم وضعها على الطاولة تاركاً أياها وهو يقول:

- الزعفران يؤذي الجن بشدة

قال كلمته وهو يرفع رأسه نحو عنبر يوشاحها الكبير وجلبابها الزاهي متسائلاً:

- هل معك منديلاً قماشياً؟!

أنتبهت عنبر وهى تتحسس جيبيها فاستطرد وهو يوقفها بيده قائلاً بعفوية:

- أنتظري أنا معي واحداً تقريباً

بحث في جيبه لثانية وأخرج المنديل بعدها ثم ارتكز بمرفقيه على فخذه، جامعاً المنديل بين كفيه، قربه من فمه ثم أخذ يُتمتم بكلمات مبهمه، لأكثر من خمسة عشر دقيقة وهو يُتمتم هكذا، يرفع صوته

قليلاً بين حين وآخر فيستمعون إلى آية قرآنية يعرفونها ثم يعود ليخفض صوته مرة أخرى فلا يُدركون بماذا ينطق لسانه !

أنتهت الدقائق بشق الأنفس، وما كاد أن يرفع يده مُلقياً المندبل في الإناء البلاستيكي حتى حدث اشتعال طفيف، شهقت معه والدة هشام عالياً وقد اتسعت عيني هشام عن آخرهما، بينما الشيخ عبد الفتاح يُطفئ الشعلة الطفيفة التي حدثت ثم يرفع رأسه إلى هشام قائلاً:

- روح زوجتك الميته تسكن خزائن ملابسكم، وهي غاضبة للغاية !

وضعت والدة هشام يدها على صدرها في محاولة كسيرة لتهدئة خفقائه، وعندما وقعت عيناها على نظرات جدائل تملكت منها الدهشة، لقد كانت تنظر إلى الإناء ببرود وكأنها تشاهد عالم آخر موازي، لم تتأثر !، لم تكن هي وحدها التي تراقب عيني جدائل، بل كان الرجل يفعل نفس الشيء، وحين تكلم وجه حديثه إلى هشام وقال:

- أعتقد أن زوجتك المتوفاة بدأت تحضر بيننا

قطعة من الجليد انسابت فوق عموده الفقري وانحدرت إلى أسفل قدميه مثيرة زوابع مخاوفه فارتعش جسده بالكامل وبدأ يشعر بذراعيه تنحل دون إرادته ببطء من حول جسد جدائل التي تنظر إلى الجميع نظرات مبهمة كطفل لا يعي شيئاً مما يدور حوله، صار هشام مسلوب الإرادة، مستقبلاته العصبية في إجازة مفتوحة، ففتح الشيخ عبد الفتاح الزجاجاة وناولها إلى هشام وهو يأمره أن يسقيها منها ثم يسقي والدته

جرعة ماء واحدة، فهي الأخرى مُعرضة للأذى، فعل هشام ما أَراده وأخذ يسقيها بيدٍ مرتعشة، ثم أرسلها عن طريق عنبر إلى والدته، فشربت منها دون حساب، نهض الشيخ عبد الفتاح وأخذ يدور في غرف الشقة مُجدِّدًا وهو يُتمتم من جديد، من غرفة لأخرى ببطء رتيب والدقائق تمر ساخرة من الجميع، ثم رجع إليهم ثانية وهو يُشير إلى هشام بأن يوقف زوجته بمنتصف الردهة ليبداً القراءة عليها، كان هشام يفعل ما يقوله الرجل وكأنه دخل في حالة تنويم مغناطيسي، خوفه هو الذى يحركه لا إرادته، أوقفها بالمنتصف تمامًا وما إن بدأ يقرأ حتى سقطت على ركبتيها وأخذت تضحك كالجنانين، هو مُستمر بالقراءة وهى مستمرة بالضحك الذى يعلو أكثر فأكثر حتى تحول إلى نسيج وبكاء ثم أخذت تنادى وتتحدث بكلمات نائية متقطعة:

— هالة .. لم أفعل .. انتظروني .. أبى

كان هشام يتابعها وهو لا يشعر بالدموع التى انسكبت على وجنتيه، ماذنب تلك المسكينة في كل ما يحدث، هو الذى تزوجها وأدخلها بيته وهو المُهدد الآن بفقدائها، وأخذ يهمس دون وعي منه:

— أرجوكِ يا هالة اتركيها، انتقمي مني أنا، فأنا المذنب الوحيد هنا

وفجأة صرخت عنبر عندما سقطت والدته هشام بين يديها، أسرع هشام إليها يجثو بركبتيه بجوارها ينظر إلى شحوب وجهها، ناداها فلم تُجبه، تلمس النبض بعنقها فوجده يَضَعُفٌ ويتباطى شيئًا فشيئًا، بينما

عينها جامدتان وأنفاسها تتسارع وكأنها تتنفس من سَم الخياط، تُصارع الحياة، وقتها نسي زوجته التي تَهْذي، العالقة بين عالمين، وعنبر التي تكتم صرخاتها بكفيها وبات وجهها كالأموات وهي تنظر إلى عبد الفتاح الذي كان يبحث عن زجاجة المياه ويدُسهَا بسترته قبل أن يفر هاربًا، كل الصور تتحرك من حوله ببطء قاتل كبطء نبضات والدته في تلك اللحظة، والتي تُنبأ بأنها ستتوقف ساكنة بين ثانية وأخرى .

ربما يحلُم بعضنا بالهوت، ولكن مواجهته فعليًا، تجعل مقارنته بالحلم أمر سخيف!.

إختفاء

لم ينتظر المصعد، قفز درجات السلم طابقاً ينتهي ليبدأ بآخر حتى وصل إلى طابقه المنشود، ظل يعدو بين أروقتة حتى تراءى له جسد هشام من بعيد، كان يتحدث إلى طبيباً خرج لتوه من حجرة مجاورة، أسرع الخطى وصدره يَنْهت بشدة من الإنفعال والمجهود، مجهداً نفسياً أكثر منه بدنياً، منذ أن تلقى الإتصال السريع من هشام قبل قليل، يخبره على عجالة بأن والدته بين الحياة والموت في المشفى، طيلة الطريق وهو يُحضر نفسه لتلقى صدمة قاتلة له ولصديقه، وعندما رأى الطبيب يقف مع هشام هرولاً نحوهما بأسرع مما تكون الخطوات، واستقر واقفاً خلف صديقه واضعاً كفه على كتفه، إلتفت هشام إليه ثم عاد يلتفت إلى الطبيب الذى ألقى نظرة عابرة نحو عادل ثم تحول بعينه واهتمامه نحو هشام مستكماً الحديث الذى بدأه للتو:

- كما قلت لك يا أستاذ هشام، تحليل عينات الدم أثبتت أنهما تناولا عقاراً مُهلوساً، والدتك لم تتحمل مضاعفاته، ولكن لا تقلق هى الآن حالتها مستقرة، ولكن ستبقى معنا هنا لعدة أيام قبل أن تخرج معك

تمتم عادل مصدومًا:

- عقار هلوسة !

لم يظهر على هشام أنه قد استمع لتعليق صديقه، فلقد كان يزدرد ريقه الجاف بجفاف حلقه وهو يتابع تساؤلاته:

- وزوجتي؟

عدل الطبيب من وضع عويناته قبل أن يُجيب بعملية مُنهياً الحوار:

- بخير، وتستطيع أن تأخذها بمجرد أن تستيقظ .

ابتسم وهو يستدير ليغادر فلم يستطع عادل كتم انفعالاته أكثر من هذا، أدار هشام ليوأجهه وهو يهتف بانزعاج:

- ماذا حدث معكم يا هشام، أي عقار مُهلوس هذا؟!!

تمتم هشام وهو يتجه نحو أقرب مقعد ليرمي فوقه حمل جسده المنهك، الموشك على الإنهيار بالكامل، مستنداً بمرفقيه إلى فخذه، يتنفس، وهذه في حد ذاتها مُعجزة، إنه يتنفس أخيراً، لقد ظن بأنه قد فقد القدرة على التنفس منذ أن سقطت والدته أمام عينيه وحتى خرج إليه الطبيب ليطمأنه بأنها بخير، أخرج انفعالاته في زفرة طويلة مؤلمة قبل أن يلتفت نحو عادل الذي جلس على المقعد المجاور له مائلاً بجذعه نحوه، عيناه مترقبتان لما سيخرج من بين شفطي هشام بقلة صبر، وبدأ يقص عليه ما حدث منذ دخول الشيخ عبد الفتاح النصاب إلى منزله

بعد أن دفع له مئة جنية عن الزيارة الواحدة، وحتى خروج والدته وزوجته إلى سيارة الإسعاف .

ضرب عادل ركبتيه بقبضتيه وهو يهتف بعصبية لم يستطع التحكم بها:

- النصاب، ابن ال (.....) ، كيف تُدخله بيتك يا هشام، كيف؟!
مرت أمامهما مُمرضة في هذا التوقيت الخاطئء، فالتفتت نحوهما بتقزز وقد ضرب لفظ عادل أذنيه، وأسرعت خطواتها تتخطاهما بنفور.
وضع هشام يده على قبضة عادل المستقرة على قدمه، وريت عليه مُهدئاً وهو يقول بإفكك شديد:

- سأحرر محضراً ضده في الصباح، الآن أنا مقتول ذهنياً يا عادل، أرجوك

أستند كلاهما إلى ظهر مقعديهما في صمت مطبق، كل منهما في عالمه الخاص، هشام غائب في زوايا عقله حيث ذكريات اليوم المؤلمة تمر أمام عينيه بحركات بطيئة والإفتراضات تغزوه من كل اتجاه متصوراً بأن عقار الهلوسة ذاك الذى وضعه عبد الفتاح مع الزعفران في زجاجة المياه، كان بدلاً منه عقاراً آخر، ربما مُنوماً، ماذا لو أصر على أن يشرب هشام هو الآخر، كان ثلاثتهم سينامون منزوعي الإرادة وبصحبة نصاب ومساعدته، ترى ماذا كان سيحدث، نفص رأسه بقوة وهو

يرفض تلك الصور البشعة التي مرقت بعقله، تضرب رجولته في مقتل، عادل معه حق، هو السبب بلا شك، كان محققاً عندما قال له بأنه يفتقر إلى ميزة مواجهة مشاكله، ولا ينظر أبعد من أنفه، شعر بيد عادل تربت على كتفه وصوته الهادئ يتسلل إليه متسائلاً:

– أين جنى و لجين الآن؟

إكتفى هشام بالنظر بطرف عينيه وهو يجيبه بخفوت:

– هذه ميزة الأحياء الشعبية يا عادل، عندما وقفت سيارة الإسعاف أمام المنزل ورأى الجيران والدتي وزوجتي يدخلان إليها، أصرت أكثر من جارة لنا على اصطحاب بناتي معها في بيتها، والحمد لله لقد كانتا نائمتين أثناء كل هذا في شقة والدتي بالأسفل فلم يشعرا بشيء، وفي النهاية استقرتا عند زوجة ياسين جارنا، أنت تعرفه

أوماً عادل برأسه مؤكداً بوهن قائلاً:

– نعم، وسأمر عليه لآخذهما معي إلى بيتي حتى تتحسن صحة زوجتك

رفض هشام رفضاً قاطعاً بعد أن شكره مُمتناً، فزوجته ستعود معه بمجرد أن تستيقظ من النوم على إثر المهدىء الذى حقنها به الطبيب وقد كانت حالتها يرثى لها وهى لا تتوقف عن الهذيان والقيء .

وأخذ يُمني نفسه بكل ماهو جميل، سيعود كل شيء على ما يرام، ستتعاوى زوجته وبعد أيام ستخرج والدته من المشفى وقد استعادت صحتها، وترجع بناته إلى دار الروضة وستتحسن حالة تأخر الكلام لديهما ويُصبحا مثل أقرانهما في تلك السن، سيبتاع نفس المجلة بعد صدور العدد القادم منها وسيجد أنه لا رسائل أخرى تحمل عنوان " قالت لي"، نعم، سيكتشف بأنها كانت مجرد مُزحة، مزحة سخيفة لا يعلم مصدرها، كل شيء سيكون بخير، لاشك في ذلك!

في اليوم التالي عادت جدائل بصحبته إلى بيتها، ولكن رافضة لأى تواصل معه، ترفض حتى التواصل البصرى ولو بنظرة واحدة، أخذت الفتاتين من بيت ياسين شاكرة زوجته ثم صعدت حيث شقة حماهما، أصرت على عدم الصعود معه لشقته، انفصلت عنه انفصالاً تاماً لأيام، لم يرها فيها إلا أوقاتاً قليلة جداً، إما عندما يأتي بعد عودته من العمل ليلاً ليرى بناته لدقائق قبل أن ترفض هى أن ينام معهن بنفس الشقة، أو عندما تذهب لزيارة والدته في المشفى وفي نهاية الزيارة ترفض أن يُقلها بسيارة اجرة إلى المنزل وذلك في المرات الشحيحة التى تصادف تواجده مع حضورها هناك .

وكعادته انتظر، إنتظر حتى تُحل الأمور من تلقاء نفسها مع الوقت وكأن شيئاً لم يكن، غافلاً عن الإشتعال الذى يزيد بتجاهله لشرارته

وتركها تُطفأ وحدها!، هل هذا هو الإهمال التي كانت هالة تتحدث عنه في وصيتها، الإهمال القاتل، مُشعل الحرائق، ضاربًا كعادته عرض الحائط معرفته الحديثة بأن طرق باب قلب الأنثى يستلزم قبله حمل حقائب الإهتمام.

وجاء اليوم الذى كان ينتظره بقلق، يوم صدور العدد الجديد من المجلة، لم يكن فى كامل تركيزه ذاك اليوم أثناء عمله، ذهنه مُشتت تمامًا لدرجة أن استرعى انتباه عادل من شدة شروده، عيناه واضبتا على مراقبته وكأنه مشاهد لا يريد تفويت تفاصيله، وقبل نهاية اليوم حاول أن يسأله بخفوت عن السبب، معتقدًا أنه ربما ساءت حالة والدته الصحية ولكن هشام طمأنه بأنها بخير وأن الطبيب سمح لها بالعودة غدًا إلى المنزل.

كم يجب اهتمام صديقه بما يؤرقه، وكم يكره قيامه بتسليط الضوء على المشكلة الحقيقية بداخله!، لم يكن بمقدور عادل الضغط عليه ليتحدث أكثر من هذا، فهو أيضًا يعيش نوعًا من التوتر مع زوجته رؤى دون سبب واضح، وبرغم إصراره عليها يوميًا أن تحكي له ماذا يوترها، فتبدو وكأنها ستتحدث، وقبل أن تنطق بحرف واحد تُغلق شفتيها وتدعي حاجتها للنوم، زفر ببطء طاردًا جميع انفعالاته المطردة، والتفت نحو هشام الجالس على المقعد الجلدي خلف مكتبه ومال بجذعه نحوه

ثم قال بخفوت:

- مواعيد العمل شارفت على الإنتهاء، ما رأيك لو تنصرف الآن،
فأنت ستسافر باكراً ولا بد وأن ترتاح جيداً

سقطت عبارته على منطقة حيوية برأسه يُفكر بها منذ أن جاء إلى
العمل صباحاً، متى سيغادر لبيتاع المجلة؟، بل متى سينفرد بنفسه لبحث
فيها عما لا يريد أن يجده؟!، تبرعت عينيه بالإجابة رافقها تحرك جسده
وهو ينهض على الفور و يومئ برأسه بتعب مُدلِكاً عنقه المُجهَد وهو
يقول:

- أنا فعلاً في حاجة شديدة للراحة إستعداداً للسفر

جمع أوراقه المُبعثرة بإهمال فوق سطح مكتبه يُضمهم إلى بعضهم
البعض بداخل أحد الدفاتر، ثم أغلق خزانة المُستندات بإحكام قبل أن
يلتفت إلى عادل مُحييًّا إياه وهو يغادر إلى أقرب بائع جرائد ومجلات
يقابله في طريقه .

منذ أن ابتاعها وأمسكها بيده وهى تقذفه بين هواجسه المتوالية،
تُشعل فتيلها شيئاً فشيئاً، حتى قُرْب صبره على الانفجار، وعندما وصل
إلى المنزل لم يمر على شقة والدته كالعادة، لم يكن باستطاعته مُمارسة
الإنظار أكثر من هذا !.

وفي غرفة نومه وفوق فراشه أستلقى بكامل ثيابه، لم ينزع عنه سوى
حذاءه فقط، الأمر بالنسبة له حياة أو موت، كمن تأتيه رسائل من قاتل
مجهول، وفي كل رسالة يجد بها علامات ترشده إلى شخصيته الحقيقية!،
بدأ يُقلب صفحاتها بقلة صبر، حتى توقف أخيراً أمام صفحة بريد " بين
الناس" إلتهمت عيناه السطور حتى سقطتا على ما لم يتمنّ يوماً
مُعانيته، الرسالة الثانية منها إلى الصحفي عبد الخالق مروان، تحت عنوانها
التي اختارته في السابق" قالت لي " :

هل تعرف سيدي قول الكاتب آرثر ميللر عن هؤلاء الأشخاص
الذين يُفضلون أن يُشنق الجميع على أن يوجه إليهم عتاب ما أو يعترفوا
بأخطائهم؟!، أحد هؤلاء الأشخاص هو زوجي!، فعندما كانت تتكاثر
بصدري أفعاله حتى تتعاضم ولم أعد قادرة على حجبها بداخلي أكثر من
هذا فأعاتبه عليها، وقتها كنت أشاهد وجهه يحتقن بالضيق، قبل حتى
أن يفهم مشكلتي الحقيقية، يُغلق قلبه عن سماع بقية عتابي ويترك
عصبته تُنصت لي وحدها، نظراته تتحول إلى صخر، وكأنه لا يراي أمامه
في تلك اللحظة، فقط يرى أخطائه تتجسد فيّ، فتكرهني عيناه بشدة،
ثم يحدث الانفجار!

إنفجار يطيح بي وبه، يُعثر أشلاء سنوات قضيتها معه، في خدمته،
وفي محراب حبه، والآن أتساءل، ماذا لو كان يسمعي وقتها بقلبه، ماذا
لو تفهم عتابي، ماذا لو تحركت شفتاه بكلمات تروي صحراء حي

القاحلة، بدلاً من ديب الصمت الذى يُعنى فى قتلي به !، أتعلم سيدي أن فى تلك اللحظات كان للصمت عندى ضجيج يثير أعصابي ويُفقدني ما تبقى لدي من تعقل!، لا لأن الصمت هو من يؤذيني فى حد ذاته، بل لأنه كان يلتهم مني كل صبر وأنا أنتظر كلمة واحدة منه تُطفىء النار المشتعلة بروحي!، صبر مغموس بالانتظار الذليل، ككلب يلهث ينتظر أن يُلقى إليه سيده بِفُتات طعامه .

ولم يكن يفعل!، ومن شدة عجزى وقهرى منه ذات ليلة، أتيت بسكين وحزرتُ أطراف شعري حتى شُغرت بألم مُرح يغزو فروة رأسي، ثم وضعت شعري المُمزق على شاشة هاتفه وهو نائم، أعلم أنها حالة جنونية أصابني ولكن الجنون الأكبر أنه عندما استيقظ ليأخذ هاتفه أزاحه بعيداً وتناول إفطاره وذهب إلى عمله، لم يُكلف خاطره بإلقاء نظرة علي ليتفقدني هل أنا على قيد الحياة أم لا !، وكأن قهري أصبح من المُسلمات البديهة لديه !.

أعلم أنك ربما تُفكر أو أحد قراءك، لماذا لم أطلب فراقه؟، لماذا وقد استحوالت العِشرة بيننا إلى جحيم صامت؟، ذاك السؤال طاف بذهني ذات يوم وألح علي بقوة حتى كدتُ أن أتخذ قراراً به، ولكننى توقفت فى لحظة صدق أمام المرأة، أنظر إلى نفسي، امرأة تجاوزت الثلاثين و طفلتان، أنفقت كل ما تملك على شقيقته والأثاث المتواضع بها، نبذا أهلها بسببه، نبذا هو شخصياً، عاطلة لا تعمل!، ترى ماذا ستحصل

في النهاية إلا على ضياع كامل، في مجتمع يُحمل المرأة المَطلقة كل الأسباب، كل العيوب، بل ويطمع بها أيضًا !.

أما الآن ومع زوجته الجديدة "جيم" فهو متفهم للغاية، مُحتضن لها ولمشاكلها، أتعرف بأنه أحضر إلى المنزل رجلاً نصاباً ليمنعني عنها!، وأنا كنت بينهم، أشاهد وأضحك، كان مشهداً مثاليًا لتسليتي بالفعل، كان يستحق ما حدث له في النهاية، وسيستحق ما سيحدث له بعد ذلك، فلقد قررت أن أنهي تلك اللعبة بطريقي .

لماذا هو ينعّم معها بينما كنت أنا كنت أتعذب لديه، لا بد وأن يفقدها ليشعر بما شعرت به يومًا، يشعر بالعجز، بالقهر، بالذل، ولن يجدها ثانية .

كنتُ أحب أن يكون السلام ختامي، ولكن تلك الكلمة غريبة عندما تبحث عنها بين دفتي أيامي .

ظل هشام يقرأ ويقرأ وانتهت سطور رسالتها في اللحظة التي اكتشف فيها أن غلالة الدموع في عينيه أصبحت ثقيلة للغاية، ثقيلة لدرجة تجعله يُجهد بصره في النظر إلى السطور القليلة التي كتبها عبد الخالق مروان تعليقًا على رسالتها:

- حالة يزيد تفردها تفردًا، حالة مجهولة الخطر، سقت أطراف مشاعري وتفكيري إرباكًا من نوع خاص، يُغري حاستي على التمعن بما أكثر في محاولة لفهمها، بل ومحاولة مراسلتها لتكتب

أكثر وأكثر عن نفسها، وعليه فلن أتوجه بنُصح إليها الآن،
سأجعل قلبي مُحايداً وهو يوجه حروفه نحو بعض الأزواج من هذا
النوع، وإليهم أقول :

- إرفع رأسك أيها الزوج وانظر إلى المساحات الشاغرة، في قلبك،
ومن حولك، وابحث عن زوجتك، تخطي جدار الصمت الذي علا
بينكما يوماً بيوم، فلربما تجد هناك "هاء" أخرى تبكي نبذاً بقهر.

أسدلت عيناه ستائر جفونها وسقطت المجلة فوق وجهه، لقد أيقن
بأنها كلمات هالة، ولغرابته لم يرتعب كما المرة الأولى، حتى وإن شُعر بها
حوله في تلك اللحظة، حتى وهي تقول بأنها لن تتركه ينعم بسلام، رفع
رأيته واستسلم لأي شيء، المهم أن ينتهي كل هذا !

أستيقظ في الصباح وهو لا يعرف كيف سرقه النوم بالأمس، كل ما
يتذكره آخر كلمات قراها وأغمض عينيه دون أن يشعر، بينما سقطت
المجلة فوق وجهه تفصله عن العالم، نهض فجأة كالمسوع وهو يهتف
باسم " جدائل"، شيء غامض بداخله نبت فجأة لا يعرف ما هو، كل
ما يعرفه بأنه يخبره بأن حياته أصبحت، ناقص واحد !، شيء اختفى،
وربما إلى الأبد !.

نظر إلى ساعة معصمه العالقة بيده منذ أمس، لقد تأخر كثيراً، كان يجب أن يكون في طريقه إلى محطة القطار الآن، لم يفعل شيئاً سوى أن ضرب وجهه بعدة دفعات من الماء وهو منحني أمام الصنبور، ثم انطلق يرتدي حذائه على باب شقته ويهرول على الدرج، كان لابد من أن يطمئن عليها وعلى فتياته ولو لدقيقة واحدة، فتح الباب بمفتاحه الخاص وأخذ يتلفت حوله وهو ينادي عليها بنبرة منخفضة، ولكن لم يُجبه إلا الصمت المطبق، حدث نفسه بأنها ربما تكون نائمة فالوقت لا زال باكراً جداً وموعد دار الروضة لم يحن بعد، كاد أن يُغادر ولكن آخر عبارة برسالة هالة قفزت إلى ذهنه ودفعت قدميه للبحث عنها بجميع الغرف، لا أثر لأي منهن بالشقة على الإطلاق، وقف بمنتهى الرُدهة يحاول طرد الأفكار السيئة عن عقله، ربما ذهبت لزيارة والدته بالمشفى؟، أم ؟، أم ماذا !، إلى أين ستغادر في تلك الساعة!؟.

أغلق الباب خلفه بتوتر وعاد يقفز درجات السلم مُحدداً المشفى هدفه وبالتأكيد سيجدها هناك!، أصطدم رغماً عنه بجاره ياسين الذى كان يخرج من شقته في ذلك الوقت متوجهاً إلى عمله، فابتسم ياسين له وهو يلحظ حالة هشام المرتبكة المُشعنة وقال بحماس:

— أستاذ هشام!، صباح الخير

تجاوزته هشام وهو يرد تحيته سريعاً ولكنه توقف فجأة عندما سمع ياسين يقول من خلفه:

- لا تقلق على بناتك، وبالله عليك حاول أن تُطمئننا على والدتك
إذا كان لديك متسع من الوقت

أستدار هشام إليه ببطء وقد قطب جبينه بدهشة، لم يستوعب ما
قاله ياسين للتو، أو ربما يرفض الاستيعاب:

- ماذا؟!

تابع ياسين والحيرة تنازع القلق في ملامحه وتفرض سيطرتها:

- وأنا عائد من صلاة الفجر وقبيل الشروق وجدت زوجتك تقف
أعلى السلم شاردة، مُثقلة بحمل الفتاتين فوق كتفها حتى كادت
أن تسقط بهما، حملتهما عنها وسألتهما عن وجهتها في وقت كهذا
فلم تُجِبي، وغادرت وهي في حالة يرثى لها، فتوقعت أن تكون
حالة، والدتك ..

ذابت كلماته الأخيرة بين شفثيه وهو يواجه ملامح هشام التي تتوالى
عليها الإنفعالات تترا، محاولاً إخضاع ذهنه لمنطق مفهوم لما يحدث،
وذراعه ترتفع تلقائياً لتسندته إلى الحائط بجانبه قبل أن يُتمتم برجاء
خافت:

- من فضلك، أعطني بهما حتى عودتي، وإذا حضرت زوجتي في أي
وقت اتصل بي على الفور

ثم غادر سريعاً بعد أن أوماً له ياسين موافقاً بإشفاق، أسرع يعدو تجاه أول سيارة أجرة استجابت لإشاراته، وبمجرد أن استقر بداخلها حتى أخرج هاتفه مجرياً اتصالاً بصديقه مُخبراً أياه بما حدث بصوت متقطع وبغير تركيز، فقال عادل على الفور وهو يمسح وجهه بيده الأخرى، محاولاً إيقاظ حواسه التي كانت مازالت نائمة:

- لا تحمل همّاً يا هشام، عندما تصل إلى المشفى وتطمئن على والدتك وزوجتك أتصل بي، واذهب انت حتى لا تفوت قطارك، وأنا سأتكفل بالأمر.

أبواب المشفى كانت مُغلقة إلا من الأبواب الخاصة بالعيادات الخارجية المُلحقة بها فقط فموعد الزيارات لم يكن بعد، دخل من تلك الأبواب وظل يعدو بين أروقتها الطويلة يميناً ويساراً ثم استقل المصعد المؤدي إلى الطابق المنشود، انطلق مباشرة من المصعد بعد توقفه، حيث غرفة والدته، دلف إليها ببطء برأسه أولاً وهو يدعو أن تكون جدائل قد اتخذت نفس الطريق إليها، ولكن عينيه صُدمت بالسريّر المُرافق لسريّر والدته خالياً، ولا يوجد أحد غيرها بالغرفة، وهي سابحة في نومها، انتفض عندما شعر بيد توضع على كتفه ثم صوت أنثوي يقول:

- ماذا تفعل هنا في تلك الساعة

إلتفت مستديراً للخلف فوجدها الممرضة المسؤولة عن هذا الرواق بكل المرضى الساكنين غرفه، زفر بتوتر ثم قال بخفوت:

- هل تعرضت والدتي لمضاعفات بالأمس

زمت الممرضة شفيتها وهو تهمس حائقة:

- كنا سنتصل بك لو حدث ما تقول، والدتك بخير وستخرج اليوم
ولكن ليس في هذه الساعة بالتأكيد

سألها عن زوجته فأجابت بنفس الحلق أنه أول شخص تراه اليوم في
الرواق بأكمله، ثم طرده من الغرفة وهي تتوعد رجال أمن البوابات
المتساهلين!، خرج من المشفى بنفس الطريقة التي دخل بها، هاتفه
ملتصق بأذنه في محاولة ربما تجدي نفعاً، ولكن الهاتف القاطن بيت
عمها انقطع رنينه مرات ومرات ومازال لا يرفع سماعته أحد، يكاد
يُجن، نظراته تموج بين الهاتف وساعة معصمه، لم يتبق الكثير، لابد وان
يتصرف، لم يكن أمامه حل آخر سوى إجراء اتصالٍ أخير به عادل
ليطلع على التطورات ويرجوه أن يسافر بدلاً منه فكلاهما يستطيع
تنفيذ المهمة.

بحث عنها في كل مكان من الممكن أن تتواجد به، واتصالاته
المُتكررة بمنزل عمها لم تتوقف، ولكن دون فائدة، إن كانت لم تذهب
إليهم فلماذا لا يجيب أحد على الهاتف على الأقل، الاتصالات لا
تجدي نفعاً!!، الطوابق التي صعداها بتردد بصحبة والدته من قبل يصعد

سُلمها الآن قفراً، طرقات وطرقات ولكن لا مُجيب أيضاً، مازالت الرسومات على الحائط المجاور للشقة تستفزه وتثير غيظه أكثر، فُتح باب الشقة المقابلة وأطلت منها رأس امرأة أربعينية بلامح متحفزة، ومن بين حافتي الباب ظهرت يدها تحمل منفضة غبار، هاتفة بعصبية:

– من أنت وماذا تفعل ؟

استدار إليها محاولاً الاعتذار بتوتر ولكنها لم تصمت أو تتراجع وهي ترمي باعتذاره عرض الحائط بتصميم شديد على أن يُعرف نفسه، لم يشأ أن يدخل معها في جدال طويل، فالمُنفضة في يدها المُمتلئة تُنبئ عن قوة سلاح لم يختبره بعد!، فقال بأدب:

– أنا هشام، زوج جدائل التي تس،

لم تُمهله ليستكمل عبارته، ولكن هجومها هذه المرة مختلف وقد تغيرت ملامحها إلى الترحيب والتبسط، حاول بشق الأنفس مقاطعتها والسؤال عن جدائل وعمها، فأجابته بدهشة وهي تُلوح بالمنفضة:

– لقد سافروا بعد زواجكما يا أستاذ، ألم تكن تعلم؟!

من المؤكد أن هذا هو اليوم العالمي للدهشة والمفاجآت، متى سافروا؟ وإلى أين؟ تلك التساؤلات مرت من عقله إلى شفثيه فلم ترد المرأة إلا تعجباً وهي تقول مُثرثرة:

- والله لا علم لي يا أستاذ، ولكن زوجة عمها أخبرتني أنهما في الأساس مستقرين في الخارج منذ سنوات طويلة مع أولادهما الكبار ولم يأتوا هنا إلا لإجازة قصيرة، فهما لا يستطيعان ترك أولادهما أكثر من هذا وحدهم

يُصر هذا اليوم على أن يفقده عقله، لو كانت ما تقوله المرأة ذو المنفضة صحيح، فكيف قال له عمها بأن جدائل تعيش معه منذ أن فقدت والديها، جمعت المرأة شتات أفكاره مناديةً باسمه، رفع رأسه تجاهها دون تركيز، فقالت تسأله بفضول:

- لماذا تطرق الباب، هل ضاع منك المفتاح؟!

أجابها بنفاذ صبر بعد أن أرسل زفرة طويلة ربما تعود إلى شقتها وترحمه:

- ولماذا يجب أن يكون معي مفتاح؟

بعفوية وبتلويحة أخرى من منفصتها وكأنها توبخه:

- لأنها شقة زوجتك، ويجب أن يكون معك مفتاحاً احتياطياً، أهذا أفضل أم تصديع رؤوسنا بطرقاتك على الباب؟!

شقتها وليست شقة عمها؟!، مفاجأة أخرى أدارت رأسه وجعلته يشك بكل شيء كان يعلمه من قبل، جعلته يشير إليها أن تتوقف قليلاً ويسألها محاولاً الفهم:

- هل أنت متأكدة بأنها شقة جداول وليست شقة عمها؟

زفرت بضيق وعلا رنين هاتف منزلها فنظرت للداخل ثم التفت نحوه مُجدِّدًا وهي تُخرج من صدرها مجموعة مفاتيح مجموعين في سلسال من خيط الصوف، بأسنانها فكت عقدة الخيط وأخرجت منها مفتاحًا وحيدًا وعادت تربط الخيط من جديد، مدت له يدها بالمفتاح وهي تقول على عجلة:

- زوجة عمها تركت لي نسخة من المفتاح لأي طارئ، تفضل خذه، أنا غير متفرغة لكل من هب ودب.

أَلقت له المفتاح فتلقفه قبل أن يسقط وقبل أن يعود بنظره المذهول إليها كانت قد عادت للداخل مُعلقة الباب في وجهه بنزق !.

ظل مُتجهماً مكانه للحظات، وأخيرًا استطاع التحرك نحو الباب، أدار المفتاح وبسهولة كان داخل الشقة، لم يرى من تلك الشقة سابقًا سوى جزءًا من الردهة وغرفة الاستقبال التي دخلها أكثر من مرة بعد أن رأى جداول فيها لأول مرة، بتوجس دلف من غرفة إلى أخرى، رائحة الفراغ من حوله تحقق أفكاره وتُشبتها أكثر، الآن هو في غرفة ضيقة بسريرٍ خشبي صغير، ومكتب خشبي أصغر منه، خلفه مقعد له أرجل رفيعة للغاية خشبي أن يجلس فوقه فيحطمه، يده تعبث بلا هدف فوق سطح المكتب باحثًا عن شيء يدلّه في متاهته تلك التي دخلها بإرادته، أي إشارة لطريق العودة!، لفت نظره دفتر صغير مألوف لديه،

اسم ابنته جنى المدون عليه وفر عليه الكثير من محاولة تذكر أين شاهده من قبل، بمجرد أن أمسكه بين يديه تذكر كل شيء، إنه الدفتر الذى كتبت فيه هالة وصيتها له، وأخذته والدته من يومها ولم يره، هل خبأته لدى جدائل؟!.

قلب صفحاته بشرود حتى وقعت عينيه على الرسالة التى كتبته هالة وتركتها لجنى و لجين، لم يقرأها تفصيليًا من قبل، فقط وقعت عيناه على بعض كلمات مُكررة منها، بدأ يقرأها من البداية وحتى نهايتها حتى وقعت عيناه على جملة لم يكن ليلحظها فى ظروف أخرى "ولقد وصيت جدتكما أن تحتفظ بكل أشياءى لكما، لم أستثنِ إلا حجابى الرمادى، فهو لمعلمتكما رؤى التى سَُصبح أماً لكما بعد وفاتى، لقد خصصتها به لعدة أسباب، الأول لأننى أردت دعوتها بشكل غير مباشر لارتداء الحجاب، والثاني لأنه يليق جدًا بعينيها الرماديتين".!

مال عادل باتجاه رؤى التى بجواره بداخل القطار يتأملها وهى تنظر من نافذته بشغف كبير، عندما فاجأها صباحًا بسفره السريع تشبثت به وهى ترجوه أن يصحبها معه فهى لم تزر الاسكندرية من قبل، وبرغم برودة الجو إلا أنه لم يستطع رفض رجاء عيناها وإلحاح كلماتها، كل ما استطاعه هو أن يؤكد عليها بأنها ستكون وحدها فى الشقة التابعة للشركة طيلة النهار تقريبًا، فالمهمة فى الأصل مهمة عمل، وهى وافقت

بسعادة، ستجلس في الشرفة تُشاهد البحر وأمواجه العالية في هذا الفصل من السنة وستتجمد أطرافها، ولكن لا يُهم، المهم أن تراه ولو من بعيد، رحبا والداه وبالأخص والدته باستضافة طفله حتى يعودان في الغد، وهما تجلس في المقعد المجاور تستمع بكل ما يمر بها من حقول وحيوانات حتى أعمدة الإنارة المطفئة!، همس بأذنها مُداعبًا:

- سعيدة يا زيتونة ؟

إلتفت نحوه بنزق وهي تذكزه بخفة في ذراعه:

- توقف عن مناداتي بزيتونة، وإلا رميته من القطار الآن

ضحك بخفوت وهو يرفع كفيه باستسلام، وبنبرة خاصة تُحبها قال:

- وهل ذنبي أن عيناكِ سوداء سواد الليل يا زيتونة

أطرت برأسها بخجل فوضع أنامله أسفل ذقنها ورفع رأسها مُتابعًا بعتاب وقد وجدها فرصة سانحة:

- ألن تقولي لحبيبك ماذا تُخبئين بقلبك

ألقت نظرة سريعة إليه فلاحظ غلالة من الدموع بدأت تتجمع بعينيهما، مسح وجنتها بخنو ودفن كفها بداخل راحته الكبيرة وهو يربت عليه بمساندة و يحثها على الحديث قائلاً:

- تأكدي أن ما تداريه عني لن يُغير من حيي لك شيئاً مهما كان

أدلمت عيناها بـُسحب تنذر بـُطول دمعها وتفضح شعورها بالذنب
تجاهه وقالت بصوت خافت مُتقطع:

- هل تعديني؟

أوماً برأسه بثقة مؤكّداً لها صدقه، وصدّره يضح في انتظار تلك
الحقيقة التي تخشى أن تبوح بها بقلة صبر استطاع أن يُداريها حتى لا
تراجع، وهو يُتمتم بقوة:

- أعدك حبيبي

سمّع تنهّداًها الناعمة المضطربة قبل أن تميل برأسها نحو كتفه وتقول
بحفوت:

- ولكن لا تُقاطعي أرجوك، هل تذكر اليوم الذي عدتَ فيه من
عملك فوجدتني أرتعش وأبكي واختبأت في حضنك؟، لقد كذبتَ
عليك هذا اليوم عندما سألتني، أنا لم أفقد وعيي في المتجر كما
قلت لك ولم أقض اليوم مع عاملاته، لقد، لقد كنت عند جدتي
في منزلها

أنفض بعنف في مقعده وهو يستدير نحوها بجسده كله هاتفاً دون
وعي:

- ثانيةً يا رؤى؟، تذهبين دون أن تُخبريني!، وماذا حدث هناك،
تكلمي

علا صوت نشيجها وهي تُجيب متألمة:

- كيف أُخبرك وأنت ترفض أن أذهب هناك، جدتي هي من ربّتي
يا عادل ولا أستطيع تركها هكذا وقد بلغ بما المرض بأنّها
أصبحت مُقعّدة ولا تستطيع حتى تناول دوائها، وهي كل ما
ترجوه أن أجالسها وأطعمها، أسليها ببعض الحكايا

ضغط كفها الذي مازال يسكن راحته بضعف وهو يقول بعصبية
التي اعتادتها منه عندما يغار بشدة:

- وهل تلوميني، ماذا لو صادف وجود ذاك الحيوان "خالك" هناك
ماذا كان سيحدث حينها؟

ارتجافتها ذكرته بميتتها عندما عاد إلى بيته ووجدها ترتجف فقال
بعنف بعد إدراك متأخر:

- هل كان هناك ذاك اليوم، هل تعرض لك من جديد؟

أنبأه اهتزاز كتفيها بوضوح وهي مطرقة برأسها للأسفل تكتّم
شهقاتها براحتها الأخرى بأنّها تبكي بشدة، ولا تستطيع التوقف، هو
يعرفها، هي زوجته ويعلم كل خلجة بها، لا تنهار هكذا إلا إذا تعلق
الأمر بذاك الخال الحقير، الذي لم تمنعه صلة القرابة من أن يستغل وحدة
ويُتم ابنة أخته المتوفاة، ويُحاول التحرش بها مرة بعد أخرى، إلا إنّها
كانت تُدافع عن عفتها بضراوة، لا يُنكر عادل في بداية ارتباطه بها أنه

كان مُتفاجئًا بعض الشيء من موافقتها السريعة على الزواج ولكن تلك المفاجأة لا تعنى شيئًا أمام ذهوله وهى تصارحه بتلك الحقيقة، وترجوه بأن يُعجل بالزفاف، لتخرج من هذا البيت بأسرع وقت، فبالرغم من حبها لجدتها التى ربتها إلا أنها كل يوم تنام مرتعبة مما يُمكن أن يحدث لها فى الغد، لذلك منعها بعد أصبحت فى بيته من زيارة جدتها وشدد على ذلك، الحالة التى تعانيتها الآن تعنى بأنها قابلته فى ذلك اليوم، ترى ماذا فعل بها؟!.

ترك كفها وقبض على كتفها وهو يُديرها نحوه قدر استطاعته، هاتفًا من بين أسنانه:

– أقسم بأن أقتله، تكلمى يا رؤى ماذا حدث منه

فلت منها شهقة ثانية ثم ثالثة وأصابعه تنغرز دون أن يشعر بكتفها فتولمها فقالت وهى تتألم:

– لقد قال لى بأننى الآن ليس لى ما ينعنى عن قبول عرضه بعد أن تزوجت، وحاول لمسى وأنا خفت، خفت بشدة يا عادل، كانت عيناه دموية مُرعبة، لم أشعر بنفسى إلا وأنا أضربه على رأسه بزجاجة الماء، فسقط أسفل قدمي مُدرجًا بدماءه، تصورت وقتها أننى قتلتة، ولكنه أُصيب فقط.

أتمت عبارتها وقد فقدت القدرة على كتم شهقاتها فالتفت نحوها من يجلسون فى المقاعد المجاورة بفضول، ولكنه لم ينتبه إلا لها هى فقط، ترك

كنفيها وضمها إلى صدره بقوة وهو يسبه ويتوعده بالقتل، أنفاسه ملتتهبة حارقة والغليان يعلو بصدره وأفكاراً شيطانية توسوس له بالعودة إلى القاهرة وتمزيق قلبه بيديه العاريتين، دفنت رأسها بصدره بقوة وهي تُحركها وتقول برفض، مُبللةً سترته بدموعها المنهمرة على قلبه تحرقه:

- لا تفعل يا عادل أرجوك، لا تجعله يأخذك مني، أنت كل ما تبقى لي في الدنيا، أرجوك سامحني أننى ذهبت دون علمك لم أكن أعلم بأنه يتواجد في تلك الساعة، جدتي مريضة وأنا لا أريد إغصابك فماذا أفعل؟

سكت لدقائق طويلة وتركها تُفرغ كل دموعها على صدره وعندما هدأت قال بصوت عميق جداً، وكأنه آتٍ من عمق بئر سحيق:

- أسامحك حبيبي، جدتك سأنقلها إلى بيتنا لتقومي برعايتها كما تُحبي، أما ذلك الحقير فلن يفلت من يدي

رفعت رأسها إليه والامتنان يتقافز بعينيها المتورمتين من البكاء، استطاع رسم ابتسامة واهية على شفثيه لطمانتها ولكنه وجدها تُطرق مرة أخرى برأسها قبل أن تجلد نفسها قائلة:

- ولكن، أنا لا أستحق ما تفعله معي، لقد خدعتك!

أمسك وجهها ورفعها لتنظر إليه، وهو يشعر بأنه لم يسمعها جيداً:

- ماذا !!؟

أعادت رأسها إلى صدره تحتسى منه به، وهى تقول مُعترفة بُجملٍ غير
مُترابطة:

- صدقنى أنا لم أكن أقصد، لم أنو خداعك، كنت فقط أريد ترك
بيت جدتى، كنت أخشى على نفسي لذلك سكت، اليوم الذى
رأيتنى فيه للمرة الأولى فى دار الروضة التى أعمل بها وفتحتنى فى
الزواج، أنا علمت بعدها بأنك لم تكن تقصدنى أنا، كنت تقصد
رؤى أخرى، غيرى !!

النهاية

بدأت عبير شاردة جدًا وهى تجمع متعلقاتها من فوق سطح مكتبها بداخل المركز الطبي وقد انتهى وقت عملها فى انتظار حضور زوجها الدكتور بلال لتحدث معه فيما حدث اليوم صباحًا، عندما شاهدت ياسين بجسده المكتمل وقامته القصيرة يقف أمام جهاز التعقيم يُجهز أدوات الحِجامة ويُعقمها وهو يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع كمن يحاول حل شفرة ما، وعندما سألتها عما به وهى تتصور بأنها مشكلة جديدة مع زوجها، فاجأها بالقصة التى انتشرت بالحى عما دار فى شقة هشام والنصاب الذى كاد أن يودى بحياة والدته وزوجته، والكلام الذى تناقلته جاراتها فيما بينهن عن الحالة التى أصبحت عليها زوجته مُذ أن عادت من المستشفى بالإضافة إلى مغادرتها قبيل شروق اليوم فى حالة يرثى لها، زمت شفتيها باستياء وهى تلقى باللوم على والدته هشام التى نقلت كل ما يحدث فى بيت ولدها إلى تلك المدعوة عنبر، من المؤكد أنها بتلك المعلومات التى قامت بتمريرها إلى ذلك النصاب عبدالفتاح ساعدته على إيهاهم بما يريد بسهولة لتحقيق مآربه، ولكن شعورها بالشفقة على المرأة العجوز غلب عليها فى النهاية وهى تُفكر فى

زيارتها بالمشفى فلربما كانت تحتاج إلى مُساعدة في تلك الظروف الغربية التي يعبرون من نفقها .

ثلاث طرقات تعرفهم جيداً جعلن وعيها يطفو من جديد فوق سطح أفكارها، راقبت دخوله لحجرتها بتحية مُشْفَعَة بابتسامة يُجيد خصّها بها وحدها، تلك الابتسامة التي انزلت من عينيه إلى شفثيه قلمت سريعاً أظافر ظلال مشاعر سلبية تحوم حول قلبها، كنفاه العريضتان احتلتا مجال رؤيتها، مما يُجبر نظراتها أن تحط على لحيته المهذبة بعناية، رنا نحوها وهو يُعدل من وضع نظارته الطبية الأنيقة فوق عينيه بحركة اعتيادية وهو يقول:

- لا داعي لكل هذا الإعجاب في عينيك، فأنا رجلٌ متزوج،
للأسف!

مُذ سنوات وهو يستطيع استمالة ضحكاتهما رغماً عنها، قدفته بحقيبتها الجلدية فتلقفها في الهواء وهو يقترب منها بمرح ويرفع غطاء وجهها مُقبلاً جبهتها فدفعته مُدعية استياءً كاذب من اقترابه الذي لم يُقس بالمسافات بينهما يوماً، هاتفة بغیظ مُحبب:

- حُسن حظك أننى لستُ في مزاج جيد هذا اليوم

لم يندهش كثيراً، فهو يعلم أنها بحكم عملها واختلاطها بأنواع مختلفة من صنوف النساء من المُمكن جداً أن يتعكر صفوها أو تفقد القدرة على الصبر آخر يومها، هو أيضاً بحكم عمله يحدث معه ذلك وأكثر

ولكنه يقذف كل هذا عند قدميها في تلك الدقائق القليلة التي يلتقيان فيها بعد عودته من المشفى وبداية عمله في مركز العلاج الطبيعي خاصته، جلس على المقعد المقابل لمكتبها وهو يخلع نظارته عن عينيه مُدلكاً أعلى أنفه وهو يقول ببساطة:

- الأمر يعود إليك حبيبي، لو العمل هنا يُرهقك فلا داعي منه وتفرغي للأولاد فقط

ثم التفت نحوها متذكراً أنه لم يسأل عن أطفالهما:

- على ذكر الأولاد، أين هما الآن يا تُرى؟

جلست بدورها على مقعدها الجلدي خلف مكتبها، وتزفر بنعومة قائلة:

- أختي عزة هنا في إجازة ولقد أصرت على اصطحاب الأولاد من الروضة إلى بيتها اليوم، ومن المفترض أن ألحق بهم عندها الآن، ولكن حدث أمر غير وجهتي.

أوماً برأسه باهتمام يبحثها على التحدث فبدأت تسرد عليه ما أخبرها به ياسين في الصباح، ورغبتها في زيارة أم هشام في المشفى وقد ساءت حالتها كما علمت، ففي كل الأحوال المرأة كانت تحرص على زيارتها بشكل دائم وتتودد إليها وقد أحببتها للغاية رغم عدم رضاها عن بعض من تصرفاتها مع زوجة ولدها الراحلة .

كعادته يُفكر قليلاً قبل أن يجيبها عن أمر كهذا، وكعادتها تنتظر قراره الذى لم يكن يوماً ضد رغبتها إلا نادراً، وأخيراً أثار لها الضوء الأخضر لتعبر إلى موافقته بسلام ولكنه اشترط أن يصطحبها بنفسه إلى هناك حتى يطمئن عليها، نُهض من مجلسه وهو يُشير لها بأن تُسدل غطاء وجهها مُجدداً، خرج من الغرفة متوجّهاً نحو غرفة الكشف الخاصة به، فوجد ياسين يهتم بها ويُرتبها قبل بداية العمل، وطلب منه تأجيل مواعيد المرضى إلى ما بعد صلاة العشاء ليكون لديه متسع من الوقت وهو يصطحب زوجته إلى زيارة أم هشام، أعلن الامتنان فى عيني ياسين عن نفسه بوضوح وهو يهتف شاكراً له بحماس وتقدير.

جلست والدّة هشام على فراشها الأبيض وقد ارتدت جميع ملابسها مستعدة للخروج من المشفى، وأمامها حقيبتها الزرقاء الكبيرة التى جهزت فيها أغراضها منتظرة مجيء عادل، فهى تعلم بسفر هشام لمقر الشركة وبأن عادل هو من سيصحبها إلى المنزل، عندما أخبرتها المُمرضة بأن ولدها حضر باكراً جداً ظنت بأنه كان يريد الاطمئنان عليها قبل سفره، وهاهى الساعات تمر وجدائل أيضاً لم تأتِ .

ضربت الأرض الملساء بعصاها وهى تزفر متململة بجلستها، وهى تستعد للنهوض بنزق، ستخرج وحدها وتعود للمنزل وستضربهم جميعاً بالعصاة على رؤوسهم حتى تهشمها، طرقات خفيفة جعلتها تكافح

تقدم أفكارها العنيفة بالتراجع، تهلل وجهها فجأة وهى ترى عبير تدلف من الباب بحرج بالغ وتُحيها بخفوت، عرفتها بالرغم من غطاء وجهها أو كما تقول لها دائماً - أستطيع تمييزك من بين مئات المنتقبات

أخبرتها عبير بأن ياسين قص عليها ما حدث لذلك أنت لزيارتها وأن زوجها بلال ينتظر فى الخارج، أصرت المرأة على دخول بلال وقد هاها وجوده بالخارج كالمطروود، تركت عبير وخرجت إليه وهى تُقسم عليه أن يدخل ويجلس معها بالداخل، كان متحرّجاً بشدة ولكنه لم يستطع مقاومتها وخصيصاً وهى مُقدمةً على جذبه من ذراعه، فاختار الدخول بكرامته أفضل !.

كل ما قالت له عبير كانت تعرفه لذلك لم تُعلق إلا بممصصة شفاها وهى تتحسر على ذكائها الضائع ولكن جملة عبير الأخيرة والى نقلتها عن ياسين عن خروج جدائل بتلك الهيئة ثم تبعها هشام بهيئة لا تقل عنها تشعُّناً هو ما أثار ربيتها وشرودها من غرابة ما تسمع .

فُتِحَ باب الحجرة دون استئذان، وبلا وعيٍ حاضر دلف هشام يحمل دفتر ابنته جنى بيده، وبالرغم من سقوط نظراته على بلال وعبير ولكن إدراكه سقط على والدته فقط وهو يُمدُّ لها الدفتر بيديه مؤشراً بأنامله على العبارة التى جعلته يدور حول نفسه منذ أن قرأها فى شقة جدائل قائلاً بصوت مشحون:

- فقدت قدرتي على الفهم، أفهميني أُمي، جميعكم خدعتموني
أليس كذلك؟!

زفرت والدته بعدم رضا وهي تنهض واقفة مُنحنية الظهر قليلاً وهي
تُجيبه زاجرة:

- أنت السبب، رأسك كان كالحجر، رفضت رؤى دون سبب لجرد
أنها كانت تعمل وكأنها وصمة عار بالرغم من أني أكدت عليها
بأنها لن تعود للعمل مُجدداً، اخترت راحتك على مصلحة بناتك،
وتناسيت أن أختيار رؤى من الأساس كان لأنها الأقرب إليهما
وتعرف كيف تتعامل مع حالتهما، ولكنك فكرت في راحة بالك
فقط .

أنخى بلال نحو عبير الجالسة بجوار الفراش تشعُر ببلاهة مما تسمع
من الحوار الدائر وهمس لها ليرحلا، فالموضوع المثار عائلي للغاية، بمجرد
أن نُحضت عبير وهي تستأذن للمغادرة، قبضت المرأة على ذراعها قائلة
بعصبية زائدة:

- انتظري يا دكتورة عبير سأرحل معكما لا أريد البقاء مع هذا
المعتوه

عاد إدراك هشام يعمل من جديد على بقية مساحة الحجرة دون
والدته والتفت بحدة لم يقصدها نحو عبير وقد كانت بالنسبة له كسفينة

إنقاذ أخته وهو يصارع أمواج بحر يوشك على الهلاك فيه، وهتف وهو يقترب منها خطوة واسعة:

- أنتِ الدكتور عير؟، كيف لم أفكر بك من قبل وأنا أبحث عنها في كل مكان، أين أجد زوجتي الآن أخبريني؟

تلك الخطوة كانت كفيلة بأن تجعلها مأسورة خلف جسد زوجها الذى وقف أمامها مباشرة واضعاً يده على كتف هشام بخشونة ولسانه ينطق بشراسة أقل حسيساً من التى انطلقت شرارتها من عينيه:

- اقترب خطوة أخرى وستندم صدقنى !

رفع هشام نظره بدهشة نحو بلال وكأنه لم يلحظه إلا الآن، بينما تدخلت المرأة بينهما وهى تسحب ولدها بعيداً عن يد بلال، فالوضع لن يكون متكافئاً أبداً، بالإضافة إلى ضيق صدرها الذى شعرت به وقد فاض بها الكيل مما يوجب به، يكفى مُدارةً وصمتاً وليفعل ما يفعله لقد تعبْتُ، أبعدته الخطوة التى اقتربها وهتفت غير مبالية بوجود آخرين معها:

- الدكتور عير لا تعلم شيئاً عن جدائل، ألا زلت أعمى البصيرة حتى الآن؟!، أنا بالفعل طلبت منها أن تُرشح لي عروساً لك ولكنها لم تجد من توافق على ظروفك العائلية، وبما أنك لم تر رؤى حتى، وركبت رأسك ورفضتها دون أن تعلم حتى اسمها اضطرت

أن أسايرك وأخبرتك أن هناك عروسًا أخرى من طرف الدكتورة
عبير.

غرز هشام أصابعه المرتعشة بين خصلات شعره بقوة ثم يحرك رأسه
يمينًا ويسارًا كأبله لا يفهم ما يُقال له بوضوح، ولكن كيف؟ فتح الدفتر
مرة أخرى ونظر لسطوره وهو يهذي بالعبارات الغير مترابطة التي تطحن
عقله بلا هوادة:

- أمي، هالة تقول في وصيتها للفتاتين أن رؤى مُعلمتهما غير مُحجبة
لذلك أهدتها وشاحها الرمادي لأنه نفس لون عينيها، ورؤى زوجة
عادل هي نفسها مُعلمة البنات ولقد كانت غير مُحجبة بالفعل
ولكن عينيها سوداء، أنا رأيته بنفسه عندما ذهب عادل ليراها
في الروضة، وجدائل زوجتي عينيها رمادية ومستديمة على ارتداء
حجابها الرمادي، سأجن بالتأكيد !

زفرت والدته بضيق ولكن الحدة خَفَّت في نبراتها وهي تربت على
كتفه بتفهم:

- رؤى زوجة عادل ليست هي رؤى نفسها التي أوصت لها هالة
بوشاحها، هي زميلتها وقد كانت تعمل معها بالروضة، حدث
خلط بينهما عندما ذهب عادل ليراها، ولو توقفت عن مناداة
زوجتك بـ جدائل لحل الموضوع من تلقاء نفسه .

وكأنها ضغطت قابسًا أحمر كبيرًا في عقله، أضاء بضوء الإدراك المتأخر دافعًا إجابات منطقية لكل أسئلته بتلايف عقله بقوة وسرعة وليدة، عندما استقبله عمها وقتما ذهب لرؤيتها، حدثه عن مدى ارتباطها بوالدها رحمه الله، ومدى تدليله لها حتى أنه أطلق عليها أسم جدائل كتدليل لها، جداول أسم جدتها من أبيها وكان ذلك سببًا كافيًا ليجعل والدتها ترفض أن تكتبه في شهادة ميلادها، وأصرّت أن يُسجلها باسم رؤى!، ومنذ ذلك الحين والجميع يناديها بـ جداول إلا والدتها وبعض من زميلاتهما، لذلك أحب هو أن يُناديها به ليشعرها بالألفة تجاهه منذ اللحظة الأولى حتى نسي أو تناسى اسمها المُسجل بالأوراق "رؤى".

لم ينتبه إلى تلك الحقيقة في البداية، اعتبره مجرد تشابه لا أهمية له، ولم يكن له أهمية وقد تزوجها صديقه وانتهى أمرها بالنسبة له!، والدته خدعته بمكر، ولكنها ليست وحدها !

رفع عينيه إلى والدته والغضب يُحدد مقلتيه وسوادهما بخطوط لا تقل سوادًا عن لونهما وهو يهمس من بين أسنانه :

- وبالتأكيد زوجتي الفاضلة وعمها المهذب وافقا على تلك الخطوة، وكنتم تضحكون فيما بينكم على الأحمق الذى صدقكم جميعًا

أزاحت يدها من فوق كتفه سريعًا وكأن لمسته تحرقها واستندت بظهرها بإرهاق بدا على وجهها وجعل جسد عير يتحفز تلقائيًا

استعدادًا للسقوط الذى سيحدث بين لحظة وأخرى ولكنها وجدت المرأة تستعيد بعض من قوتها بعد أن تنفست بعمق ثم قالت له:

- يا بني افهم، جدائل زوجتك..

قاطعتها ضحكته العصبية الساخرة وهو يهتف :

- تعين رؤى زوجتى، أليس كذلك!

عادت تنفّس عميقًا من جديد مُستعينة بعصاها تلقى ثقل جذعها عليها قبل أن ترد بهدوء لا يتناسب مع الضيق الذى يعتري دواخلها:

- نعم رؤى زوجتك، كانت وحيدة جدًا يا ولدى بعد أن فقدت والدتها أيضًا، وعمها وزوجته حياتهما مستقرة خارج مصر، رؤى زوجتك هى من هاتفته وهى تبكي راجية إياه أن يأتى ولو لزيارة قصيرة ليساعدها على نقل والدتها إلى الشقة الجديدة التى أجبرتها إحدى جارقاتها على الانتقال إليها وقد سئموا صراخ أمها كل ليلة، لذلك ترك عمها وزوجته أولادهم هناك وجاءوا إليها ولكن للأسف بعد انتقالهم بيوم واحد هربت والدتها عائدة إلى شقتها القديمة وهناك ماتت مُحترقة أعادنا الله، كانت الفتاة ضائعة تمامًا وبالأخص وهى تعلم بأن عمها وزوجته سيعودان مرة أخرى بعد فترة قصيرة وستصير وحدها تمامًا، أنت وبناتك كنتم آخر أمل لها فى الحياة فماذا كنت تريدنى أن أفعل، أتركها وقد وصتني عليها هالة رحمها الله؟.

دون أن يرى وجهها شدد مُساندًا على كتفها بعد أن أحاطه بذراعه، كان يعلم أنها تبكى في هذه اللحظة تأثرًا بما تقوله المرأة من حكايا عن تلك الرؤى، كم من أبوابٍ مُغلقة يحصل خلفها ما لا يمكن تصديقه، منه ما ينسل من أسفل بابها، ومنه ما يُحكى على العن، ومنه ما يُؤسّر بقلوب تموج به وحدها، قلوبٌ رأت كل شيء، حتى مات فيها كل شيء، تلاطم الحديث العاصف أجبر بلالًا على الخروج من تأملاته وهو يسمع هشام يهتف بدهشة:

- معنى هذا أنها هي من كانت تكتب وترسل تلك الرسائل إلى المجلة، ولكن كيف لها بتلك الأسرار، هل هالة تزورها بالفعل، هل أجبرتها، هل اختطفتهما كما توعدتني، هل هي في خطر الآن؟ ماذا يحدث لي، كلما حللتُ عقدة تُسرّع إلي حياتي أختها؟!

أخفى كلماته وهو مُمسكٌ برأسه، يشعر به على حافة الإختيار، لم تستطع والدته كتم فضولها، سألته بترقب خوفًا من انفجاره عن تلك الرسائل التي يتحدث عنها، ترك جسده ينزلق كورقة في مهب الريح إلى الأرض الباردة مُستندًا بظهره إلى الباب المُعلق، الغليان الذي تضج به عروقه جعله لا يشعر بتلك البرودة القارصة التي بدأت تلف الحجرة أكثر فأكثر كلما غربت الشمس وهو يقص عليها ما أراد أن يُخفيه من قبل، وكلما توغل بين غابات حكاياته كلما تملل بلال في وقفته وهو ينظر عبير وكأنه يسألها النصيحة، الأمر بات مُخرجًا بالنسبة لهما كثيرًا،

هشام يقول أشياء تُسود فيها صفحاتٍ كَثَار !، لولا استناد هشام وهو في تلك الحالة لباب الحجرة لسحب زوجته وخرج منها دون أن يلتفت لرفض المرأة وتشبهها بعبير، هذا الزوج المُتَعَب يُثير عجبه لا إعجابه، لو كان ذو فطنة ولو قليلاً لما كابد كل تلك المعاناة !.

انتبه في تلك اللحظة على صوت زوجته المُشيع بالبكاء وهي تسأل بقلق على رؤى وبجفاء موجه نحو هشام وحده، وكأنها تعرف رؤى منذ سنوات غابرة وتنافح عن قضيتها:

- هل سنجلس هكذا نُضيع في الوقت بأحاديث ليست ذات أهمية، ولا نعلم مصير الانسانة المُختفية منذ الصباح وحتى الآن؟
تمتمت والددة هشام وكأنها لا تتعلم أبداً دروسها:

- كنت على حق عندما ظننت أن روحها تسكن الشقة!

اتسعت عيناها شيئاً فشيئاً وهي تُتابع بصدمة:

- معقول، هل من الممكن أن تكون أخذتها معها تحت الأرض؟!

شهقت بصوت مسموع عندما علت طرقات عصبية على باب الحجرة، تحرك بلال مُسرِعاً وهو يساعد هشام على نُحوض مُمسكاً أيّاه من كتفيه، فُتِحَ الباب ودلّفت المُمرضة على عجلة من أمرها تسألهم الرحيل، فهناك حالة أخرى تنتظر.

سرت بعض الهمهمات فى المقعد الخلفى للسيارة بين عبير ووالدة هشام، بينما ولدها يجلس صامتًا بجوار بلال بداخل سيارته، اضطر للموافقة وقد ألح بلال على أن يقلهما بسيارته إلى المنزل، الآن وقد استوت الأمور برأسه أكثر من ذى قبل وبدأ يهدأ ويفكر بعقلانية منطوية على نفسه يستند برأسه إلى زجاج النافذة المغلقة بجواره، لا مفر أمامه من استكمال البحث عنها، بل لا مفر من العنوان التى أعطته والدته إياه وهى تقول له بعفوية:

– هذا عنوان شقة رؤى القديمة التى هجرتها بعد أن احترقت فيها والدتها.

عنوان أثار بعض مخاوفه، ذكره بما قرأه من خلال بريد بين الناس، وهى تتحدث عن الشقة وعمن يسكنها من أشباح من كانوا يسكنوها يومًا وهم أحياء، والدتها، والدها، هالة التى تعدهما بالشر!، وسؤال حول رؤى يخشى الإجابة عنه منذ أن استقل السيارة، ترى هل مازالت حية؟.

بدأت قطرات الأمطار القليلة تُقبل زجاج السيارة الأمامى وهو يُراقبها وكأنه يحصيها، أخرجه صوت بلال الهادىء من حساباته عندما سمعه يتسائل:

– علمت بأنك حررت محضرًا لذلك النصاب عبد الفتاح، فهل هناك جديد؟

تنحى هشام ليجلى حنجرته صارفاً أفكاره بعيداً قليلاً عن عقله
الآن :

- الحامى أبلغنى بأن الرجل حُرر ضده محاضر كثيرة من قبل وجاري
البحث عنه، حتى عنبر التى لم تظهر سوى بعد أن علمت أن
والدتى بخير، عندما قبضوا عليها لم تستطع أن تدلهم على مكان
سكن مُحدد له ولا زالوا يحتجزونها لديهم حتى الآن.

أوماً بلال برأسه، وهو يُحاول فتح أحاديث جانبية مع هشام حتى
يصلوا إلى منزله، لقد استطاع أن يقرأ عينيه ونظراته المضطربة ووالدته
تمنحه عنوان الشقة المهجورة وتحديثه عنها، لذلك أراد صرف أفكاره
لبعض الوقت ليتمالك جأشه ولو قليلاً، ليستطيع المواجهة، لا مواجهة
الموقف، بل مواجهة مخاوفه!، فالمخاوف لا قيمة لها دون أن نؤمن بها،
ونُصدقها !.

- ياسين جارك فى نفس البناية، أليس كذلك؟

- نعم

ابتسم بلال وهو يُدير عجلة القيادة قائلاً بثقة:

- هذا يؤكد لي أن الحامى الذى تتحدث عنه هو فارس سيف الدين

إلتفت هشام نحوه بابتسامة صغيرة متسائلاً:

- كيف عرفت؟

ضحك بلال بخفة وهو يُجيب ببساطة:

– ياسين يُحب فارس جداً ويجمع له الزبائن من كل مكان

ابتسامة ضائعة ارتسمت على شفتيه وقد بدا الاهتمام يظهر على
نبرات صوته:

– هل تعرف الأستاذ فارس؟

ظهرت التسلية على ملامح بلال وهو يقول بحماس:

– صديقي منذ سنوات، منذ أن كان مُضطراً على مواجهة الشياطين
هو أيضاً، ولكنها كانت شياطين الإنس، وصدقني هؤلاء من يستحقون
خوفك بحق، سأحكى لك قصته فيما بعد، بعد أن ننتهي من أشباحك
الخاصة .

أخى كلماته وهو ينظر في المرأة أمامه يُبادل عبير النظرات بابتسامة
وهو

في هذه اللحظة كانت والدته هشام تمد يدها واضعة إياها على كتف
ولدها من الخلف وهي الأعرف بحالة في تلك اللحظة قائلة:

– سأذهب معك إلى هناك لا تقلق

** شخصيات فارس وبلال وعبير ومهرة أبطال رواية سابقة بعنوان – مع وقف التنفيذ –

حرك هشام رأسه نفيًا وقبل أن يجيب سمع بلال يتدخل قائلاً بحسم:

- لا يا خالة، سأقلبك أنت وزوجتي لبيتك وسأذهب أنا مع هشام

ثم وجه حديثه إلى عبير مُذكرًا أياها:

- حبيبتي، لا تنسي أن تهاتفى أختك لتطمئنى على الأولاد وتعلميها

أين أنت

أدار هشام رأسه نحوه بنظرات مُستنكرة، هل يقول لها حبيبتي أمام

الناس؟، هكذا ببساطة وكأنه يناديها باسمها !.

أوقف بلال السيارة أمام البناية ولا زالت قطرات المطر الخفيفة

تداعب وجهه عندما ترحل هشام من السيارة صاحبها فى تلك اللحظة

صوت آذان المغرب يصدح من المسجد القريب، دار حول السيارة من

الأمام ليواجه بلال الذى ترحل هو الآخر مُوصداً بإبها خلفه، مُستنداً

إليه وهو يُراقب خطوات زوجته إلى أن اختفت داخل البناية ثم استدار

تجاه هشام واضعاً يده على كتفه وهو يقول بأريحية وكأنه صديق قديم:

- نُصلى المغرب ثم ننطلق إلى هناك، سنجدها إن شاء الله، لا

تقلق؟

أوماً هشام موافقاً وهو يشعر بالألفة معه، بينما كان قلبه يُعاتبه

مُتسائلاً عن آخر مرة دخل فيها المسجد مُصلياً؟!.

عندما انتهت الصلاة وخرجا من المسجد ركضا إلى السيارة وقد بدأ المطر بارسال زخاته إلى الأرض مُعلِّناً عن انتهاء وقت الدعابة بىرق يصحبه رعدٌ شق السماء المظلمة، كظلمة مخاوفه التى لم تنطفئ نجومها بل تومض بقوة اعتقاده بها.

الشارع المظلم الذى ولجته السيارة بمساعدة مصابيحها والذى لم يكن خالياً تماماً من المارة، لازال البعض يدخلون إلى البنايات فيه جرياً تجنباً للمطر والبرك التى صنعت لنفسها زواياً حيوية منه كفخاخ للبشر.

أوقف بلال السيارة جانباً ببطء وحذر إلى جانب السيارات المرصوفة والمُعطاة منها إلى جانب البناية المقصودة تماماً، ترجلا من السيارة سريعاً قاصدين مدخلها مباشرة قبل أن تبتل ملابسهما بالكامل، الأضواء القادمة من الطابق التالى هى التى كانت تمد غالبية الطابق الأرضى حيث شقة رؤى بالإضاءة، فالمصباح الخاص به مُغطى بالغبار وإضاءته ضعيفة للغاية، رعشة صدمت أوصاله عندما وقعت نظراته على الشقة المنزوية خلف السلم قليلاً حيث ظلال الأضواء تقع على جزء منها صانعةً ظلالاً خادعة للنظر، رائحة الفُلفل الحارق مخلوطاً بروائح أخرى مُغلقة بالغبار تصل إلى أنفهما بشكل مُزعج، تحولت نظرات هشام إلى بلال الذى يقف بجواره يتأمل المشهد بتفاصيله وقال بضياح وكأنه تذكر للتو أن لكل شقة مفتاحاً يخصها:

- كيف سندخل ؟

مط بلال شفتيه وهو يضع يديه في خاصرته متسائلاً وهو يُقيم
الباب بنظره:

– ما رأيك، نكسره؟!

بعد ما يقرب من نصف ساعة كان هشام يُمسك بمفتاح الشقة بين
أصابعه المرتعشة وهو يقترب بحذر من الباب مُتحلياً بشجاعة ظاهرية،
بينما بلال بجانبه يسانده بنظراته ويومئ له برأسه، ومن خلفهما ببضع
خطوات تقف فتحة صاحبة البناية وبجوارها زوجها بعد أن كانت
رافضة أن تمتحهما المفتاح خوفاً من خروج اللعنة إلى بقية الطوابق
وطوال الدقائق الماضية وهما يتجادلان معها في محاولة إقناعها ولكن
لا جدوى، لولا تدخل زوجها الذى قلق بالفعل على رؤى بعدما علم
بأنها غائبة منذ الصباح وزوجها يبحث عنها، وهاهو وبعد معاناة معها
يقف بصحبتهما خلفهما فى انتظار النتيجة .

دفع هشام الباب بحرص ففتحه على مصراعيه أثناء ما كان بلال
يهمس له بتحرج وهو يُفكر بأنها لو كانت بالداخل فبالأكيد ستكون
مُتكشفة ولو قليلاً:

– هل تريد أن تدخل أنت أولاً؟

ابتلع هشام غصة بحلقه الجاف وعينه تحاول اختراق الظلام
بالداخل، فى محاولة ضعيفة للإجابة ولكنه لم يستطع نطق كلمة واحدة
عندما تسلل إلى سمعه همهمات آتية من الداخل، وفجأة ودون

مقدمات، دوت صرخة جعلت فتحية تقفز بين ذراعي زوجها الذى تتمم بالإستعانة على الفور وهو يتراجع بها خطوة للخلف كرد فعل غريزي، أما هشام فلقد انزلقت حرفياً كتلة من الثلج من أعلى ظهره وحتى نهايته وصولاً لقدميه، والبسملة لا تُفارق شفتيه، إلا أن خارجه كان صامداً كرجل أمامهم دون أن يسمح لقدميه بخذلانه، عندما شاهد بلال يتخذ خطوات ثابتة للداخل تبعه دون تفكير، يدها تتحسس الجدار بترقب فى انتظار شىء ما سيقبض عليه فى أية لحظة، فجأة أُصيىء مصباح الردهة فالتفت ليجد بلال يرفع يده من فوق زر الإضاءة خلف باب الشقة مباشرة ثم قال بخفوت:

– إعتياد أعمال الكهرباء تنفع أحياناً

زفر براحة وهو يدور ببصره بين أركان الشقة وركام الأتربة الذى علا كل شبرٍ منها يُخلخل ظنونه بوجودها هنا من الأساس، فى الاتجاه الآخر غرفة مُحترقٌ جزء من بابها ومتهالك لل غاية، عندما نظر بداخلها، حيث الجدران المحترقة السوداء، شعر بأنه داخل غرفة حُصصت لتحضير الأرواح كما كان يُشاهد فى بعض الأفلام القديمة، لم يدرك أن لسانه يُتمتم بما يدور بذهنه فى تلك اللحظة إلى عندما سمع بلال يقول مُعقّباً:

– الأرواح التى يقبضها ملك الموت عند انتهاء أجل أصحابها تذهب إلى عالم البرزخ، ولايستطيع أحد إحضارها من هناك

رفع هشام عينيه إليه بصمت يلاحقه إهتزاز مُقلتيه، فتنهد بلال
بعمق وهو يُجادل بنظراته عيني هشام المُتشككتين، أصنام الجاهلية
هُدِمت بقلوب من كفروا بما قبل سواعدهم، فهل تقدر قلوبنا اليوم على
كسر أصنامنا الخاصة؟! كسر

حاد هشام بنظره بعيداً نحو الممر المؤدى لغرف النوم، لم ينتظر هذه
المرّة نظرة تشجيعية من بلال، رجولته أبت ذلك، وفكر كما فكر بلال
من قبل باحتمالية وجودها بالداخل مُتكشفة، إن كانت موجودة من
الأساس، مرت عيناه سريعاً على الغرفة الأولى، فارغة سوى من أثائها
فقط، لفت انتباهه خف منزلي موضوع بعناية فوق الأرضية المُتغبرة
أسفل الفراش في انتظار قدمي صاحبه، سرت قشعيرة في جسده
واستكمل ازدراد ريقه وهو يستكمل سيرة للغرفة الأخيرة، كانت مُغلقة،
وقبل أن يمد يده ليتناول مقبضها ويعتصره ألقى نظرة للخلف، وشعوره
بتلك الإنقضاضة الخلفية يلازمه دوماً في كل حركة يقوم بها، دفع الباب
فجأة وهو يقف على عتبه كما فعل مع باب الشقة ونظرة واحدة إلى
الداخل جعلته يهتف بلوعة وهو يراها مُلقاة على الأرض شاحبة الوجه:

— جداول !

انخت عبير وهي تُطعم الفتاتين وتُداعبهما بينما والدته هشام تجلس
أمامها وتناظرها بامتنان شديد، منذ يومين وهي لاتفارقها إلا لساعات

قليلة، طلبت من ياسين تأجيل جميع مواعيدها في المركز الصحي، وتظل معها هي وأولادها في بيتها من بعد الظهر وحتى يأتي زوجها ليلاً ليقلها وأولادها إلى المنزل، زوجها الذي لم يترك هشام منذ أن وجدا رؤى في شقة عائلتها القديمة مُلقاة أرضاً شاحبة كالأموات، وفي المشفى ازدادت حيرتهما عندما قال الطبيب:

- صحتها جيدة، مجرد هبوط لا أكثر إلا أنها لا تريد التحدث مع أحد !

وعندما دخل هشام إليها في حجرتهما بالمشفى لم تنظر له وظلت عينيها معلقتين في الفراغ، وحين أمسكها من كتفيها ارتعشت ونفضت يديه بقسوة وكأنه أخرجها من مكان تحبه عنوةً، ولما ناداها باسمها المُحب:

- جد ايل

ظهرت على وجهها ابتسامة لا حياة فيها، ابتسامة تشفي، وتجمدت نظراتها بجفاء داخل عينيه وهي تُحرك شفتيها الباهتتين وتهمس بنبرة خافتة شرسة :

- جديلتك هذه تركتها ل هالة كما تركت أُمي للنار

لم يملك بعدها إلا أن ينصاع لنصيحة بلال عندما قال له:

- زوجتك تحتاج إلى مصحة نفسية، أنا أعرف طبيباً نفسياً جيداً يعمل في واحدة

وتم نقلها إلى المصحة ومن يومها وحتى الآن وهي تخضع لجلسات نفسية لتحديد نوعية مرضها المجهول هذا، ولقد كان من المستحيل تحديد هويته دون أن يعرفوا ما حدث لها بالضبط وهل لها تاريخ مرضي أم لا ؟، كانت الخيوط مُبعثرة، ومهمة الطبيب في جمعها كانت صعبة للغاية، منحته والدته رقم هاتف عمها في الخارج وعندما علم بحالتها وعدهم بالحضور السريع قدر ما يستطيع .

رفعت والدته هشام رأسها التي كانت مُستندة بها على رأس عصاها وهي تقول موجهة حديثها نحو عبير مقاطعة حديثها الذي كان من طرف واحد مع الطفلتين:

- لا أعرف كيف أشكرك انت وزوجك يا ابنتي على كل ما فعلتماه معنا

أرسلت عبير تنهيدة ناعمة وهي تلتفت نحو والدته هشام وتُجيب وكأنها لم تسمع شكرها الذي تكرر كثيراً على سمعها منذ أن حضرت صباح اليوم:

- خالتي، جنى و لجين تحتاجان إلى بيئة مختلفة، أشعر أنهما منطويتان أكثر من اللازم، هما في حاجة للاختلاط أكثر بأطفال، الروضة مهمة بالطبع ولكنها لا تكفي.

زمت المرأة شفيتها وهي تتأوه بيأس قائلة:

- النصيب يابنتي ماذا نفعل، ليس لدينا في أسرنا أطفال في عمرهما، أبناء عمتها الوحيدة كبار، وكذلك أبناء أخوالها، بالإضافة إلى أن العلاقات لم تكن تسمح بالزيارات من الأساس

نحضت عبير جالسة بجوارها وهي تربت على كتفها مُقرحة بجديّة:

- مارأيك يا خالتي، لقد تحدثت مع مُهرة صديقتي عنهما وهي طلبت مني أن أصطحبهما لزيارتها بعض الوقت يومياً

- هل هي طيبة تخاطب أو ماشابه؟

قالت عبير وهي تُلوح بيدها بحماس مبتسمة:

- أكثر من هذا، مُهرة لديها طاقة لا تنفد مع الأطفال، أطفال الحى لا يُغادرون بيتها، إلا إذا حضر زوجها من عمله أو طردتهم هي لتستذكر دروسها فهي لازالت طالبة جامعية .

صمتت والدة هشام لتفكر في الأمر، وعيناها مُعلقة بالطفلتين الجالستين بهدوء لا يتناسب مع أعمارهما في هذا السن، ثم أومأت برأسها موافقة لها، ولم لا، ربما تتغير نفسيتهما عندما يعيشان بعض أجواء المرح لبعض الوقت في بيئة أخرى صحية، بعيداً عما يُعانونه جميعاً هذه الأيام .

جلس عمها أمام الطبيب المُعالج، هو القريب الوحيد لها، هو فقط من يعلم عنها ما لم يعلمه غيره، حمد الله أنه استطاع الحصول على مقعد في الطائرة المتوجهة إلى القاهرة في اليوم التالى مباشرة من مكاملة هشام له، وهاهو الآن يجلس برزانة أمام طبييها وساعده يرقد بأريحية فوق حافة مكتبه وهو يجيب عن أسئلة الطبيب بصدق:

- نعم، بالرغم من تواجدى خارج البلاد بصفة مستمرة نظرًا لظروف عملى واستقرار أولادى فى دراستهم هناك إلا أننى كنت أتواصل هاتفياً كثيراً مع أخى رحمه الله وأعلم الكثير عنهم، والدتها رحمها الله منذ أن تزوجها أخى وهى تعانى من مرض الوسواس القهرى، وعندما حاول أخى أن يعرضها على طبيب رفضت بشدة واتهمته بأنه يريد وضعها بمشفى الأمراض العقلية، وقد كان رحمه الله يُحبها بشدة لذلك قرر أن يُعالجها بنفسه .

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه فى حقها دون قصد، فبعد أن بلغت جداول الخامسة عشر من عمرها زادت الوسواس لدى والدتها، بدأت تكره ابنتها وتقول بأنها تريد قتلها وهى نائمة، كانت تكره اسم جداول بشدة ليس لأنه اسم حماقاً فقط بل لأنه كان اسم التذليل الذى أصبح وكأنه هو الاسم الرسمى لرؤى، الاسم وحده كافٍ ليجعلها تنزعج حتى بدأت تُفصح عن وسواسها بوجه رؤى وتقول لها دوماً بأنها ستقتلها وبأنها تكرهها لأنها دميمة وعينيها رمادية تُشبه عيون الأموات، وبالرغم

من أن رؤى ليست دميمة على الإطلاق إلا أن معاملتها كدميمة جعلتها تعتقد ذلك بل وتخاف من لون عينيها المميز أيضاً .

كان خطئي أنا، فقد رأيت حالتها تسوء بعد موت أخى رحمه الله ولم أفعل شيئاً لها أو للفتاة المسكينة، بعد أن انتهى العزاء ذهبت إليهما لأودعهما قبل سفرى وسمعتها تشتمها بكلمات بذيئة وتتهمها بأنها قاتلة والدها، وبالرغم من ذلك سافرت وتركتهما وتخلّيت عن مسؤوليتهما بدعوى أن هاتفى معهما لو احتاجانى بشىء ضرورى سأكون عندهما فى اليوم التالى، بعد أشهر قليلة هاتفنى جد ايل و..

قاطعهُ الطيب الذى كان يُدون بعض الملحوظات فى دفترٍ خاص قائلاً بتنبيه:

– من فضلك، لا أحد يُناديها بـ جد ايل بعد الآن، من الواضح أن لديها إشكال مع هذا الاسم

أوماً له عمها بالموافقة دون أن يُعلق فأشار له الطيب بأن يستكمل بما يعرفه عنها فقال مُردفاً:

– بعد أشهرٍ قليلة هاتفنى رؤى وطلبت منى الحضور بشكل ضرورى لأن والدتها حالها تبدل من سىء إلى أسوء والجيران يُريدون طردهما من الشقة لأن والدتها كانت تصرخ طوال الوقت فكانت تُفزع اطفالهم، وقالت لي وقتها بأن جارة لها لا أذكر اسمها منحتها شقة أخرى بالإيجار فى مكان قريب من شقتها القديمة

ولكن والدتها ترفض الرحيل وترك الشقة، تأخرت في الحضور أسبوعًا كاملًا وعندما وصلت كانت والدتها حاولت أن تحرق نفسها ولكن رؤى منعتها في اللحظة الأخيرة وسمعتها تشتمها ثانية ولكن هذه المرة كان سبًا مؤذيًا للغاية حتى أن رؤى انهارت في بكاءٍ شديد وهي تقول " ليتني تركتك للموت " .

في نفس اليوم اقترحت على رؤى أننا يجب علينا البحث لها عن مشفى أو مصحة للعلاج بعد أن تنتقل إلى الشقة الجديدة ورؤى وافقتنى على اقتراحى، وبالفعل أجبرتها بالقوة على ترك الشقة وذهبت بها إلى الشقة الجديدة، في نفس الليلة استيقظت فزعًا على صوت انغلاق قوى لباب الشقة، بحثت عنهما فلم أجدهما، فتوقعت أن والدتها هربت وهي لحقت بها، ذهبت في إثرهما بعد أقل من عشر دقائق فوجدت الجيران مجتمعون أمام البناية وبعض من الرجال يحاولون كسر الباب والدخان ينسل من أسفله بكثرة، وبعد كسره وجدنا والدتها مُتفحمة بالكامل في غرفة المكتب و رؤى تقف في الردهة في حالة صدمة وانخيار، وسقطت بين ذراعي بمجرد أن لمست كتفها .

أنهى كلماته وهو يحرك رأسه بدهشة مُعلِّقًا:

- هل تعلم يا دكتور أن غرفة المكتب كان بابها مفتوحًا على مصراعيه وبالرغم من تخطيط المرأة وهي تحترق إلا أنها لم تخرج منه وضع الطبيب قلمه فوق الدفتر وهو يسأل باهتمام:

- لماذا تقول رؤى إنها قتلت أمها، هل وجهت لها الشرطة أي اتهام
أو ما شابه؟

حرك عمها رأسه نفيًا وهو يميل للأمام قليلاً ويجيب قائلاً:

- الجيران في البناية المقابلة قالوا بأنهم رأوا النيران من نافذة غرفة
المكتب قبل أن تصل رؤى بدقائق

أغلق الطبيب دفتره وهو يستند إلى سطح المكتب بمرفقيه وهو يقول
بجدية:

- سنحتاجك هنا معنا لبعض الوقت

ظهر عدم الإرتياح على وجه الرجل ومشاعره تتخبط بين الواجب
وعمله وأسرته في الخارج، ليس لديه الكثير من الوقت، يومان آخران
وسيضططر للعودة، قطع أفكاره طرقات على الباب من الخارج يعقبها
دخول هشام بملامح هففة مُتوقفةً إلى أخبار جيدة، حياه الطبيب وهو
يفتح دفتره قائلاً:

- يبدو أنني سأعتمد عليك وحدك يا أستاذ هشام فمن الواضح أن
عمها ليس لديه الكثير من الوقت

ثلاث نظرات تقارعن فيما بين أعينهم بين ثلاثتهم فقط ..

نظرة للخذلان ونظرة للأمل ونظرة للمجهول !

خلال الأيام السابقة تغيب عادل ليوم واحد فقط، أنهى فيه انتقال جدة زوجته إلى بيته وفعل ما كان ينتويه بخالها الحقيير ولم يتركه من قبضته إلا وهو كاره للعالم وللنساء خاصة، ثم عاد للعمل بعد ذلك ليتولى أمر غياب هشام عن العمل أثناء انشغاله مع زوجته والأطباء والذهاب للمصحة النفسية كل يوم وهو يقوم بعمله بدلاً عنه، وقد قص عليه عادل ما قالته له رؤى زوجته في القطار، وبأنها قالت من بين اعترافاتها المتوالية بأن والدته هشام علمت بالخلط الذى حدث بينهما واخبرت به جدائل، وتكتم الثلاثة الأمر فيما بينهم دون اتفاق حقيقي ولذلك ظهر الشحوب والإرتباك عليهما عندما ذهب هشام لزيارة عادل في منزله وتقابلت جدائل مع رؤى زوجة عادل للمرة الأولى منذ زواجهم، وكان تصرفاً ارتجالياً من كليتهما أن يظهرَا وكأنهما تتعارفان للمرة الأولى، وعندما اختلنا ببعضهما في الغرفة الداخلية حدث أول اتفاق حقيقي بينهما على ألا تخبر كل منهما زوجها بما حدث وليبق السر سراً للأبد ما دام إفشاءه سيُسبب ضرراً للجميع .

أستطاع الطبيب أخيراً أن يجعلها تثق به وتتحدث إليه عما ترى وتسمع والأشياء التى تترأى لها من دون من حولها، كان حديثها هو الخيط الأخير والذى استطاع من خلاله الطبيب ربط جميع الأحداث ببعضها البعض وإعطاء تشخيص نهائي لحالتها المرضية، وبداية علاجها

بشكلٍ صحيح، حينها حضر هشام في الموعد الذى حدده له الطبيب سابقًا وجلس إليه وبدأ يشرح له حالتها بشكل مُبسط يستطيع أن يفهمه وقال:

- زوجتك لديها حالة فصام، ومريض الفصام يُعاني من نوبات هلاوس وهذيان وضلالات تفصله عن الواقع تمامًا وتجعله مؤمنًا جدًا بما يرى ويسمع من أشياء عجيبة وغير واقعية، كأن يُقابل أناسًا غير موجودين على الإطلاق ويتحدث إليهم، ويكون مُقتنعًا بما يقولونه له، حتى لو قالوا له بأنه نبي أو رسول .

مَسَد هشام رأسه ثم جعل ينظر الطبيب بنظرات ضائعة يتكسر عندها الإدراك وكأنه لم يفهم ولو كلمة واحدة مما قال وهو يقول:

- لا أفهم، متى حدث لها هذا؟!، إنها كانت بخير وطبيعية جدًا، أنا أعرف أن الذى يُصاب بهذا المرض يكون له شخصيات متعددة ويتمصها وأنا لم ألاحظ شيئًا من هذا

ابتسم الطبيب ابتسامة من كان يتوقع سؤالاً كهذا وهو يُضيف موضحًا:

- ما نتحدث عنه يُسمى الإنفصام أو تعدد الشخصيات وهذا مرض مختلف عن مرض الفصام الذى تعانى منه زوجتك، مريض الفصام لا تتعدد شخصياته هو فقط يعيش في ضلالاته وهلاوسه،

ولو تُرك بدون علاج ستتفاقم حالته ومن المُمكن أن يؤذى نفسه
و من حوله أيضًا .

غرز هشام أصابع يديه في جانبي رأسه حتى إلتقيا من خلفها واستند
بظهره للمقعد وهو ينظر للطبيب الذى أدرك محاولات هشام
للإستيعاب فعدل من وضع نظارته فوق عينيه وهو يشرح أكثر قائلاً:

- مما سمعته عن والدة زوجتك يتضح لي بأنها كانت تعاني من هذا
المرض، والضلالات التى كانت تعاني منها كانت تجربها على كُره
ابنتها وتقول لها دائماً بأنها ستقتلها لذلك كانت تردد هذه الكلمة
دائماً على مسامع رؤى منذ سنوات، وعندما مات أبوها أمام
عينها ظلت والدتها تُقحم بعقلها أنها قتلت والدها، وبدأ
الوسواس القهرى عند زوجتك بتلك الفكرة، أنها قتلت والدها،
وكانت والدتها تُغذى المرض فيها بتلك الكلمات حتى هربت من
الشقة الجديدة وذهبت للشقة القديمة لتحرق نفسها هناك وعندما
لحقت بها رؤى ورأتها وهى تحترق وتموت حدثت لها صدمة عصبية
ووقفت مكانها ولم تتحرك، وأنا على يقين من أن الضلالات بدأت
تستفحل أكثر فى تلك اللحظة وتُقنعها بأنها قتلت والدتها بالفعل
لأنها تركتها تموت رغباً عنها ولم تتدخل لإنقاذها بالرغم من أنها
كانت مُصابة بصدمة وقتها، أتعلم أنها حكّت لي بأنها رأت هالة
فى القبر وهى توصيها على ابنتها؟

رفع هشام رأسه متشككاً وقد قطب بين حاجبية بشدة فأومأ الطبيب مُردفًا:

- أكاد أُجزم أنها كانت أول نوبة هلاوس تمر بها، وبدخلها كانت على يقين أن سبب انقطاع هالة عن زيارتها المتوالية في الروضة هو موتها.

- وهل كانت هالة رحمها الله تزورها دائماً؟!

- قالت بأنهما كانتا تلتقيان بشكل مُستمر، وفي كل مرة كانت هالة تُفضض معها ببعض من همومها القديمة وكانت رحمها الله توصيها بأن تُبقيها سرّاً بينهما فقط، مُعظمها كانت أشياء تخصك يا أستاذ هشام ولكنها كانت تعدها بأنك ستغير وستُعاملها بأفضل مما كنت تتعامل مع هالة، لأنك لم تكن تُحبها، وفي أحد هذه اللقاءات قالت لها هالة بأنها كانت تنوى بعد أن علمت رحمها الله بإصابتها بذلك المرض الخبيث إرسال حكايتها لبريد " بين الناس " ليتعظ الأزواج، ولكنها تراجعت خشية أن تقرأها فتجرحك الكلمات !

أطرق هشام برأسه وذكرياته القريبة والبعيدة تتناطحان في مدارٍ ثابت، هكذا إذن علمت رؤى تلك الأسرار التي قرأها في المجلة، وإلى هذا الحد كانت هالة رحمها الله كانت واثقة من أنه سيُحب رؤى، ولم لا وهى بنفسها كانت تُكرر تلك الجملة دائماً عندما يتشاجرا، بأنه لم يُحبها

ولن يشعر بالحب إلا مع غيرها، كان بداخلها ما يهمس لها بأنها ليست أهلاً للحب في هذه الدنيا، إذن فلا وجود لشيء يسمى شبح هالة أو روحها عادت لتنتقم ممن أذوها وهى حية، جميع ما حدث كان من صنع مرض رؤى النفسي وخيالها الضالة !.

نفض الطبيب من خلف مكتبه والتف حوله حتى وقف خلف مقعد هشام مباشرة ثم وضع كفه على كتفه من الخلف وهو يكاد يسمع ضجيج أفكاره في تلك اللحظة ثم قال:

- رؤى كان لديها استعداد وراثي للمرض، ارتبطت بهالة للغاية وعاشت ألمها بكل جوراحها حتى أن جزء في زاوية ما بقلبها حقد عليك لأنك كنت السبب الرئيسى من وجهة نظرها في كل الألم الذي تراه مُتجسداً في هالة، تلك الزاوية المظلمة أنت غديتها عندما رفضتها، ذلك الرفض أكد بداخلها ما كانت تزرعه والدتها بأنها مرفوضة ودميمة، الصراع الحقيقي بداخلها بدأ عندما رأيته في شقتها الجديدة وأعجبتك وبدأت تتودد إليها، لم تكن تناديهما سوى بجدايل، شعرت بأنها تأخذ شيئاً كانت هالة محرومة منه وتبكي لأجله، وبداخلها كرهت جدائل !، نعم كرهت هذا الجزء من شخصيتها، الجزء المحبوب الذى سطا على شيء ليس له، وأعتقد أن بداية هذا الكره بدأ في ليلة زفافكما عندما جسدت لها ضلالاًتها صورة هالة وهى تبكى في المرأة !.

التفت هشام إليه وهو يتذكر تلك الذكرى التى لسعته للتو بمجرد أن تكلم الطبيب عنها، يتذكر جيداً الرعب الذى عاشه فى تلك الليلة، بسبب الفزع الذى ظهر على وجهها وهى ترتد إلى الخلف وتصرخ مُشيرة للمرأة، فهل كانت تمثل قاصدة إرغابه؟!، نهض واقفاً بحدة وهو يتكلم بما اعتمل بصدوره مُتسائلاً:

– هل كانت تعرف ما تفعله؟

سار الطبيب بخطوات رتيبة حتى وصل للمقعد المقابل له خلف المكتب وجلس بهدوء، كان ينتظر هذا السؤال من البداية، نفس السؤال الذى يتكرر على مسامعه كلما واجه حالة مُشابهة، فى كل مرة شيئاً ما بداخله يُخبره بأن التساؤل ليس بريئاً أو فضولياً، بقدر ما هو استفهام لتحديد المشاعر التى سيشعرون به نحو مريضهم، هل سيكرهونه لإدراكه ما يفعل أم سيشفقون عليه لمرضه الذى نزع عنه التحكم، ألا يكفى ما يُعانى منه، ليجعلهم يتفكرون أكثر فى الأسباب التى أدت به إلى هذه الحالة، أم كل المهم فى تلك اللحظة معرفة مدى مسؤوليته عما يحدث، مثلهم مثل القضاة ليتم إصدار الحكم على أساس التقرير الطبى؟!، عندها شرد فى قول إحدى زميلاته الطبييات لما كان يُناقشها عن مدى تعاون أهل المريض معها فقالت له مُجيبة تساؤله " لا يهمهم أن يُخرجوه من ظلمته، بقدر ما يهتمون بمدى مسؤوليته عن

إسدال الستائر السوداء " ، رفع عينيه إلى هشام الواقف أمامه بشيء من التحفز وقال مُجيبًا وهو ينظر لعينه بعُمق وتركيز :

- هل تستطيع أن تشعر يا أستاذ هشام بمعنى أن صوتًا ما يظل يهمس في عقلك ليل نهار بأنك سارق !، بأنك قاتل، بأنك تأكل فاكهة مُحَرمة !، ولابد وأن تتعذب بها وتخرج من جنتك !، هل تستطيع الشعور بمشاعر المريض عندما يرى وحده أشخاصًا وهمية يدورون من حوله في كل مكان يأمرونه بشيء ويقنعونه بتنفيذه، حتى لو هذا الشيء هو التخلص من حياته !، إذا استطعت الشعور بذلك فوقيتها ستعلم الإجابة الصحيحة .

خرج هشام من حجرة الطبيب بعد قليل من المناقشات الأخرى عن حالتها ودوره هو في الأيام المقبلة، وقد توقف عقله عن طرح الأسئلة، وبدأ يأخذ منحى آخر عن كيفية إخراجها مما هى فيه، وبداخله يقين بأنه هو المسؤول الوحيد، لابد وأن يتخلص من تلك النظرة الضيقة التى أهلكت الماضى وكانت فى طريقها لسحق الحاضر أيضًا، عندما وصل إلى حديقة المصححة النفسية وجد بلال ينتظره هناك، وبمجرد أن رآه قادمًا نهض واقفًا واقترب منه يربت على كتفه متسائلًا عن حالتها وهل استطاع الطبيب تشخيصها والإلمام بما أم لا، جلس هشام إلى الأريكة

الخشبية بجواره وهو ينظر إلى المساحة الخضراء أمامه مجيباً بضمير
مُعذب:

- زوجتي هالة رحمها الله كانت تقول لي دوماً والعبرة تخنقها بأنني
سأحب من بعدها وسأتعذب بهذا الحب مثلما شقيت هي بحبي،
الآن شعرت للمرة الأولى بما كانت تشعر هي به رحمها الله
جلس بلال بجواره وهو يلتفت بجسده كلية تجاهه قائلاً:

- من الجيد أن نتعلم من أخطائنا السابقة ونتخذها زاداً لحاضرنا
ومستقبلنا، لا أن نقتل أنفسنا بها، والدتك قالت لي ما رأيته من
بشريات على وجه زوجتك الراحلة أثناء تغسيلها ولو كان الأمر
كذلك فاعلم أنها الآن مُنعمه وقد نسيت كل أذى لحق بها في
الدنيا، وكأنها لم ترى شراً قط في حياتها، هكذا هي أرواح المؤمنين.
مال هشام بجذعه للأمام وقد ارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهه
وهو يقول مُستبشراً:

- هالة في أيامها الأخيرة لم تكن تترك ليلة إلا قامت فيها تُصلي
حتى تتعب وتنام في مكانها، عندما حملت نعلها كانت أخف ما
يكون ورائحتها كانت طيبة للغاية لكنني وقتها كنت مشغول
بمسؤوليتي الجديدة فلم أنتبه إلى كل تلك العلامات الرائعة
ابتسم ساخراً من نفسه وهو يُعقب على حديثه مُتابعاً:

- الطبيب قال لي أنها كانت في منتهى الذكاء عندما كتبت لي في
نهاية وصيتها

" أحذر غصبي " كانت تخشى على الفتاتين مني فكتبتها على سبيل
التحذير وهى موقنة بأنني سأتوقف عندها كثيراً، تصور يا دكتور بلال،
أنا بالفعل صدقت أن روحها عادت لتنتقم مني ومن زوجتي ووالدتي .
تبسم بلال بدوره مُستنداً إلى ظهر الأريكة مُكتفياً ذراعيه فوق صدره
وقال:

- ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان عندما يموت
وتقبض نفسه تصعد بها ملائكة الموت إلى السماء ولا تهبط بها إلا
عندما يدخل جسده القبر، فتُعاد روحه إلى جسده بكيفية لا
يعلمها إلا الله، وتُجلسه الملائكة ليُسئل عن عمله ودينه ونبيه، لو
كان خيراً فستصبح روحه مُنعمه، وتلك الروح الطيبة المُنعمه لا
تعود لتنتقم يا هشام، بل أكثر ما تستطيعه هو أن تاتى في منام
مُستبشرة تُبشر أحبائها بالخير، أما إذا كانت روح فاسق والعياذ
بالله أو عاصى فروحه مُقيدة فى شغل بعدائها، كما هو السجين
المُعذب لا يستطيع فكاًكاً، والاثنان فى عالم البرزخ حتى قيام
الساعة، وما نسمعه من حكايا حول رؤية روح أو شبح فلان
الذى مات فهو إما أن يكون مجرد تخیلات أو أن الجن تشكل فى
صورة ذلك الشخص لأي سبب كان، وهذا الأخير حله بسيط

للاغاية، سورة البقرة وينتهى كل شيء، لكن لابد أن نؤمن بذلك لا أن نفعلها على سبيل التجربة .

غلف حديثهما الهادىء المتأمل انسياب زقزقة العصافير المتناغمة بينهما وقد سطعت أشعة الشمس فى ذلك اليوم بالرغم من برودته التى تُعلن عن رحيل فصل المطر بكل ما فيه من شجن ووجع، تاركاً ذكريات دافئة لا يمكن محوها .

تنفس هشام بعمق قبل أن يُحرك رأسه مؤكداً وهو يتذكر حديث صديقه عادل عن سورة البقرة، أدرك الآن لماذا لم يكن يحصد ثمارها، لأن كل ما كانت تراه رؤى هو محض عقلها فقط !، تغضنت زوايا عينيه عن ابتسامة حزينة وهو يتذكر كل الليالي التى جافاه النوم بها وهو يشعر بها حوله، وينسب لها كل فعل غامض مر به، حتى المرأة العجوز فى المتجر، تباً للوهم !

- ألم تخشَ على نفسك يا دكتور ونحن نقف على باب الشقة ونفتحها؟

التفت إليه بلال بابتسامة مُتعبجاً من سؤاله المتأخر جداً، رفع حاجبيه بدهشة وهو يجيبه ملوحاً بيده ببساطة:

- ألم تسمعنى ونحن فى السيارة قبل المغرب وأنا أهمهم بأذكار المساء كاملة وآية الكرسي؟!، ثم أننا كنا على وضوء وقد صلينا المغرب فى المسجد فممن أخشى إذن؟!

تتحنح هشام بحرج وهو لا يعلم بماذا يُجيب، لقد كان وقتها في عالم آخر يحارب مخاوفه وقلقه من كل شيء، فنهض وافقاً ليرحل مُعتذراً، وعندما عرض عليه بلال أن يقله إلى حيث يشاء بسيارته، رفض شاكراً إياه فهو يريد أن يسير وحده قليلاً، ليحاسب نفسه ويضع يده على مواطن الزلل فيها .

سار بطيئاً وهو يتأمل الطريق المُبعد أمامه وكلمات الطبيب الأخيرة تُحلحل ثوابت ذكرياته عن زوجته وتتغلغل به في انسانية أخرى لم يكن يعلم عنها كل شيء، كيف يمكن لامرأة أن تكره جزء من شخصيتها؟!، الجزء الذى حظى بحب والدها وكرهته والدتها، ثم حظى بحب هشام وتقبل والدته فلم لا تكرهه هالة؟ لابد وأنها كرهته ولا بد وأنها تريد الانتقام مثل والدتها تماماً!، جدائل تلك انتزعت كل شيء وسرقته من رؤى ثم من هالة فلا بد وأن تختفى، أو ربما تموت!، هكذا قالت للطبيب وهى تعانى إحدى النوبات بينما هو يستدرجها، وهكذا حاول الطبيب شرح حالة رؤى له بكل ما يستطيع تبسيطه من معلومات عما يعتمل بوجودها، لن يدفن رأسه في الرمال كالسابق، سيقف بجوارها حتى تُشفى وتخرج من المصححة وقد تصالحت مع نفسها قبل أن تتصالح مع من حولها، ولكن هذا لا يكفي، لابد وأن يقوم بالفعل ولو مرة واحدة، لا أن تكون كل تصرفاته مجرد، ردود أفعال!..

بضعة أشهر أخرى خضعت رؤى خلالها للعلاج الدوائى والجلسات المكثفة، منع عنها الطبيب الزيارات ليُجلى ذهنها من كل انفعالات متخبطة من الممكن أن تتعرض لها إذا رأت هشام أمامها، لم تكن الجلسات بنزهة خفيفة أو مجرد حكايات فهى فى الأصل لم تكن تعترف بأنها مريضة وبأن كل ما عاشته مع هالة بعد الموت كان هلاوس وضلالات، وأن كل ما رآته فى شقتها المهجورة كان من صُنع عقلها، رفضت وقاومت ورفضت الحديث بل ورفضت أن تفتح عينيها أثناء الجلسات وازدادت وتيرة النوبات، لذلك أصر الطبيب على بقاءها فى المصححة وعدم خروجها حتى تبدأ تتعرف على مرضها، فلو أدركته على حقيقته لخطت خطوة كبيرة فى طريق علاجه، وكانت الأشهر الماضية كفيلة بذلك، استطاعت أن تفهم ماهية مرضها، طبيعته وطريقة التعامل مع نوباته وهلاوسه، لازالت تذكر الصفعة التى سقطت على وجهها عندما كانت بشقتها وسمعت الباب الخارجى يُفتح، وقتها كانت ترى هالة تُعذب جدائل، ولكن الآن أدركت أن تلك الصفعة كانت من يدها هى، وقد سقطت على وجهها هى أيضاً، وعندما بدأت ترى الأمور من منظور مختلف سمح الطبيب لها بالزيارة، وكان أول زائر لها هو هشام، كان يحمل لها مُفاجأتان، اختار أن يمنحها إياهما فى نهاية الزيارة لتكون خاتمتها سعيدة لها .

استقبلته ببرود في حديقة المصححة الصغيرة، حتى أنها لم تبتسم لعينيه وهو مُقبل عليها بلهفة وشوق، كتفت يديها فوق صدرها بينما يمد يده ليصافحها، تجاهلت يده ونظرت في الإتجاه الآخر وهى تقول بجفاء:

– لماذا لم تحضر معك جنى و لجُين، لقد اشتقت إليهما

جلس على مسافة غير قريبة منها كما نبهه طبيبها من قبل وقال

بابتسامة:

– وهما أيضاً اشتاقا لكِ للغاية، سترينهما في الزيارة القادمة بإذن الله

صمتا ولكن الكون لم يسكت، النسائم الباردة كانت تحوم حولهما تتلمس دفاء أنفاسهما، وأصواتٍ قريبة مختلطة تنكسر أمواجها في المساحة الشاغرة بينهما بدوى صامت كصمتها الظاهري فقط، بينما هو لايجرؤ على الخطو فوقه أو تجاوزه، حتى استطاع إجبار نفسه على الخروج من خلف ذلك الصمت الساتر الذى يحتمي به، والذى تشققت قشرته الخارجية وصار يتهاوى بعد أن قال لها بخفوت:

– ساحبيني، أنا لم أشعر بكِ كفاية

إلتفتت إليه دفعة واحدة بحركة حادة وصدرها يكتم أنفاسه رغماً عنها بينما تتكلم من بين أسنانها بغضب خافت، يكاد يصل إلى الهمس:

– أسامحك !، ومن أنا لأسامحك، أنا حية، أعيش، أنتفس، لى إرادة القبول والرفض، أما من تستحق طلب السماح الحقيقي منها،

ميتة، لا إرادة لها، تحت التراب، فلا هي تملك ان تُساعحك
وترتاح، ولا هي تملك أن ترفضك وتُحيل حياتك إلى جحيم،
ذهبت إلى ربها بألمها ووجعها الذي كنت أنت السبب فيه، بينما
أنت تعيش حياتك وتزوج وتُحب وتسعد، وتنساها .

رفعت يدها وهي تُشير إلى صدرها هامسة بحقد لا تعلم إلى من هو
موجه في تلك اللحظة لنفسها أم له أم للآخرين معاً:

- تتزوج من أخرى، تُحبها كما لم تحب هالة، تقول لها ما لم تقله يوماً
لهالة، تحميها وتُساعدها وتُسعدها وتفهمها كما لم تفعل مع هالة،
أخرى سارقة، تُحب دوماً أن تأخذ ما ليس لها، تنعم به بأنانية بينما
من تستحقه تصرخ وتصرخ وتصرخ ولا أحد يسمعها .

الكلمات الأخيرة خرجت عن حدود الهاتف، خرجت من حلقها
بصراخ متألم يتلوى كعواء حيوان يحتضر، صراخها لفت الأنظار ولاحظ
هشام الطبيب مُقدّم عليهما بخطوات سريعة وقد كان يُراقب الوضع من
قريب، وعندما وقف بجوارها قال لها مُعاتباً:

- ألم نتفق على أن نكون هادئين اليوم

شردت قليلاً قبل تقول بخفوت وهي تحيد بنظراتها عنهما:

- أريد أن أصعد لغرفتي

كاد هشام أن يناديها بجدايل وهي تستدير لتصرف ولكنه تذكر ما قاله الطبيب بأن لا يفعل، ليس قبل أن تتصالح مع ذلك الاسم مُجدِّداً، فنادها على الفور قبل أن تبتعد وهو يحث الخطوات نحوها:

– رؤى، لا زال هناك شيئاً هاماً أود قوله لكِ

حثها الطبيب على النظر إليه وعندما التقت عيناها قال بحماس:

– لقد راسلت الأستاذ عبد الخالق مروان وهو وافق على مقابلتي،
التقينا منذ أيام وتحدثنا عنكِ

نظرت له بتحفز ثم تبادلت النظرات مع طبيبتها قبل أن تقول بترقب:

– عني أنا ؟!

أوماً برأسه والحماس لا يزال يشوب نظرتيه ونبرة صوته وهو يجيبها:

– الرجل كان في الأصل يبحث عن عنوانك أو شيء يتواصل به معكِ، وعندما علم بأنني زوجك رحب بمقابلتي جداً، هو مُعجب جداً بأسلوبك في الكتابة إليه ويقول بأنك موهوبة ويريد التحدث معكِ شخصياً، فهل تسمحين له بأن يُراسلك؟

اختلط الترقب الذي كان يكسو ملامحها بشكٍ وتكذيب لكل كلمة قالها فالتفت الطبيب نحوها وقال مؤكداً لحديث هشام:

- حقيقي يا رؤى، والأستاذ عبد الخالق هاتفى ليطمئن على حالتك وهو سعيد جداً بتقدمك فى العلاج ويريد أن يُراسلك على بريدك الإلكتروني

رفعت كتيها حائرة ولا زال الشك يعبث بها وقالت بنظرات تائهة:

- ولكنى لا أملك واحداً !

أشار لها هشام بيده أن تنتظر لثوانٍ، عاد سريعاً إلى الأريكة الخشبية حيث كانا يجلسان منذ قليل، حمل الحقيبة الجلدية التى تركها هناك ثم عاد إليها وقدمها لها وعيناه تترجأها لأن تقبلها قائلاً:

- هذا حاسوب محمول تستطيعين مراسلته عن طريقه،

ثم تابع بحرج بالغ ظهر جلياً فى حركة عينيه التى انخفضت قليلاً للأسفل ويديه التى لم تعد ممتدة باستقامة نحوها:

- صحيح هو مُستعمل، وليس به إمكانيات كبيرة، ولكنه يفى بالغرض

أشار الطبيب للمرضة أن تأتى لتصحبها ولكنها غادرت بخطوات مترددة دون أن تلتفت، أطرق هشام رأسه أرضاً بإحباط وقد كان يتوقع رد فعل مختلف على ما قاله لها، ولو حتى ابتسامة صغيرة تبثه الأمل، وضع الطبيب راحته على كتفه وسار إلى جواره لخطوات قبل أن يقول بتفهم:

- ما رأيته حاليًا هو أفضل بكثير مما كنت أتخيل، كنتُ أعتقد أنها لن تنظر إليك بالمرّة ولن تتفوه بكلمة معك وستتجاهلك كليًا، ولكن التفاعل الذى حدث منها أيًا كان هو علامة مبشرة للغاية على تقبلها لك بحياتها، بل وتلومك أيضًا، وهو مؤشر قوى لبداية تسامح بقلبها تجاهك، اصبر قليلاً والتزم بما اتفقنا عليه فى كل زيارة قادمة ولا تتعجل خروجها من هنا .

كان يعلم جيدًا إلى أين تأخذه خطواته ذاك النهار، حيث الهدوء والصمت اللانهاى، حيث الماضى الذى يحن إلى أيامه، ويتمنى أن يمرق شيئًا منه إلى حاضره، الماضى الذى مر من بين أصابعه وهو عالق فى التمنى، مُنتظر أن تُحل مشاكله تلقائيًا دون تدخل منه !، تلك المشاكل التى تلوى حلقه الآن بمرارها حيث اللاأسف، أللا رجوع، حيث لا مفر من الوقوف امام قبرها بخشوع، والدعاء المفروط من عقد الدموع، مُحاولاً بجهد سحب أخطائه من فوق قمم جبالها، تحريرها من عقابها، ربما من بين ندباتها تظهر حلولها .

وقف أمام القبر لايدرى ماذا يقول، إلتصقت الكلمات بحلقه، منذ متى وهو يفكر قبل أن يتحدث إليها، أليس الحديث إليها سهلاً الآن؟!، فلماذا يهاب، لم يعد الآن وجود للحد الفاصل بينهما، الحد الوهمى الذى اكتشف أنه كان يبنيه بنفسه ويحرص عليه، ابتسم ساخراً

من نفسه وهو يهمس مُعترفًا بذاك لنفسه قبلها ويهبط على ركبتيه أمام
حروف أسمها المنقوشة فوق شاهده:

- دومًا ما كنتُ أراكِ أفضل بكثير، بكثير مما كنت أبوح به أمامك،
كنتُ أشعر بأنكِ تستحقين شخصًا أفضل، بأنكِ زائرة في بيتي،
حبك لي كان أقوى من أن أستوعبه، من أن أتعامل معه بما
يستحق، كنتُ أرى نفسي أقل بكثير من أن تمنحيني كل شيء كما
كنت تفعلين، منحتيني كلك وضننتُ عليكِ ببعضي، لا لبخل
مني، ولكن لخوفي من أن يكون هذا البعض لا يليق بكِ، وبدلاً
من أن أبذل الجهد لتحطيم هذا الحد الوهمي، أستسلمت لسليبي
وتركتكِ تعانين متصورة بأنني لا أحبك .

مال بزاوية حادة بجذعه نحو الجزء المرتفع من القبر، حتى تغبر طرف
أنفه بترابه هامسًا بأذنه كما لم يفعل يوماً مع من تسكن وحشته، متوهماً
سماعه لحفقات قلبها:

- صدقيني أحبتكِ يا هالة، الآن أمنح عمري لأي وسيلة مُستحيلة
تجعلكِ تُصدقين، بينما كانت الوسائل كثيرة أمامي من قبل وأنتِ
على قيد الحياة فلم أعرها اهتماماً يليق بكِ، أزاح موتكِ رداء
صمتي وظاهر خذلاني المتكرر لكِ بوضوح يُعزيني ويكشف
مساويتي، أنا أطلب الصفح منك، متأخراً جداً أعرف، ولكن أن
آتي متأخراً خيراً من لا آتي أبداً .

سقطت دمعاته الصامته فوق التراب الجاف أسفل وجهه، فتركته نديًا، بينما جذب بصره للأعلى أشعة الشمس التي بدأت تعلو من فوقه وتبعثه راحة دافئة في قلبه، أعاد نظراته المحملة بروحه إلى القبر من جديد وهو يستقيم قليلاً هامساً:

- حبيبي، علمتُ بأن الدموع والحسرة والندم لن تُفيدك، فأرجو ان يتقبل الله مني ما سأفعله لك من صدقات جارية، وهذا أقل ما أقدمه لك بعد أن فشلت بتقديم أبسط ما تتمنين في دنياك، أبشركُ بأن بناتك تحسننا كثيراً وأصبحنا تقارباً في حديثهما غيرهما من الأطفال، والعام القادم إن شاء الله ستكونان في صفهما الأول في المدرسة، أوقاتي التي كنتُ أبخل عليهما بما أمنحها لهما الآن بكل حب، سأحضر اسمك بقلبيهما إن شاء الله حتى لا تسجد إحداهما سجدة في يوم من الأيام دون أن تتضرع إلى الله بالدعاء لك .

شعر بخطواتٍ تتقدم نحوه يتبعها كف ثقيلة استراحت على كتفه من الخلف، وبرد فعل تلقائي أخرجه من حالة الطوف التي كان يدور قلبه بها في التو، انتفض ناهضاً مُلتفتاً خلفه، فوجد امرأة عجوز سميكة تتوشح بالسواد وتغطي به نصف وجهها قائلة برجاء:

- رحمة ونور يابيه

لم تستطع رؤى أن تُنكر أن رسالته الأولى إليها والذي كان يرد بها على رسالة منها لُتُعرفه بنفسها على استحياء؛ رفعت من معنوياتها إلى قمم الثقة التي لم تزورها يوماً، وكأنها منطقة ضبابية موضوع عليها للأبد لافتة ممنوع الاقتراب، خطراً، توقفت عينها كثيراً على كلماته عن إيمانه بموهبتها وقدرتها على تحمل مسؤولية عامودٍ كبداية لها ضمن عواميد التواصل مع القراء بالجملة، وعندما سألته عن مدى توافق ما يقوله مع حالتها العقلية وهل سيثق القراء بها أم لا؟، قال لها حروفاً نقشتها في قلبها بعد أن منحتها الشعور بالاختلاف الجيد، " الفرق بين الجنون والإبداع شعرة واحدة، العبقرى مجنون بطبعه إلا أنه يُدرك ذلك ويقوم بتوجيهه داخل إطار إبداعي، وهذا هو الاختلاف " .

بعد تلك الكلمات قررت الموافقة على عرضه بالكتابة الحرة في عامود خاص بها في المجلة التي يكتب بها، وستكون كتاباتها تحت عنوان " قالت لي "، وعندما ناقشت الأمر مع طبييها قال مُشجعاً:

- اسمعيني جيداً يا رؤى، أنتِ الآن تخطيت مرحلة كبيرة في طريق العلاج، تعرفين مرضك وتعرفين كيف تواجهيه بمقاومة تلك الهالوس، لو اخترت الطريق السهل معكِ والذي يتبعه معظم الأطباء العرب بل والكثير من غير العرب أيضاً، لكنت منحتكِ الأدوية وتركتكِ تخرجين بعد أيام تصل بحد أقصى إلى الشهر من المصححة على مسؤولية عائلتك وينتهي دورى بعد أن أنبه على

عائلتك بأنك لو توقفتى عن تناول الدواء فسيعود المرض أقوى مما كان، وتظلين طيلة حياتك أسيرة تلك العقاقير التى لن تمنحك سوى البرودة مع زوجك وكثرة النوم والهدوء الخادع الأشبه بالمخدر، إلا أننى أستخدم معك الطرق الأصعب للعلاج ولكنها الأنفع لك فيما يخص حالة الفصام تلك، أنا أعتمد على قوتك فى الرغبة بالشفاء الكامل وقد توقفنا تدريجيًا عن الأدوية ومستمرين بالجلسات، وستظلين هنا فى المصححة حتى إذا أدى الأمر لعام أو اثنين، حتى تتغلبين عن الهلوس والضلالات التى تعتريك وترفضينها بإرادتك وليس بتلك العقاقير، عندما تحدثت إلى الأستاذ عبد الخالق مروان شرحت له أن ما يدور بذهنك سيظل لامعًا متوهجًا مادام فى عقلك فقط، أما لو خرج على الورق، بل وتفاعل معه الناس وحدث خلاف ونقاش، سينطفئ من تلقاء نفسه ويدبُل، نعم ربما لا ينتهى تمامًا ولكنه سيأخذ مساحته الخيالية التى توجد لدينا جميعًا مع الفروق الفردية طبعًا ولكنه فى كل الأحوال لن يتعدها، وافقى يا رؤى واكتبي وتحدثي إلى الناس بما تريه حتى لو كان هذيانًا !

حديث الطبيب، وإيمان الأستاذ عبد الخالق مروان بها ألهب حماسها، إلا أنه لم يمنع ذاك الخوف الدفين من الفشل، الفشل الذى كان يتجسد فى الضلالات الكثيرة التى تنتابها باستمرار والتى تتجسد لها بوالدها وهى تقول باذنيها " أنتِ فاشلة "، والحزى والأسف الذى تراه مُتجسدًا

فى وجه هالة التى تأتىها من عقلها لتهمس لها " هل ستسعدى بنجاحك
بىنما كنت أنا أتعذب "، ثم يأتى والدها لىلاً بدماءه التى تقطر من
حنجرته لىصيح بها زاجراً " كيف تفعلین أمراً دون موافقتى "، وفى كل
يوم تهمس لنفسها بأنهم لیسوا حقیقیون !

مع الوقت تعلمت بالطريقة الصعبة أن تتجاهل تلك الخیالات
والأصوات، لأنها أدركت ببساطة أنها تنبع من عقلها فقط، لیست
حقیقیة، وكأن اللحظة الفارقة بعمرنا هى تلك التى نتوقف خلالها عن
تنفس الزیف وفتح نافذة جديدة مُحملٌ هواءها برباح التغبیر، فوافقت
وأرسلت له بریداً إلكترونیاً تُعلن فیه موافقتها، فأجابها بسعادة أنه
سیدمها بنفسه للقراء فى عدد المجلة القادم وهو یضمن لها یقین أن
طبعات المجلة ستنفذ من أجلها، من أجل تلك الکاتبة الغامضة التى
كانت الأموات ترأسله عن طریقها !.

لأول مرة تغمرها سعادة خالیة من تأنب الضمیر على مدى سنوات
عمرها وهى تُمسك بالمجلة بین یدیهما وتقرأ ما كتبه عنها بفخر، وهو
یحكى قصة صمودها رغم كل ما عانتها، وبعدها قراءة بکاتبة صحفیه ذات
طراز فزید، قلمها لن یتقید بقیود المنطق أو الواقع، وستعامل مع
رسائلهم على أن كل ما حوّاها حقیقی جداً، مهما كان خیالیاً جداً !،
بل وستجیبهم على تساؤلاتهم بخیال یفوق خیالهم بكثير .

وترقرق الدمع بعينيهما عندما وصلت لآخر كلماته وهو يختتم مقالته
كاتبًا:

- وأعرف أنها من النفوس الطيبة التي تغفر مهما قست عليهم
الحياة وتنتظر الخير العميم الذى تدخره لها الأقدار .

عندها نهضت من فوق الأريكة الخشبية فى طريقها لغرفتها حيث
الحاسوب المحمول وقد نسيت تمامًا هشام الجالس بجوارها والذى أحضر
لها المجلة اليوم ومنحها إياها بابتسامة مُشجعة، ولكنها توقفت فجأة قبل
أن تهبط أول درجة من السلم الحجرى القصير الذى يعلو أرض الحديقة
الخضراء الندية، أصوات لعب جنى و لجُين هى ما جعلها تتوقف
وتستدير نحوهما، حتى هذه اللحظة لا تُصدق بأنهما قد تغيرا تمامًا وكأن
الحياة الطفولية الصاخبة قد دبت بهما من جديد، فرت دمعة رغبًا عنها
من سجن جفניה وهى تراقبهما وحينها شعرت بأنامل هشام تمسحها
بخفة تشي بوقوفه قريبًا جدًا بجوارها، أسبلت جفניה وهى تدفع عقلها
بالنظر إلى الماضي نظرة محايدة تحصه هو وهالة، ثم رفعت عينيهما ببادرة
لم تصدر منها نحوه إلا اليوم وقالت بهدوء:

- امنحنى بعض الوقت

ابتسم وهو ينظر إلى عينيهما نظرة متوهجة مُفعمة بسطوع مُفاجيء
لأشعة الأمل بمقلتيه فرفعت حاجبيهما وتمتمت بدهشة:

- أنا لم أقل شيئًا، يستحق كل هذا،

قاطعها على الفور بشغف وليد للتو حاول التحكم به، مانعاً قدميه من الاقتراب تلك الخطوة الأخيرة والوحيدة الفاصلة بينهما:

- ليس لكلماتك فقط، بل لأن عينيك الشتوية قررتا أخيراً العفو عني وأنت خصامها الطويل لعيني .

ظلت تنظر إليه لثوانٍ محدقة به وكأنها لا تستوعب ما قاله، شعر هو بأن تلك الثوان دهوراً طويلة منتظراً أحد ردود الأفعال الإنفعالية على كلماته، ولكنه وجدها أخيراً تُرفرف بأهدابها سريعاً ثم تُطرق أرضاً وتلونت وجنتاها منذ أشهر بعد هجر طويل خلف الشحوب وقد أدركت للتو ما حدث من تقارب بينهما، وغمغمت بشيء ما فهمه هو على أنها تستأذن للانصراف وهي تخطو خطوات سريعة هابطة الدرجات القليلة، قاطعة الحديقة بسرعة يغلفها الإرتباك وتقترب إلى العدو مما جعله يبتسم وهو يستنشق الهواء بقوة ويملاً به صدره بتفاؤل لم يشعر به منذ شهور مضت، رفع وجهه للأعلى وقد بدأت قطرات المطر الخفيفة تهفت إلى جبينه فأعاد رأسه للوراء أكثر سائحاً لها بمحو ثقل أخطائه المحفورة عن أرض ماضيه المُنخنة بالجراح .

أما رؤى فقدت أغلقت خلفها باب حجرتها التي تتشارك فيها مع مريضة أخرى، تلك المريضة الغامضة التي تُثير بداخلها الفضول لمعرفة حكايتها، وفي يوم ما ستكتب عنها. جلست أمام الحاسوب وبدأت تسطر أول كلماتها:

" أكتب إليكم أول كلماتي وأنا مازلت نزيلة المصححة النفسية أتلقي الجلسات، ليس الشعور بالتعافي هو فقط ما يمنحني القوة الآن لمواجهةكم، بل ربما الجزء المريض هو الذى يفعل، فالتعقل الشديد هو الذى يجعلنا نَجُنُ أحياناً ! .

سأحكي لكم فى كل مرة بعضاً من خيالاتي، منها ما هو حدث بالفعل، ومنها ما لستُ مُتيقنة حتى الآن هل هو حقيقي أم لا وسأنتظر تعليقاتكم عليها، بحكايات مُشابهة، حكايات ومشاكل مطمورة تخشون البوح بها، فالكثير من البشر يقاتل على الخشية!، يعيش بها، ويموت لو هُدد بكشف غطاءها .

حدثيني عنه وما تتمنين منه، وما تكرهين فيه، هو نصفك الآخر
حدثني عنها، أظفر بما يعتمل بصدرك لها، هى عالمك الآخر
أما ما سأكتبه الآن لكم فهى حكايتي أنا، قد تعتقدون أنها مجرد حكاية، وقد ترونها دعوة لفهم العالم الآخر " .

.. تمت بحمد الله ..

صدر للكاتبة :

أولا : الروايات الورقية :

- ١ . ايماجو رواية
- ٢ . اكتشفت زوجي رواية

ثانيا : الروايات الإلكترونية :

- ١ . اغتصاب .. لكن تحت سقف واحد رواية
- ٢ . مع وقف التنفيذ رواية
- ٣ . ولا في الأحلام رواية

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الحصرية والرائعة مجاناً

على موقع جديد كتب بـدف

www.jadidpdf.com